

قراءات في
الشعر الأندلسي

الأستاذ الدكتور
صلاح جرار
أستاذ الأدب الأندلسي والمغربي
قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب - الجامعة الأردنية

دار المسيرة


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

قراءات في
الشعر الأندلسي

رقـــم التصنيـــف : 811.63
المؤلف ومن هو في حكمه: صلاح جرار
عنـــوان الكتـــاب: قراءات في الشعر الأندلسي
رقـــم الايـــداع : 2006/5/1034
الـواصفـــــــات: /الشعر العربي//العصر الأندلسي/
بيـانـــات النـــشر : عمان - دار المسيرة للنشر والتوزيع
* - تم اعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

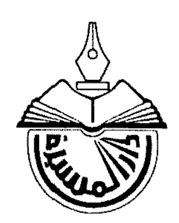
الطبعة الأولى 2007م - 1427هـ
الطبعة الثانية 2009م - 1430هـ



عمان-العبدلي-مقابل البنك العربي
هاتف:5627049 فاكس:5627059
عمان-ساحة الجامع الحسيني-سوق البتراء
هاتف:4640950 فاكس:4617640
ص.ب 7218 - عمان 11118 الأردن
www.massira.jo

قراءات في
الشعر الأندلسي

الأستاذ الدكتور
صلاح جرار
استاذ الأدب الأندلسي والمغربي
قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب - الجامعة الأردنية



فهرس المحتويات



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

كان من أهمّ ما نقله العربُ معهم الى الأندلس، بالإضافة الى رسالة الإسلام، الشعر والأدب. فقد ظلّ الشعر ملازماً لهم في حلّهم وترحالهم، وما كادوا ينيخون رحالهم في أرض الأندلس حتى أخذت بذرة الشعر تنمو شيئاً فشيئاً ويزداد انتشارها في أرض الأندلس حتى غدا الشعر أرفع الفنون وأكثرها حظوة لدى أهل الأندلس كافة: عرباً ومستعربين، ولدى الطبقات الاجتماعية كافة: ملوكاً ووزراء وقضاة وحجاباً ورجالا ونساءً، إلى أن بلغ بهم أن نجد أهل مدينة شِلْب كما يقول ياقوت الحموي في معجم البلدان والقزويني في آثار البلاد وأخبار العباد «سمعتُ ممن لا أحصي أنّه قال: قلّ أن ترى من أهلها من لا يقول شعراً ولا يعاني الأدب، ولو مررت بالفلاّح خلف فدّانه، وسألته عن الشعر قَرَضَ من ساعته ما اقترحْتَ عليه وأيَّ معنى طلبْتَ منه»[1].

وفي مفاضلته بين الأندلس وبرّ العُدوة (المغرب) يقول أبو الوليد الشقندي عن إشبيلية «وأمّا ما فيها من الشعراء والوشاحين والزجّالين فما لو قُسموا على برّ العُدوة ضاق بهم، والكلّ ينالون خير رؤسائها ورفدهم»[2].

وعلى الرغم من المحن التي تعرّض لها التراث الأندلسي بالحرق والإتلاف والنهب نتيجة الحروب والفتن والنزاعات ونتيجة الحرق على يد الإسبان بعد استيلائهم على غرناطة سنة 897هـ / 1492م، إلا أنّ عدداً غير قليل من دواوين الشعر الأندلسي والمجاميع الشعرية الأندلسية قد نجت من تلك المحن، مما أتاح للدارسين الوقوف على روائع من ذلك الشعر.

وقد أملت الظروف السياسية والاجتماعية والبيئية التي عاشها الأندلسيون على شعراء الأندلس النزوع الى موضوعات شعرية أكثر من غيرها؛ فجمال الطبيعة الأندلسية وسحرها الأخّاذ دفعهم إلى الإكثار من وصف الطبيعة والتفنن فيه. وتنوّع أصول المجتمع الأندلسي وحرّية المرأة دفعهم إلى التنويع في وصف مظاهر الحياة الاجتماعية والتفنن في شعر الغزل وما اتصل به من مجالس الغناء والطرب واللهو والخمر. وكان لسقوط مدنهم في أيدي الإسبان أثرٌ بالغٌ في الإكثار من شعر الاستنجاد وشعر رثاء المدن والشعر السياسيّ والتاريخي بشكل عام.

وقد خصصت هذا الكتاب لاستعراض بعض مظاهر النشاط الشعري في الأندلس عبر عصورها التاريخية المختلفة، وكذلك للوقوف على عوامل تطور الحركة الشعرية، ولقراءة

بعض قصائد الشعراء الأندلسيين المشهورة قراءة تحليلية فاحصة، وقد حرصت على أن تكون هذه القصائد ممثلة للأغراض الرئيسية التي أكثر الشعراء الأندلسيون من الخوض فيها، فاخترت قصيدة ابن زيدون التي بعث بها إلى محبوبته ولاّدة بنت المستكفي من إشبيلية بعد هروبه من سجن أبي الحزم ابن جهور في قرطبة سنة 432 هـ، متشوقاً إليها، وقصيدة ابن خفاجة في وصف الجبل، وقصيدة أبي البقاء الرندي في رثاء الأندلس، وقصائد المعتمد بن عبّاد في سجنه ومقارنتها بالقصائد التي قالها أبو فراس الحمداني في أسره. ثم أتبعتُ ذلك بثلاثة فصول يمثّل كلّ واحدٍ منها جانباً من جوانب صلة الشعر الأندلسي بالحياة الأندلسية؛ فتناولت في أحدها دور الشعر في مواجهة التردّي والضعف السياسيين في عصر ملوك الطوائف (422 هـ - 484 هـ) وعرضت في هذا الفصل لشعر أبي حفص الهوزني نموذجاً دالاً على هذا الدور. وتناولتُ في فصل آخر شعر المرأة الأندلسيّة، وهو شعرٌ يكشف عن جوانب مهمّة في شخصية المجتمع الأندلسي. وأما الفصل الأخير فجاء بعنوان: طريقة القراءة عند المكفوفين بصرياً في قصائد من الشعر الأندلسي، وهو فصلٌ يكشف عن بعض الأوجه الحضارية المهمّة في الحياة الأندلسيّة وفي الشعر الأندلسي.

سائلاً الله سبحانه وتعالى أن يحقق لنا في خدمة العلم ما نتمناه، وأن يبلغنا ما نرجوه من محبّته تعالى ورضاه.

والله وليّ التوفيق

أ.د صلاح جرار

عمّان في 2006/2/19

(1) معجم البلدان، 3/357-358 ، آثار البلاد وأخبار العباد 541.

(2) نفح الطيب 214/3

الفصل الأول

مظاهر الحركة الشعرية في الأندلس والعوامل المؤثرة فيها

مظاهر الحركة الشعرية في الأندلس والعوامل المؤثرة فيها

عصر الولاة (93 - 138 هـ):

لم يصل إلينا من الشعر العربي في عصر الولاة في الأندلس (93 – 138 هـ) سوى عدد قليل جداً من المقطوعات لبعض الولاة والفاتحين الأوائل. ويعود ذلك إلى عدة عوامل لعلّ من أهمها: قلة العنصر العربي في الأندلس خلال تلك الحِقبة قياساً إلى البربر وأهالي البلاد المفتوحة، وأن هؤلاء العرب كانوا منشغلين بالفتح والقتال وكانت غالبيتهم العظمى من الجنود والمقاتلة، فلم تكن لهم عناية بالأدب والشعر.

وقد أمضى الفاتحون سنوات عهد الولاة في محاولة تثبيت الحكم الاسلامي في الأندلس والعمل على استكمال الفتوحات والانشغال بالفتن الداخلية التي نشأت بين العرب والبربر وبين القيسية واليمانية وبين البلديّين (الفاتحون الأوائل) والشاميين الذين وصلوا من الشرق على صورة طوالع بعد الفتح مثل طالعة بلج بن بشر القشيري سنة 125هـ.

ولعل من أسباب قلة ما وصلنا من الشعر العربي في هذه الحقبة ضياع ذلك الشعر نتيجة للفتن والحروب وبخاصة فتنة قرطبة في أواخر عصر الخلافة، وما ارتكبه الإسبان من جريمة حرق التراث العربي في الأندلس بعيد دخولهم غرناطة وانتهاء الحكم العربي الإسلامي في الأندلس.

وذكرت المصادر أن من التابعين الذين دخلوا الأندلس في عهد الولاة للجهاد والرباط: محمد بن أوس بن ثابت الأنصاري وحنش بن عبد الله الصنعاني وعبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ويزيد بن قاسط السكسكي المصري وموسى بن نصير»[1].

وممّن وصلت إلينا بعض أشعارهم في عهد الولاة: أبو الخطّار حسام بن ضرار بن سلامان الكلبي الذي ولي الأندلس سنة 125 هـ، فمن شعره ينتصر لليمانية ويذكّر بيوم راهط:

افأتم بني مروان قيساً دماءنا	وفي الله إن لم تنصفوا حكمٌ عدلُ
كأنكم لم تشهدوا مرج راهطٍ	ولم تعلموا من كان ثمّ له الفضلُ
وقيناكُمُ حرَّ القنا بنحورنا	وليس لكم خيلٌ سوانا ولا رَجْل
فلما بَلغتم نيْلَ ما قد اردتم	وطاب لكم منّا المشارب والأكل
تعاميتُمُ عنّا بعينٍ جليّةٍ	وانتم كذا ما قد علمنا لها فُعُلُ
فلا تأمنوا إن دارت الحرب دورةً	وزلّت عن المِرقاة بالقدم النَعْلُ
فينتقض الحبل الذي قد فتلتم	الا ربّما يُلوى فيُنتقض الحبلُ[2]

وقال أبو الخطار أيضاً يخاطب الصميل بن حاتم رئيس المضرية ورأس المتعصبين معها على اليمانية في ولاية يوسف بن عبد الرحمن الفهري:

إنّ ابن بكرٍ كفاني كلّ معضلةٍ ... وحطّ عن غاربي ما كان يؤذيني
إذا اتخذت صديقاً أو هممتَ به ... فاعمد لذي حَسَبٍ إن شئت أو دينِ
ما يقدر الله في مالي وفي ولدي ... لا بدّ يدركني لو كنتُ بالصين(3)

وله أيضاً

فليت ابن حوّاسٍ يخبّر انني ... سعيتُ به سعيَ امرئ غير غافل
قتلت به تسعين تحسبُ انّهم ... جذوع نخيلٍ صُرّعت بالمسايل
ولو كانت الموتى تباع اشتريته ... بكفّي وما استثنيتُ منها اناملي(4)

وممّن وصل إلينا بعض شعرهم في عصر الولاة أيضاً أبو الأجرب جَعْوَنة بن الصمّة الكلابي، قال فيه الحميدي في جذوة المقتبس، «من قدماء شعراء الأندلس، ذكره أبو محمد علي بن أحمد فقال: وإذا ذكرنا أبا الأجرب جَعْوَنة بن الصِّمة لم نُبار به إلاّ جريراً والفرزدق لكونه في عصرهما، ولو أُنصِفَ لاستُشهدَ بشعره، فهو جارٍ على أوائل مذاهب العرب، لا على طريق المحدثين. هذا آخر كلامه فيه، ومما وقع إليّ من شِعره:

ولقد أراني من هوايَ بمنزلٍ ... عالٍ وراسي ذو غدائر افرعُ
والعيشُ اغيدُ ساقطٌ افنانه ... والماء اطيبُه لنا والمرتعُ»(5)

وترجم له ابن سعيد الأندلسي في كتاب المغرب فقال: «من المقتبس: أنه كان مدّاحاً للصميل، وزير يوسف بن عبد الرحمن الفهري سلطان الأندلس، أفنى فيه قوافيه، وكان الصميل قد أغلظ القسم على نفسه ألاّ يراه إلاّ أعطاه ما حضره، فكان أبو الأجرب يعتمد إغباب لقائه، وكان لا يزوره إلاّ مرتين في العيدين، وكان قد هجاه وهجا قومه، فلما حصل في يده عفا عنه فنسخ هجوه بمدحه، قال: وكان فارساً شجاعاً يدعى عنترة الأندلس، لم يلحق دولة بني أمية. قيل إنه مات قبل وقعة المصارة التي كانت لعبد الرحمن على يوسف (عبد الرحمن الداخل على يوسف الفهري). ومن الجذوة أنه جعونة بن الصمة، وأنشد له:

ولقد أراني من هوايَ بمنزلٍ ... عالٍ وراسي ذو غدائر افرعُ
والعيشُ اغيدُ ساقطٌ افنانه ... والماء اطيبُه لنا والمرتعُ»

وجعله ابن حزم في طبقة جرير والفرزدق وعصرهما، وذكر الحجاري أنه من العرب الطارئين على الأندلس، كان يرحل ويحلُّ بأكناف قرطبة"(6).

ومن شعره الذي يمدح فيه الصميل بن حاتم ويتحدث فيه عن مجده القديم الموروث:

بنى لك حاتمٌ بيتاً رفيعاً | رأيناه على عُمُدٍ طوالِ
وقد كان ابتنى شمرٌ وعمروٌ | بيوتاً غير ضاحية الظلال
فأنت ابن الأكارم من معدٍّ | بمعتلج الأباطح والرمالِ[7]

ومن شعره في مدح الصميل بن حاتم عندما أعطاه الصميل دابّته ليركب عليها:

دونَ الصميل شريعةٌ مورودةٌ | لا يستطيع لها العدوّ ورودا
فُتَّ الورى وجمعْتَ أشتات العلى | وَحويت مجداً لا ينال وجودا
فإذا هلكت فلا يحملُ فارسٌ | سيفاً ولا حملَ النساءُ وليدا[8]

وفي رسالته في فضائل أهل الأندلس يقول أبو محمد ابن حزم «ونحن إذا ذكرنا أبا الأجرب جعونة بن الصمة الكلابي في الشعر لم نباه به إلاّ جريراً والفرزدق، لكونه في عصرهما، ولو أنصف لأستُشهد بشعره، فهو جارٍ على مذهب الأوائل، لا على طريقة المحدثين»[9].

وتورد المصادر حكاية عن شهرة أبي الأجرب تقول: وحكى غير واحد كابن الأبّار أنّ عباس بن ناصح الشاعر لما توجّه من قرطبة إلى بغداد ولقي أبا نواس، قال له: أنشدني لأبي الأجرب، قال: فأنشدته، ثم قال: أنشدني لبكر الكناني، فأنشدته. وهذان شاعران من الأندلس»[10].

أما الشاعر بكر الكناني فينقل ابن سعيد المغربي عن ابن حيان قوله إنّ بكراً الكناني كان يضرب به المثل في(الفصاحة)في الأندلس[11]. ومما وصفه به الزبيدي قوله «كان من أهل العلم باللغة، وكان الغاية في الفصاحة، حتى ضرب به المثل فقيل: أفصح من بكرٍ الكناني. وكان شاعراً مجيداً»[12]. وانظر شعراً له في المقتبس يمدح عبد العزيز بن أبي عبدة حاجب الحكم الربضي.

وممن شهروا بقول الشعر في عصر الولاة أبو جَوْشَن الصُّمَيْل بن حاتم بن شَمِر بن ذي الجوشن الكلابي، دخل الأندلس في طالعة بلج بن بشر القشيري، يذكر ابن الأبّار في الحلة السيراء أنه كان رجلاً أميّاً لا يقرأ ولا يكتب[13]، كان وزيراً ليوسف الفهري آخر الولاة على الأندلس قبل استيلاء عبد الرحمن الداخل عليها، وتوفي في سجن عبد الرحمن الداخل سنة 142هـ. ومع أنه كان أميّاً إلاّ أنّ له شعراً منه قوله عندما أغار الطائيون على داره بشَقُنْدة يوم المُصارة عند انهزام يوسف الفهري، واستخلاف عبد الرحمن الداخل:

ألا إنَّ مـالي عند طيٍّ وديعةٌ ... ولا بدَّ يوماً أن تردَّ الودائع
سلوا يَمَناً عن فعل رمحي ومنصلي ... فإن سكتوا اثنَتْ عليَّ الوقائعُ(14)

وقد حكى عنه أبو بكر ابن القوطيّة في تاريخه أنّه مرّ بمعلّم يتلو (وتلك الأيّام نداولها بين الناس) (آل عمران 140) فوقف يتفهم، وكان أمياً لا يقرأ، ونادى المعلم «يا هناه! كذا نزلت هذه الآية؟» قال: نعم. قال: فأرى والله أن سيشركنا في هذا الأمر العبيدُ والأراذل والسفِلَةُ»(15).

وفي حديثه عن يوسف الفهري آخر الولاة في الأندلس قبل دخول عبد الرحمن الداخل إليها يقول ابن الأبّار «وكان معدوداً في فصحاء الأمراء وابنه أبو الأسود كذلك(16).

ومن الشعر المنسوب لعصر الفتوح والولاة في الأندلس أبياتٌ منسوبة لطارق بن زياد قالها عندما دخل الأندلس واستولى عليها:

ركبنا سفيناً بالمجاز مقيّرا ... عسى أن يكون الله منّا قد اشترى
نفوساً وأموالاً وأهلاً بجنّةٍ ... إذا ما اشتهينا الشيء منها تيسّرا
ولسنا نبالي كيف سالت نفوسنا ... إذا نحن أدركنا الذي كان أجدرا(17)

وقد نقل المقري تعليقاً لابن سعيد على هذه الأبيات «وهذه الأبيات مما يكتب مراعاة لقائلها ومكانته، لا لعلوّ طبقتها».

والمتأمل لهذه الأشعار جميعها يتبين له أنها تعكس الظروف السياسية التي كانت سائدة في الأندلس آنذاك من فتن ونزاعات وحروب، وأنّ الروح الأندلسيّة لم تكن قد أخذت تتشكل بعد، ولذا فإن هذه الأشعار تحمل موضوعات شعر أهل المشرق وخصائصه، فهي أشعارٌ تميل إلى البداوة والخشونة وتستمد صورها ومعانيها من بيئة الصحراء العربية في المشرق، وتعنى بجزالة الألفاظ وفخامة العبارة، وتتمثل كبار شعراء المشرق مثل جرير والفرزدق وعنترة وغيرهم وتجري على تقاليد المدرسة المحافظة.

وسبب ذلك هو أنّ هؤلاء الشعراء من ولاة ووزراء وأدباء كانوا قريبي العهد بالمشرق وثقافته وأدبه.

عصر الإمارة

أما في عصر الإمارة (138 – 316 هـ) فقد كان وصول الأمير الأموي عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، المعروف بعبد الرحمن الداخل إلى الأندلس، وتجديده حكم بني أميّة فيها سنة 138 هـ، كان يمثل فجراً جديداً للأدب العربي في

الأندلس وللشعر خاصة، فقد استطاع عبد الرحمن الداخل الذي حكم الأندلس من سنة 138 هـ إلى سنة 171هـ، أن يخمد الفتن والنزاعات الداخلية في الأندلس وأن يحمي ثغورها ويمنع اعتداءات الإسبان عليها وأن يشرع في بناء مؤسساتها العلمية والسياسية والاقتصادية والعسكرية، مما انعكس بصورة إيجابية على النشاط الأدبي. وقد نشأت عدة عوامل أدت إلى ازدهار الحياة الأدبيّة، منها:

1- أنّ أمراء بني أمية الذين تعاقبوا على الأندلس في عصر الإمارة كانوا كلّهم على قدر كبير من الفصاحة والبلاغة، وكانوا يقرضون الشعر، ويكتبون النثر البليغ من توقيعات وخطب ووصايا وغيرها. وقد أوردت المصادر عدة مقطوعات شعرية بديعة لعبد الرحمن الداخل، منها قوله متشوقاً إلى معاهده بالشام:

أيها الراكب الميمّم أرضي ... اقْرِ من بعضيَ السلامَ لبعضِ
إني جسمي كما علمت بأرضٍ ... وفؤادي ومالكيه بأرضِ
قدّر البينُ بيننا فافترقنا ... وطوى البينُ عن جفوني غمضي
قد قضى الله بالفراق علينا ... فعسى باجتماعنا سوف يقضي[18]

وله أيضاً وقد رأى نخلة بباب الرصافة بقرطبة:

تَبدّت لنا وسط الرصافةِ نخلةٌ ... تناءت بأرض الغرب عن بلد النخلِ
فقلت: شبيهي في التغرب والنوى ... وطول التنائي عن بنيّ وعن أهلي
نشأتِ بأرضٍ انت فيها غريبةٌ ... فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي
سقتك غوادي المزن من صوبها الذي ... يسُحُّ ويستمري السماكين بالوبل[19]

وقال يخاطبها أيضاً:

يا نخلُ انت غريبةٌ مثلي ... في الغرب نائيةٌ عن الأصل
فابكي، وهل تبكي مكيّسةٌ ... عجماءُ لم تطبع على خبلِ؟
لو انها تبكي إذاً لبكت ... ماءَ الفراتِ ومنبتَ النخلِ
لكنها ذَهَلَتْ وأذهلني ... بغضي بني العبّاس عن هلي[20]

كذلك أوردت المصادر لابنه الأمير هشام بن عبد الرحمن المعروف بهشام الرضا (171 هـ - 180 هـ)[21]. وللحكم بن هشام المعروف بالحكم الربضي (180 - 206 هـ) الذي وصفه ابن الأبّار في الحلة السيراء بقوله «وكان شجاعاً باسلاً أديباً مفتنّاً، خطيباً مفوّهاً

وشاعراً مجوّداً، تحذر صولاته وتستدرُ أبياته»[22]. وله اشعارٌ يفخر فيها بقوته وقضائه على ثورة أهل الربض بقرطبة، وأشعارٌ في الغزل[23] فمن شعره في الفخرِ قوله:

رابتُ صدوعَ الأرضِ بالسيفِ راقعا   وقدماً لأمتُ الشعْبَ مذ كنتُ يافعا
فسائلْ ثغوري هل بها اليوم ثغّرةٌ   ابادرها مُستَنْضيَ السيفِ دارعا
وسائلُ على الأرض الفضاء جماجماً   كأقحاف شريان الهبيد لوامعا
تنبّيك اني لم أكن في قراعهم   بوانٍ وقدماً كنت بالسيف قارعا
وأني إذا حادوا جزاعاً عن الردى   فما كنتُ ذا حيْدٍ عن الموت جازعا
حميتُ ذماري فاستبحتُ دماءهم   ومن لا يحامي ظلّ خزيان ضارعا
ولّما تساقينا سجال حروبنا   سقيتهم سَجلاً من الموتِ ناقعا
وهل زدْتُ ان وفيتُهم صاع قرضهم   فلاقوا منايا قُدّرت ومصارعا
فهاك بلادي إنني قد جعلتُها   مِهاداً ولم اتركْ عليها منازعا[24]

وكذلك أوردت المصادر أشعاراً لعبد الرحمن بن الحكم المعروف بعبد الرحمن الأوسط وعبد الرحمن الثاني (206-238 هـ)[25]، وأكثر أشعاره في الغزل بجاريته المحظيّة لديه طروب، فمن ذلك قوله:

فقدتُ الهوى مذ فقدتُ الحبيبا   فما اقطع الليلَ إلاّ نحيبا
وامّا بدت ليَ شمس النها   ر طالعةً ذكّرتني طروبا
فيا طولَ شوقي إلى وجهها   ويا كبداً أورثتها ندوبا
ويا احسن الخلق في مقلتي   واوفرهم في فؤادي نصيبا
لئن حال دونك بعدُ المزا   رِ مِنْ بعدِ أن كنتِ منّي قريبا
لقد أورث الشوقُ جسمي الضنى   وأضرم في القلبِ منّي لهيبا
عدانيَ عنك مزارُ العدا   وَقَودي إليهم لهاماً لهيبا
كأيّن تخطّيتُ من سبسبٍ   وجاوزتُ بعد دروبٍ دروبا
الاقي بوجهيَ حرَّ الهجير   إذا كاد منه الحصى أن يذوبا
وادّرعُ النقعَ حتى لبسـ   تُ من بعد نضرةِ وجهي شحوبا
أريد بذاك ثواب الإله   ومَنْ غيره ابتغيه مُثيبا؟
انا ابن الهشامين من غالبٍ   اشُبُّ حروباً وأُطفي حروبا

بـيَ ادّارك الـلـه ديـن الـهـــــدى فـأحـيـيـتُـهُ واصطلمتُ الصليـبـا
ســمــوتُ إلى الشـرك في جـحـفـلٍ مــلأتُ الحــزونَ به والســهـوبا[24]

كما أوردت المصادر أشعاراً للأمير محمد بن عبد الرحمن الذي ورث الإمارة من سنة 238 حتى سنة 273 هـ [27]، ولابنه عبد الله بن محمد (275-300 هـ) الذي ولي الإمارة بعد أخيه المنذر بن محمد (273-275)[28] . وللأمير عبد الله بن محمد أشعارٌ في الغزل وفي الزهد، فمن شعره في الزهد قوله:

ارى الدنيــا تصــيــر إلى فناءٍ ومــا فــيـهــا لشيءٍ من بقــاءٍ
فــبــادرْ بالإنابةِ غــيــرَ وانٍ علـى شيءٍ يصــيــر إلى فنـاءِ
كــأنك قــد حُــمِلْتَ على ســرير وغُــيِّبَ حــسنُ وجـهك في الثــراء
فنافِسْ في التــقى واجنح إليـــه لعلّك تُرْضِيَنْ ربَّ الســمــاءِ[29]

2- أنّ أمراء بني أمية أظهروا رعاية بالغة للشعراء، وكانوا يغدقون عليهم الجوائز والأعطيات ويجعلونهم وزراء وسفراء وندماء ويقيمون لهم مجالس الشعر ويحضرون مجالسهم ويشاركونهم قرض الشعر، وقد اتخذ كل منهم حاشية من الشعراء يخلدون إنجازاته ويصاحبونه في حلّه وترحاله وغزواته.

ومن الشعراء الذين وفدوا على عبد الرحمن الداخل أبو عثمان سعيد بن الفرج الرشاش[30] ومؤمن بن سعيد [31] الذي لقي أبا تمام وأدخل شعره إلى الأندلس، وأبو المخشي عاصم بن زيد وغيرهم[32].

ومن الأمراء الذين حفلت قصورهم بمجالس الشعر والأدب، الأمير الحكم بن هشام الربضي، فقد ذكر ابن حيّان في المقتبس نقلاً عن أحمد بن عيسى الرازي «كان عصر الأمير الحكم قبل وثوب أهل حضرته به، من أوثق أعصار الخلفاء المروانيين وأنبهها: فيه ظهر العلماء والشعراء والبلغاء والأدباء...[33]»، ثم يذكر من هؤلاء الشعراء: عباس بن ناصح الثقفي الجزيري[34] وعباس بن فرناس[35] ويحيى بن الحكم الغزال[36]، وإبراهيم بن سليمان الشامي[37].

ويلاحظ في ما أورده ابن حيّان أمران: الأوّل أن الرازي حصر ظهور العلماء والشعراء والبلغاء والأدباء في المدة التي سبقت قيام ثورة أهل الربض على الحكم بن عبد الرحمن في سنتي 189هـ و 202 هـ، مما يدلّ على أنّ هذه الثورة قد أثرت بصورة سلبية على الحركة الأدبية في الأندلس، ومما يؤكد ذلك ما ورد في كتاب المعجب[38] عن الحكم

الربضي «وفي أيامه أحدث الفقهاء إنشاد أشعار الزهد والحض على قيام الليل في الصوامع، أعني صوامع المساجد، وأمروا أن يخلطوا مع ذلك شيئاً من التعريض به، مثل أن يقولوا: يا أيها المسرف المتمادي في طغيانه، المصرّ على كبره، المتهاون بأمر ربّه، أفق من سكرتك وتنبّه من غفلتك» وما نحا هذا النحو، فكان هذا من جملة ما هاجه وأوغر صدره عليهم». ومما يؤكّد انصراف الشعراء عنه بسبب طغيانه ما ساقه ابن حيّان عن الشاعر غربيب بن عبدالله الذي هرب إلى طليطلة قبل حادثة الربض خوفاً من الأمير وقال شعراً كثيراً في هجائه والتحريض عليه[39]. وأمّا الملحظ الآخر فهو محاولة ابن حيّان الدفاع عن الحكم الربضي واتهام ابن حزم بأنه السبب في التعفية على محاسن هذا الأمير بسبب ما أورده عنه في رسالته «نقط العروس»[40].

ومن أمراء بني أميّة بالأندلس الذي احتفوا بالشعراء احتفاء كبيراً الأمير عبد الرحمن بن الحكم (الأوسط)، فقد كان يصطحب الشعراء معه في غزواته ويعقد لهم المجالس في قصره. وقد أفاض ابن حيّان في المقتبس في الحديث عن علاقة عبد الرحمن بن الحكم بالشعراء والمغنين، وعرّف بجلسائه من هؤلاء الشعراء تعريفاً وافياً ومنهم: عبدالله بن الشمر بن نمير[41] وعبيد الله بن قرلمان[42]، وعبّاس بن فرناس[43]، ويحيى بن الحكم الغزال[44]، وسعيد بن الفرج الأزدي الرشاش[45]، وعثمان بن المثنى القيسي[46]، وأبو بكر عبدالله بن بكر بن سابق الكلاعي البكري الملقب بالنذل[47]، والحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث[48]، ومؤمن بن سعيد[49].

وفي حديثه عن الأمير المنذر بن محمد بن عبد الرحمن يقول ابن عذاري في «البيان المغرب»: «وكان يجزل العطاء للشعراء فينشدونه غازياً وراجعاً، وكان من شعرائه أحمد بن عبد ربّه والعكّي وغيرهما»[50].

ويصف ابن حيّان مجلس الأمير عبدالله بن محمد (275-300هـ) فيقول: «وكان مجلس الأمير عبدالله قبل الخلافة وبعدها أعمر مجالس الملوك للفضائل وأنزهها من الرذائل، وأجمعها لطبقات أهل الآداب والتعاليم، فكانت كل نادرة تدور على الأفواه وتتغلغل في الألسنة لا يستقر قرارها إلاّ في مجلس مذكراته ولا يفكّ عويصها إلاّ بين يديه...»[51]. وفي حديثه عن شعراء الأمير عبدالله بن محمد يقول ابن حيّان إنّه «كان يرتاح للثناء فيستدعي المديح من شعراء زمانه وفيهم يومئذ كثرة، وبعضهم بحال ستر وصيانة لا يحتاجون في حفظهم إلى الاقتراب من ربّ الدولة فلا يخلو من إهداء الشعراء أشعارهم

إليه عند ما يحدثه الله لديه من فرحة وترحة، على علم منهم بنزارة عطائه فيرتاح إليها، ويصلهم بما قد عودهم عليه..»[52]، ثم يعرّف ابن حيّان بشعراء هذا الأمير، ومنهم أحمد ابن عبد ربه[53]. وعبيديس بن محمود[54] وإسماعيل بن بدر[55]، ومحمد وعمر ابنا إبراهيم بن عبد الرحمن بن معاوية بن المنذر القريسي المعروفان بابني المصنوع[56] وصفوان القرشيان[57] ومقدم بن معافى القبريّ[58] وأحمد بن قريض بن قلزم[59] وقاسم بن عبد الواحد العجلي[60] وسعيد بن عبد ربه[61]، وإسحق بن اسماعيل المعروف بالمنادي[62] وسعيد بن عبد القط وأخوه[63] ومحمد بن يحيى القلفاط[64] ومحمد بن اسماعيل المؤدب [65] وزيد بن مسعود بن سليمان الحجوي[66] وغفير بن مسعود [67] ومحمد بن عبد السلام المعروف بابن قلمون[68] وعمر وأحمد ابنا فرج[69].

3- ومن عوامل النشاط الأدبي في الأندلس في عصر الإمارة منافسة الأندلسيّين لأهل المشرق، إذ كانت الإمارة الأموية في الأندلس تمثّل النقيض للدولة العباسية في بغداد في مختلف المجالات بما فيها المجال الثقافي والأدبي، وقد تمثلت هذه المنافسة في مظاهر شتّى، فالأندلسيون كانوا يبحثون عمّا يميزهم عن أهل المشرق، فابتكروا فنّ الموشّح الذي يعزى إلى مقدّم بن معافى القبري ومحمد بن محمود القبري الضرير، وهما من شعراء الأمير عبدالله بن محمد الذي حكم الأندلس بين 275 هـ و 300 هـ، كما ينسب بعدهما إلى أحمد بن عبد ربه[70].

وحاول الأندلسيون، في هذا الإطار، أن يحذو حذو المشارقة في التآليف الأدبية، فألفوا في طبقات الشعراء مثل كتاب طبقات الشعراء بالأندلس لعثمان بن ربيعة (ت 310 هـ)[71].

4- ومن هذه العوامل أيضاً ازدهار فنّ الغناء والموسيقى ولا سيّما بعد قدوم زرياب، أبي الحسن علي بن نافع البغدادي، إلى الأندلس أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم. وقد أفاض ابن حيّان في كتابه المقتبس[72] في الحديث عن الغناء في عصر الإمارة وعن خبر زرياب، وأثر ذلك في تطوّر الشعر الأندلسي، فقد كان الغناء شديد الارتباط بالشعر، فيذكر ابن حيّان أن زرياب كان يحفظ عشرة آلاف مقطوعة من الأغاني بألحانها[73] فضلاً عن أنّ مجالس الغناء كانت مجالاً لنظم الشعر ووصف الغناء والأصوات والمغنين والآلات وغير ذلك، كالذي نجده كثيراً في ديوان ابن عبد ربه، وفي شعر عبدالله بن الشمر ومؤمن بن سعيد ومقدّم بن معافى وغيرهم. ويتصل بذلك أيضاً

كثرة اقتناء الجواري في قصور الأمراء وعلية الناس ومشاركتهنّ في كثير من الأنشطة الثقافية والأدبية والاجتماعية.

5- ومن هذه العوامل أيضاً ازدهار الحركة العلمية، ونشاط حركة رحلة العلماء من الأندلس إلى المشرق وبالعكس مع ما يجلبه هؤلاء العلماء إلى الأندلس من مؤلفات المشارقة في مختلف العلوم من مؤلفات أدبية ولغوية ودينية ودواوين شعراء وغيرها؛ وقد أدى ذلك إلى عناية الأندلسيين بإنشاء المكتبات الخاصة والعامّة في منازل العلماء وقصور الأمراء والمساجد؛ وكذلك أقيمت المدارس وحلقات العلم في المساجد وغيرها.

6- نشوء جيل من الأدباء ممّن ولدوا في الأندلس وتمثلوا طبيعتها وبيئتها وواقعها السياسي والاجتماعي، وصوّروا مظاهرها الطبيعية والاجتماعية والسياسية والعلمية في أشعارهم، بالإضافة الى شعر العصبيات الذي يمثل صورة من النقائض في الشعر المشرقي، وقد عبّر هذا الشعر عن الصراع بين العرب والمولّدين، وكان شعراء العرب هم قادتهم مثل سوّار بن حمدون القيسي وسعيد بن جودي، وكان شاعر العرب في هذا النزاع محمد بن سعيد بن مخارق الأسدي، وكان شاعر المولدين عبد الرحمن بن أحمد العبلي[74].

لقد خلّفت هذه العوامل مجتمعةً حركة أدبية نشطة، وبخاصّة منذ أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط حتى قيام عصر الخلافة سنة 316 هـ، وبرز عددٌ كبيرٌ من الشعراء المشاهير البارعين، ولئن لم يصل إلينا من عصر الإمارة سوى ديوان أبي عمر أحمد بن عبد ربه وديوان يحيى بن الحكم الغزال، إلا أن أشعار بقية الشعراء وردت في مجاميع شعرية غير قليلة مثل القسم الخاصّ بالأندلس من كتاب يتيمة الدهر للثعالبي، وكتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس الكتّاني، وكتاب البديع في وصف الربيع للحميري، بالإضافة إلى كثير من المصادر التاريخية والأدبية وكتب التراجم الأندلسية. ولو أنّ الله تعالى قدّر لنا وصول كتاب الحدائق لأبي عمر أحمد بن فرج الجياتي (ت 360 هـ) الذي ألفه للحكم المستنصر (ت 366 هـ) والذي اشتمل على مائتي بابٍ من الشعر الأندلسي في كل باب مائتا بيت من الشعر[75]، لربما وقفنا على كثير من شعر شعراء هذا العصر.

ولئن كان الشعر العربي في الأندلس في عصر الفتوحات والولاة محافظاً ويحمل ملامح الشعر المشرقي، فإنّ الشعر في عصر الإمارة ظهر فيه تياران أحدهما محافظ يحاكي الشعر العربي في المشرق، والثاني تجديديّ يحاول استلهام البيئة الأندلسية في موضوعاته

وأساليبه، فقد كان مذهب الشاعر عباس بن ناصح في شعره على «مذاهب العرب الأول في أشعارهم، فيصرّف الغريب، ويهوى المتانة[76]» وكان عبّاس بن فرناس ويحيى بن الحكم الغزال من الشعراء المجدّدين الذي يميلون إلى الرقة وسلاسة اللفظ واستلهام الطبيعة الأندلسية.

عصر الخلافة (316 - 422 هـ)

عندما توفي الأمير عبدالله بن محمد المرواني سنة 300 هـ خلفه على إمارة الأندلس حفيده عبد الرحمن بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام ابن عبد الرحمن الداخل، أبو المطرّف، وكان جدّه الأمير عبدالله بن محمد يحظيه دون بنيه ويومي إليه ويرشحه لأمره وربّما أقعده في بعض الأيام والأعياد مقعد نفسه لتسليم الجند عليه[77].

لم يعلن الأمير عبد الرحمن نفسه خليفة إلاّ بعد ستة عشر عاماً من حكمه (أي في سنة 316 هـ)، ولقّب نفسه بالناصر لدين اللّه، متوّجاً بإعلانه الخلافة جهود الأندلسيين في منافسة الخلافة العبّاسية في المشرق والخلافة الفاطمية في شمال إفريقيا. واستمرّ بعد ذلك خليفةً حتى وفاته سنة 350 هـ. وخلفه ابنه الحكم بن عبد الرحمن الذي لقب بالمستنصر بالله، وولي الخلافة من سنة 350-366 هـ، وجاء بعده هشام بن الحكم الذي لقب بالمؤيّد بالله، وفي زمنه أخذت الخلافة بالضعف بعد استبداد حاجبه المنصور بن أبي عامر بالسلطة هو وأبناؤه، مما أدى إلى اشتعال فتنةٍ كبيرة في قرطبة أتت على كثير ممّا أنجزه بنو أميّة فيها، وتعاقب على الخلافة إبّان تلك الفتنة خلفاء ضعاف منهم محمد بن هشام بن عبد الجبار المهدي، ثم سليمان بن الحكم بن سليمان الملقب بالمستعين بالله، ثم علي بن حمّود الملقب بالناصر، ثم أخوه القاسم بن حمود، ثم يحيى بن علي الملقب المعتلي، ثم عبد الرحمن بن هشام المستظهر، ثم محمد بن عبد الرحمن الملقب المستكفي بالله، وكان آخرهم هشام بن محمد الملقب بالمعتد بالله، وانقطعت الخلافة الأموية سنة 422 هـ.

وقد بلغت الأندلس إبّان حكم عبد الرحمن الناصر (300-350 هـ) وابنه الحكم المستنصر (350-366) شأواً بعيداً في الازدهار السياسي والعلمي والاقتصادي والعمراني والأدبي، وتكفي الإشارة إلى مكتبة الحكم المستنصر التي اشتملت على أربعمائة ألف مجلّد وبلغ عدد فهارسها أربعة وأربعين مجلداً في كلّ مجلّد خمسون ورقة[78]، وكان الحكم يغري

العلماء والأدباء بأن يؤلفوا له كلّ في مجال تخصّصه، فألف له أحمد بن فرج الجياني كتاب الحدائق[79]، وألف له محمد بن حارث الخشني (ت 361 هـ) كتباً كثيرة بلغت مائة ديوان[80]، وألفت له كتب كثيرة في أخبار شعراء الأندلس[81]، كما التحق ببلاطه عدد كبير من علماء المشرق المشاهير مثل أبي علي القالي[82] وغيره. وقد قال الشقندي عن أيام بني أمية في الأندلس[83] «وقد نشأ في مدتهم من الفضلاء والشعراء ما اشتهر في الآفاق، وصار أثبت في صحائف الأيام من الأطواق في أعناق الحمام».

وقد واكبت الحركة الأدبية النهضة السياسية والعمرانية والاقتصادية والعلمية ونطقت بلسانها، ويشهد على هذه النهضة عدد جم من عناوين المؤلفات الأدبية التي وضعت في القرن الرابع الهجري. وقد أحصى الدكتور إحسان عباس اربعة عشر كتاباً منها: طبقات الشعراء بالأندلس لعثمان بن ربيعة (ت 310 هـ) وأخبار شعراء الأندلس لمحمد بن هشام الأموي، وطبقات الكتاب بالأندلس لسكن بن سعيد وكتاب الحدائق لابن فرج الجياني، وغيرها[84].

ويشهد على هذه النهضة الأدبية أيضاً ذلك العدد الكبير من الأدباء المشاهير في هذا القرن مثل أحمد بن عبد ربه، ومحمد بن شخيص، وجعفر بن عثمان المصحفي، ويوسف بن هارون الرمادي، ومنذر بن سعيد البلوطي وغيرهم.

وقد كانت إنجازات الخلفاء الأمويين ميداناً لأهل الأدب يخوضون فيه، فقد نظم ابن عبد ربه أرجوزة في غزوات الناصر من سنة 301 إلى 322 [85]، وورد في كتاب البيان المغرب في الحديث عن عبد الرحمن الناصر: "وقد أطال الشعراء في مدحه وأطنبوا في شكره"[86] وأشار صاحب المقتبس إلى اجتماع عدد من فحول الشعراء أمراء الكلام في بلاط الناصر الذين "برعوا في مديحه، وافتنوا في تقريظه وتوسعوا في ذكر عدالة سيرته وسماحة كفه وشجاعة قلبه وجزالة رأيه وثقوب فهمه ونفوذ عزمه وبصره بتدبير حروبه..."[87] ويضيف: "وكان المقدمون لديه من طبقتهم عدة خناذيذ مقدمهم معلمه في الصبا أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه، ويليه من نمطه عبيد الله بن يحيى بن إدريس، وعبد الملك بن سعيد المرادي، وإسماعيل بن بدر، وأغلب بن شعيب، وحسن بن حسان السناط، وغيرهم. ومن كبار الطارئين عليه من المشرق طاهر بن محمد المهند البغدادي ومحمد بن حسين الطبني الإفريقي، وغيرهما"[88].

ومما قاله ابن حيان في موضع آخر: "والشعر في الناصر لدين الله، رحمة الله عليه،

كثير جدا محمول عن فحول مشاهير يقدمهم ابن عبد ربه وابن ادريس والمهند والطبني ونمطهم المستوسعون في تجويد صناعتهم، ففضل ما ألفوا لديه من التوسعة عليهم والإحسان إليهم، فكل منهم كمل فيما صاغه فيه ديواناً بذاته..."[89].

وقد وقع الشيء ذاته للخليفة الحكم المستنصر بكثرة من أحاط به من الأدباء والشعراء الذين امتدحوه ووصفوا منجزاته العسكرية والعمرانية وغيرها. ومن هؤلاء الشعراء محمد ابن شخيص وطاهر بن محمد البغدادي المعروف بالمهند، ومحمد بن محامس الإستجي، وأحمد بن سليمان الكاتب البياني، ويوسف بن هارون الرمادي، ومحمد بن حسين الطبني. وكان الأدباء والخطباء يحتفلون مع الخلفاء بالأعياد وبالانتصارات وبقدوم وفود الأعاجم.

كما كان الخليفة الناصر وابنه الحكم المستنصر يشاركان في مجالس الأدب ويساجلان الشعراء، وأثر عنهما شعر ورسائل ومجاوبات وتوقيعات.

ولذلك قال أحد الأمويين في الأندلس:

السنا بني مروان كيف تبدّلت ... بنا الحالُ أو دارت علينا الدوائر
إذا وُلِدَ المولودُ منّا تهلّلت ... له الأرض واهتزّت إليه المنابر[90]

ومن القصائد المشهورة لابن عبد ربه في مدح عبد الرحمن الناصر سنة 300 هـ:

قد أوضح الله للإسلام منهاجاً ... والناسُ قد دخلوا في الدين أفواجا
وقد تَزيَّنَتْ الدنيا لساكنها ... كأنما أُلبِسَتْ وشياً وديباجا
يا ابن الخلائف إن المُزْنَ لو علِمَتْ ... نداك ما كان منها الماء ثجاجا
والحربُ لو علمَتْ بأسا تصول به ... ما هيّجت من حُميّاك الذي اهتاجا
مات النفاقُ وأعطى الكفرُ ذمّته ... وذلّت الخيلُ إلجاماً وإسراجا
وأصبح النصرُ معقودا بألوية ... تطوي المراحل تهجيراً وإدلاجا
ادْخَلْتَ في قبة الإسلام مارقةً ... أخرجتها من ديار الشرك إخراجا
بجحفل تشرقُ الأرضُ الفضاءُ به ... كالبحر يقذفُ بالأمواجِ امواجا
يقودُه البدرُ يسري في كواكبه ... عرمرما كسوادِ الليل رجراجا
يَرَوْنَ فيه بروقَ الموت لامعةً ... ويسمعون به للرعدِ اهزاجا
غادرْتَ في عقوتَيْ جيّانَ ملحمة ... ابكيتَ منها بأرض الشرك أعلاجا
في نصف شهرٍ تركْتَ الأرضَ ساكنةً ... من بعد ما كان منها الظهرُ قد ماجا

وُجِـدْتَ في الخـبـر المأثورِ منصلتـاً ... من الخـلائف خـراجـاً وولاّجـا

تُمـلا بك الأرضُ عـدلاً مـثلمـا مُلِئت ... جـوراً وتوضح للمـعـروفِ منهـاجـا

يا بَدْرَ ظُلمـتهـا يا شـمسَ صبحـتـهـا ... يا ليثَ حـومـتـهـا إنْ هـائجٌ هـاجـا

خُلقْتَ من جـوهـرِ العـقـيـانِ خـالصـةً ... ولم تكن نطفـةً في الصُلْبِ أمـشـاجـا

إنّ الخـلافـةَ لن ترضى - ولا رضـيـت- ... حـتّى عقـدْتَ لها في راسك التاجا[91]

والمتأمّل للأدب الأندلسي شعره ونثره في هذه الحقبة يلاحظ أنّ أصحاب الأقلام كانوا يقـفـون الى جـانب الخلفـاء الأمـويين في جهـادهم ونهـوضـهم بـواجـبـاتهم واضطلاعـهم بمسؤولياتهم تجاه الأمة والأندلس وتشييد حضارتها. لكنّهم كانوا في الوقت ذاته يتصدّون لهم إن هم انحرفوا عن السبيل القويم. وهم بذلك يقدّمون نموذجاً متقدّماً للرسالة التي ينبغي للأدب أن يتبنّاها والدور الذي يجب أن يقوم به.

ومن مظاهر نهضة الأندلس الأدبية في عصر الخلافة أنّ المرأة الأندلسية كان لها مساهمة فاعلة في تشييد صروح الحضارة الأندلسية، حيث شاركت في مختلف ميادين الأنشطة الثقافية والعلمية والأدبية، واشتهرت عددٌ من النسوة في مجالات مختلفة. ومن نساء الأندلس في القرن الرابع عائشة بنت أحمد بن قادم القرطبية (ت 400 هـ)، كانت متفوقة في العلم والأدب والشعر، وكانت حسنة الخطّ تكتب المصاحف والدفاتر وتجمع الكتب، ولها خزانة علم (كتب) كبيرة، وكانت تمدح الملوك بشعرها[92].

ومنهنّ أيضاً حفصة بنت حمدون الحجاريّة من وادي الحجارة، كان لها مكانة أدبية مرموقة ومنزلة علمية معروفة، وذكرها ابن سعيد وقال إنها من أهل المائة الرابعة وإنّ بلدها يفخر بها وأنّ له شعراً كثيراً[93].

ومنهنّ كذلك لبنى كاتبة الحكم المستنصر، فقد كانت حاذقة بالكتابة، نحوية شاعرة، بصيرة بالحساب، مشاركة في العلم، لم يكن في قصرهم أنبل منها، وكانت عروضية خطّاطة جدّاً. وتوفيت سنة أربع وسبعين وثلاثمائة[94].

ومنهنّ أيضاً مزنة كاتبة الخليفة الناصر لدين الله، قال صاحب الصلة إنها كانت حاذقة من أخطّ النساء، توفيت سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة[95].

ومنهنّ الشاعرة صفيّة بنت عبد الله الريّي، كانت شاعرة أديبة موصوفة حسنة الخطّ، توفيت سنة سبع عشرة وأربعمائة وهي دون الثلاثين سنة[96].

ولم يسلم من حبّ نظم الشعر حتى الخلفاء الضعاف من بني أميّة، مثل سليمان بن الحكم المستعين بالله (ت 408 هـ)، وعبد الرحمن بن هشام المستظهر، أما سليمان فكان أديباً شاعراً وقال فيه ابن الأبّار «وكان سليمان المستعين من أهل العلم والفهم أديباً فصيحاً شاعراً، له رسائل وأشعار بديعة»[97] ويقول أيضاً نقلاً عن كتاب العبر لابن أبي الفياض إنّ سليمان «له قصائد طويلة في فنون كثيرة، مع المعاني العجيبة والألفاظ الغريبة»[98] ويورد له ابن الأبار قصائد ومقطوعات وتوقيعات[99]، وكذلك أشاد ابن بسّام بشعره[100]. ومن شعره قوله:

عجباً يهاب الليثُ حدَّ سناني	وأهاب لحظ فواتر الأجفانِ
وأقارع الأهوال لا متهيِّباً	منها سوى الإعراضِ والهجرانِ
وتملكت نفسي ثلاثٌ كالدمى	زهرُ الوجوهِ نواعمُ الأبدانِ
ككواكب الظلماء لُحْنَ لناظرٍ	من فوقِ أغصانٍ على كثبانِ
هذي الهلالُ وتلك بنتُ المشتري	حُسناً وهذي أختُ غصنِ البانِ
حاكمت فيهنّ السلوّ إلى الصبا	فقضى بسلطانٍ على سلطانِ
فأبحْنَ من قلبي الحمى وثنينني	في عزّ مُلكي كالأسير العاني
لا تعذلوا مَلِكاً تذلّل للهوى	ذُلُّ الهوى عزٌّ ومُلْكٌ ثانِ
ما ضرَّ أني عبدهنّ صبابةً	وبنو الزمان وهُنَّ من عُبْدانيَ
إنْ لم أُطِعْ فيهنّ سلطان الهوى	كلفاً بهنّ فلستُ من مروان
وإذا الكريمَ أحبَّ أمَّن إلفه	خطْبَ القلى وحوادث السُلوان
وإذا تجارى في الهوى أهل الهوى	عاش الهوى في غبطةٍ وأمانِ[101]

أمّا المستظهر بالله عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار الذي بويع بالخلافة سنة 414 هـ وقتله ابن عمه المستكفي عندما ثار عليه في طائفة من أراذل العوام في العام نفسه، وكان عمر المستظهر ثلاثاً وعشرين سنة، فقد أجمعت المصادر على أنه كان – على حداثة سنّه – في غاية الأدب والبلاغة والفهم ورقة النفس، وكان أديباً حَسَن الكلام جيّد القريحة مليح البلاغة يتصرّف في ما شاء من الخطاب بديهةً ورويّة، ويصوغ قطعاً من الشعر مستجادة[102].

أوردت له المصادر جملة من قصائده ومقطوعاته وتوقيعاته. ومن شعره قصيدةٌ كتب بها

إلى شنف (أو: مشنف) زوج سليمان بن الحكم، أيام خطب بنتها من سليمان المسمّاة حبيبة وتكنى أمّ الحكم، فلوته وسوّفته، وكان بقلبه من هذه الابنة مكانٌ لنشأتهما معاً في ذلك الأوان، يقول فيها:

وجالبةِ عذراً لتصرف رغبتي وتأبى المعالي أن تجيز لها عذراً
يكلفها الأهلون ودّي جهالةً وهل حَسَنٌ بالشمسِ أن تمنع البدْرا؟
وماذا على أمّ الحبيبة - إذ رأتْ جلالةَ قدري - أن أكون لها صهرا؟
ربيبة ملك .... حبّه نِكرا
جعلت لها شرطاً عليَّ تعبّدي وسُقْتُ إليها في الهوى مهجتي مَهْرا
تعلّقتها من عبد شمسٍ غريرةً مخدّرةً من صيد آبائها غراً
حمامة بيت العبشميين رفرفت فطرتُ إليها من سراتهم صقرا
تقلّ الثريّا أن تكون لها يداً ويرجو الصباحُ أن يكون لها نحْرا
لقد طالَ صومُ الحبَّ عنك فما الذي يضرّك منه أن تكوني له فِطرا؟
وإني لأستشفي لما بي بداركم هدوءاً، وأستسقي لساكنها القطرا
والصِقُ أحشائي ببرد ترابها لأطفئ من نار الأسى بكمُ جمرا
فإن تصرفيني يا ابنة العمّ تصرفي - وعيشك - كفواً مدّ رغبته سترا
وإني لأرجو أن أطوّق مفخري بملكي لها وهي التي عظمت فخرا
وإني لطعّان إذا الخيلُ أقبلت جرائدها حتى تريْ جُونها شُقرا
وإنّي لأولى الناس من قومها بها وأنبههم ذكراً وأرفعُهم قدرا
وعنديَ ما يُصبي الحليمة ثيّباً وينسى الفتّاةَ الخودَ عذرتها البكرا
جمالٌ وآدابٌ وخُلقٌ موطّأٌ ولفظٌ إذا ما شئتِ أسمعك السِحْرا(103)

ونشير أخيراً إلى عددٍ من دواوين الشعر الأندلسي التي وصلت إلينا من عصر الخلافة مثل ديوان أبي عمر أحمد بن عبد ربه (ت 328 هـ) وديوان يوسف بن هارون الرمادي (ت 413 هـ) وديوان أحمد بن درّاج القسطلّي (ت 421هـ) وديوان أحمد بن عبد الملك بن شهيد (ت 426 هـ)، وبعضهم من الشعراء الذين أدركوا عصر ملوك الطوائف.

عصر الحجابة العامرية (366-399 هـ)

شهد الأدب الأندلسي في ظل الحجاب العامريين قفزة قوية بسبب رعاية العامريين للشعراء واستمالتهم والاعتماد عليهم في تسويغ استبداد هؤلاء العامريين بالسلطة؛ ففي ظلّ المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر المعافري (327هـ – 393 هـ) الذي كان حاجباً للحكم المستنصر ثم لابنه هشام المؤيّد، شهدت الحركة الشعرية نشاطاً كبيراً، كان من أهم بواعثه أن المنصور قد أنشأ ديواناً للشعراء خصّص من خلاله أرزاقاً شهرية لعدد كبير من شعراء عصره، وقد أناف عدد الشعراء المسجّلين في ذلك الديوان على مائة وأربعين شاعراً، قام المنصور برعايتهم وتشجيعهم[104].

وفي الإشارة الى كثرة الشعراء المسجّلين في هذا الديوان يقول لسان الدين بن الخطيب في الحديث عن إحدى غزوات المنصور «كان يصحب المنصور في هذه الغزوة من الشعراء المرتزقين بديوانه من يذكر فضلاً عن سائر الأصناف على ندارة هذا الصنف من الخدام»[105]. ثم يضيف ابن الخطيب في الحديث عن هؤلاء الشعراء قائلاً «وهم أكثر من أن يحصوا»[106]. وساق لسان الدين أسماء عدد من شعراء ديوان المنصور منهم: أحمد بن درّاج القسطلي وأبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد، وأبو الفضل أحمد بن عبد الوهاب، وأحمد بن أبي غالب، وأغلب بن سعيد، وأبو عبيدة حسان بن مالك بن هاني، وأبو القاسم حسين بن الوليد ابن العريف، وزيادة الله الطبني، وسعيد بن عبد الله الشنتريني، وأبو العلاء صاعد بن الحسن اللغوي البغدادي، والمهند طاهر بن محمد البغدادي، وعبادة بن محمد بن ماء السماء، وعبد الملك بن إدريس الجزيري وغيرهم[107].

وفي الإشارة إلى هذا الديوان يقول الحميدي في جذوة المقتبس «وكان للشعراء في أيام المنصور أبي عامر ديوان يرزقون منه على مراتبهم، ولا يخلّون بالخدمة بالشعر في مظانّها[108]».

ويفهم من بعض الأخبار التي أوردتها المصادر الأندلسية أنه كان لهذا الديوان نظام خاصّ، وكان الشعراء فيه على درجات ومراتب، وأن ثمة شروطاً ينبغي توافرها في من يسجّل في الديوان، ففي ترجمته لعبد الرحمن بن أبي الفهد يقول الحميدي: «وكانت مرتبته في الشعراء أيام بني أبي عامر دون مرتبة عبادة في الزمام، فاعجب»[109]. وذكر الحميدي أنه كان للديوان مشرفٌ يقوم على توزيع أعطيات الشعراء، إذ يقول: «وكان عبد الله بن محمد بن مسلمة تخرج صلات الشعراء ورسومهم على يديه، وكانت تجري أمورهم على ترتيبه[110]».

وذكر الحميدي أيضاً في جذوة المقتبس عن أحمد بن دراج القسطلي أنه سُعي به إلى المنصور وأنه منتحل سارق لا يستحق أن يثبت في ديوان العطاء[111]، وهذا يعني أن إثبات الشعراء في ذلك الديوان يتطلب شروطاً منها الأمانة والأصالة.

وممّا يؤكد عناية المنصور بن أبي عامر بالشعر والشعراء ما قاله الشقندي في رسالته في تفضيل الأندلس على برّ العدوة في الحديث عن المنصور بن أبي عامر «وقد قيل فيه من الأمداح، وألّف له من الكتب، ما سمعت وعلمت، حتى قُصد من بغداد، وعمّ خيره وشرّه أقاصي البلاد[112]».

وقال عبد الواحد المرّاكشي في كتاب المعجب عن المنصور بن أبي عامر «وكان محبّاً للعلوم، مؤثراً للأدب، مفرطاً في إكرام من يُنْسَبُ إلى شيء من ذلك، ويفد عليه متوسلاً به، بحسب حظّه منه وطلبه له، ومشاركته فيه[113]».

وقد كان المنصور إلى جانب ذلك أديباً شاعراً، وأوردت له المصادر الأندلسية عدداً من القصائد والمقطّعات[114].

ومن هذه الأشعار قوله في الفخر:

رميْتُ بنفسي هول كلَ كريهةٍ — وخاطرتُ والحرَ الكريم مخاطر
وما صاحبي إلاّ جنانٌ مشيّعٌ — واسمر خطيٌّ وابيضُ باتر
وانّي لزجّاء الجيوش إلى الوغى — اسودٌ تلاقيها اسودٌ خوادر
فسُدْتُ بنفسي أهل كلَ سيادةٍ — وكاثرتُ حتى لم اجدْ مَنْ اكاثر
وما شِدتُ بنياناً ولكن زيادةً — على ما بنى عبد المليك وعامِرُ
رفعنا المعالي بالعوالي حديثةً — واوْرَثَناها في القديم معافِرُ[115]

وكانت معظم المقطعات والقصائد التي وصلتنا للمنصور بن أبي عامر تدور كلها في الفخر والمداعبات والمراسلات بينه وبين شعراء بلاطه.

ولم يكن حبّ المنصور للشعر والشعراء هو الدافع الأوحد للعناية بالشعراء إلى هذا الحدّ، بل إن ثمة عوامل أخرى مهمة منها، أن المنصور كان يقصد بذلك إلى تخليد مآثره وانتصاراته، ومما يثبت ذلك قول المنصور في معرض ردّه على من تكلم في شأن الرمادي: «والعجب من قوم يقولون الابتعاد من الشعراء أولى من الاقتراب، نعم ذلك لمن ليس له مفاخر يريد تخليدها ولا أيادٍ يرغب في نشرها». والعامل الآخر المهمّ أن الشعراء كانوا في

ذلك الزمن أهم وسيلة إعلامية، وأن المنصور الذي استبدّ بالسلطة وصادرها من أيدي الخلفاء الأمويين الشرعيين كان يبحث عن شرعية سياسية، فوجد في الشعراء (وسيلة الإعلام) أهم وسيلة لتحقيق تلك الشرعية، وذلك من خلال قصائد المديح التي كان يوجهها إليه شعراء ديوانه، وهم كثر، فيحافظون على رضا العامّة عنه، وهذا ما يفسّر ما قالته عنه المصادر الأدبيّة من أن ما قيل فيه من الأمداح كثيرٌ ومشهور، حتى قال صاحب كتاب الدرر النثيرة في أخبار الجزيرة «وكان الشعراء يقصدون بابه، ويمدحونه، فيعطيهم الجوائز السنية والصلات العظيمة، حتى إنه لم يمدح قط أحد من الملوك بمثل ما مُدحَ به من الأشعار والخطب والرسائل»[116].

ولعلّ هذا ما يفسّر أيضاً قلّة ما نجده من أمداح في الخليفة الأموي هشام بن الحكم المؤيّد بالله الذي كان المنصور حاجباً له قياساً بالعدد الكبير جداً من قصائد المدح التي نظمها شعراء هذا العهد بالمنصور بن أبي عامر.

ومن الأخبار الطريفة حول المشهد الشعري أيام المنصور بن أبي عامر أنّ صاحب شرطته أبا إسحق إبراهيم بن محمد الشرفي «كان خطيباً بقرطبة مشهوراً وأديباً مذكوراً، وكان للشعراء عنده جناب خصيب[117]» يقول الحميدي «رأيت عند بعض ولده، وكان حاكماً ببلدنا، مجلدات ممّا جمع من مدائح الشعراء فيه»[118]، وقد أورد الحميدي من هذه المدائح شعراً لأبي المطرّف عبد الرحمن بن أبي الفهد وشعراً لعبادة بن ماء السماء[119]».

وعندما توفي المنصور بن أبي عامر عام 393 هـ خلفه على الحجابة لهشام المؤيد ابنه عبد الملك الذي لقب بالمظفر بالله وكنيته أبو مروان، ودامت مدة حجابته سبع سنوات، حيث توفي سنة 399 هـ، وقد سار على سنن والده المنصور في التفرد بالسلطة وحجب الخليفة وإبعاده عن كل شيء ذي أهمية في السياسة أو الحكم، وقد كان عبد الملك بن المنصور يعقد مجالس كثيرة يدعو فيها الأدباء والشعراء ويشجعهم على نظم الشعر ولا سيّما في وصف انتصاراته؛ فعندما رجع من غزوته لأحد حصون برشلونه سنة 393 هـ جلس مجلس التهنئة وأذن للناس «ووصل بعدهم الشعراء والأدباء بما صاغوه من أشعار فأنشد منهم من رَسَمُهُ الإنشاد، ووضع سائرهم الأشعار بين يديه، وانفض الجمع عن سرور وغبطة وحبور[120]». وقد وردت أشعارٌ كثيرة في مدحه، وكان يغدق على مادحيه الأموال والهدايا[121]، وكان من شعرائه الشريف الطليق (ت نحو 400 هـ)، ويوسف بن هارون الرمادي (ت 403 هـ) وابن درّاج القسطلي (ت نحو 421 هـ)، وأبوعامر ابن شهيد (ت 426

هـ)، وعبدالله بن زياد الكاتب، وهشام بن جعفر، والقاسم بن محمد القرشي المرواني المعروف بالشبانسي، وأبو العلاء صاعد بن الحسين البغدادي وغيرهم.

لكنّ ابن حيّان القرطبي ذكر أنّ عبد الملك كان عرياً عن العلم والمعرفة والأدب، ولم يكن يجتمع في مجلسه سوى الأعاجم من الجَلالقة والبربر ومن إليهم، ولم يكن يؤمه أحد من أهل المعرفة من الأدباء والعلماء، بيد أنه مع ذلك لبث يسبغ رعايته على من كان يتصل منهم بأبيه من العلماء والأدباء والندماء وغيرهم، وأبقى لهم أرزاقهم ورواتبهم كما كانت أيام أبيه، وكان يستمع إلى الشعر ويصل الشعراء، وقد أبقى بالأخصّ على شاعر أبيه صاعد البغدادي، وجعله شاعراً ونديماً له، وكان من خواص شعرائه أيضاً الكاتب الشاعر أبو حفص بن برد وصاعد وابن دراج وغيرهم[122]».

إنّ جمع المظفر بين البعد عن المعرفة والعلم وبين الاستماع إلى الشعراء وإثابتهم على أشعارهم، دليلٌ على أنّه كان يتخذ منهم وسيلة لاستمالة قلوب العامّة إليه، من خلال ما يمدحه به هؤلاء الشعراء وما يذيعون من فضائله مما يضفي عليه شرعية في حكمه للأندلس واستبداده بها، وحجبه للخليفة هشام.

وعندما توفي المظفر عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر سنة 399 هـ خلفه على الحجابة أخوه عبد الرحمن الذي تلقب بالمأمون وعرف باسم شنجول Shanchuelo وكان شديد المجون والخلاعة، وقد سوّلت له نفسه ولاية عهد هشام المؤيّد والقيام بأمر المسلمين من بعده، وأحضر من أهل قرطبة من شهد له بذلك، وأخرج بذلك كتاباً من إنشاء أبي حفص أحمد بن برد، قرئ على الناس في قرطبة[123]».

وقد هنأه كثير من الشعراء بولاية العهد منهم أبو العلاء صاعد وأبو منصور زيادة الله الطبني وقاسم بن محمد المرواني وغيرهم[124].

وقد أدّى ذلك الى قيام ثورة بقيادة محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، إذ هاجم الثوار قصر الخلافة وخلعوا هشاماً المؤيد وبويع محمد بن هشام بن عبد الجبار ولقب بالمهدي، وذلك سنة 399هـ.

عصر ملوك الطوائف (422-484 هـ)

يقول الشقندي عن ملوك الطوائف إنه «كان في تفرّقهم اجتماعٌ على النعم لفضلاء العباد، إذ نفّقوا سوق العلوم، وتباروا في المثوبة على المنثور والمنظوم، فما كان أعظم مباهاتهم إلاّ قول: العالم الفلاني عند الملك الفلاني، والشاعر الفلاني مختصٌّ بالملك

الفلاني، وليس منهم إلاّ من بذل وسعه في المكارم، ونبهت الأمداح من مآثره ما ليس طول الدهر بنائم، وقد سمعتَ ما كان من الفتيان العامرية مجاهد ومنذر وخيران، وسمعت عن الملوك العربية: بنو عبّاد وبنو صمادح وبنو الأفطس وبنو ذي النون وبنو هود، كلٌّ منهم قد خلّد فيه من الأمداح، ما لو مُدِحَ به الليل لصار أضوأ من الصباح. ولم تزل الشعراء تتهادى بينهم تهادي النواسم بين الرياض، وتفتك في أموالهم فتكة البراض، حتى إنّ أحد شعرائهم، بلغ به ما رآه من منافستهم في أمداحه أن حلف أن لا يمدح أحداً منهم بقصيدة إلاّ بمائة دينار، وأن المعتضد بن عبّاد على ما اشتهر من سطوته وإفراط هيبته كلفه أن يمدحه بقصيدة فأبى حتى يعطيه ما شرطه في قسمه[125].»

وقد برزت جملة من العوامل التي أدّت الى ازدهار الحركة الأدبية في الأندلس في عصر ملوك الطوائف حتى عدّ زمن ملوك الطوائف العصر الذهبي للأدب الأندلسي، ومن هذه العوامل:

1- التنافس بين ممالك الطوائف المختلفة؛ إذ لم يقتصر التنافس على السلطة والجاه والمال وسواها بل شمل العلوم والآداب، حتى إنّهم كانوا يتنافسون على مشاهير الأدباء والعلماء كما ذكر الشقندي في رسالته، ومن هؤلاء ابن زيدون، وذكر ابن بسام في الذخيرة عن الشاعر الحصري القيرواني المكفوف أنه «طرأ على الأندلس في مدّة ملوك طوائفها، فتهادته تهادي الرياض للنسيم، وتنافسوا فيه تنافس الديار في الأنسِ المقيم...[126]». وقد أدّى ذلك الى رواج سوق الأدب من جهة وإلى حرص الأدباء على تجويد كتابتهم ونظمهم والارتقاء بها حتى ينالوا الحظوة عند الملوك.

2- كثرة الممالك حيث زادت عن ثمانٍ وعشرين مملكة، مما أدّى الى ازدياد فرص الشعراء والأدباء للالتحاق ببلاط أحد الملوك، بل أتاح لهم هذا العدد الجمّ من الممالك أن تتنقلوا بين قصور الأمراء فينالوا رفدهم، وربّما أتاح لهم ملاذات للهرب من بعض الملوك الى بعضهم الآخر.

3- حاجة هذه الممالك إلى شعراء يحفظون لها ما كانوا يعدّونه إنجازات لها ويدافعون عنها في وجه خصومها، وحاجتها كذلك إلى كتاب لدواوين الخراج والجند والرسائل وسواها.

4- أنّ بعض الأسر الحاكمة في هذه الممالك كانت من أهل الفصاحة والبلاغة والأدب، وكان لأفرادها مشاركة في نظم الشعر وكتابة التوقيعات والأجوبة البليغة وغيرها، كما هو شأن بني عبّاد في إشبيلية وبني الأفطس في بَطَلْيَوْس والعامريين في دانية والجزر

الشرقية. وقد ذكر ابن بسّام الشنتريني في كتاب الذخيرة في الحديث عن بني عباد وبني الأفطس ما نصّه «فاشتمل هذا القطر الغربي لأول تلك المدة على بيتي حسب، وجمهوري أدب، مملكتان من لخم (بني عباد) وتجيب (بني الأفطس)، مصّرتا بلاده، وأكثرتا رواده، فأتاه العلم من كل فج عميق، وتبادره العلماء من بين سابق ومسبوق، وكلما نشأ من هذين البيتين أميرٌ كان إلى العلم أطلب، وفي أهله أرغب، والسلطان سوق يُجْلَبُ إليه ما ينفق لديه، حتى اجتمع في الجانب الجانب الغربي على ضيق أكنافه وتحيّف العدوّ قصمه الله لأطرافه، ما باهى الأقاليم العراقية، وأنسى بلغاء الدولة الديلمية، فقلما رأيت فيها ناثراً غير ماهر، ولا شاعراً غير قاهر، دعوا حرّ الكلام فلبّى، وأرادوه فما تأبّى، وطريقتهم في الشعر الطريقة المثلى التي هي طريقة البحتري في السلاسة والمتانة والعذوبة والرصانة[127]».

5- إدراك ملوك الطوائف بأنّ أمرهم لن يدوم طويلاً، فمالوا إلى اللهو والملذات والترف والمجون وبناء القصور واقتناء الجواري، مما أوجد مجالات عديدة لقول الشعر الذي يصف هذه المظاهر الاجتماعية أو يتأثر بها.

6- كانت الأحداث السياسية الخطيرة التي شهدتها الأندلس في هذا العصر من تعاظم خطر قشتالة، واستغراق ملوك الطوائف في نزاعاتهم وضعفهم، ثم دفعهم الجزية لملك قشتالة ألفونسو السادس، ثم سقوط عدد من المدن الأندلسية عاملاً أساسياً في دفع الشعراء نحو موضوع النقد السياسي ورثاء المدن والحثّ على الوحدة وغير ذلك.

يقول الشقندي عن ملوك بني عباد «وإن كان كلُّ ملوك الأندلس المعروفين بملوك الطوائف قد تنازعوا في مُلاءة الحُضْر، فإني أخصّ منهم بني عبّاد، كما قال الله تعالى ﴿فيهما فاكهةٌ ونخلٌ ورمّان﴾ (الرحمن 68) فإنّ الأيام لم تزل بهم كأعياد، وكان لهم من الحنوّ على الأدب، ما لم يقم به بنو حمدان في حلب، وكانوا هم وبنوهم ووزراؤهم صدوراً في بلاغتي النظم والنثر، مشاركين في فنون العلم، وآثارهم مذكورة، وأخبارهم مشهورة، وقد خلّدوا من المكارم التامة، ما هو متردد في ألسن الخاصّة والعامّة[128]».

وقد عرفت هذه الأسرة بحبّ الأدب والشعر ورعايتها للأدباء والشعراء، وذلك ابتداءً من مؤسس دولتهم أبي القاسم محمد بن عبّاد (ت 433 هـ) ومروراً بولده المعتضد عبّاد بن محمد بن إسماعيل (ت 461 هـ) وصولاً إلى المعتمد بن عبّاد (ت 488 هـ) ثم أولاده.

أما القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عبّاد، فقد ذكر صاحب الذخيرة أنه

«كان ممن له في العلم والأدب باع، ولذوي المعارف عنده بها سوقٌ وارتفاع، وكان يشارك الشعراء والبلغاء في صنعة الشعر وحوك البلاغة، بسطاً لهم وإقامة لهممهم، ولما كان في طبعه من ذلك أيضاً[129]».

وقد أورد له صاحب الذخيرة مقطوعات من شعره جميعها في وصف الطبيعة، منها قوله:

وياسمين حَسَنِ المنظرِ   يفوقُ في المراى وفي المخبرِ
كأنه من فوقِ أغصانه   دراهمٌ في مُطْرَفٍ أخْضَرِ[130]

أما ابنه المعتضد بن عبّاد (ت 461 هـ) فقد كان شاعراً وجمع له ابن أخيه إسماعيل ديواناً[131]، وقد وصف ابن بسّام أشعاره بأنها «ذات طلاوة، في معانٍ أمدّته فيها الطبيعة وبلغ فيها الإرادة، واكتتبها الأدباء للبراعة»[132]. ومن شعره قوله:

شربنا وجفن الليلِ يغسلُ كحله   بماء صباحٍ والنسيم رقيقُ
معتّقةً كالتبر امّا نجارها   فضخمٌ وأما جسمها فدقيق[133]

أما المعتمد بن عبّاد (ت 488 هـ) فيقول عنه ابن القطاع في كتابه لمح الملح إنه كان «أندى الملوك راحة، وأرحبهم ساحة وأعظمهم ثماراً، وأرفعهم عماداً، ولذلك كانت حضرته ملقى الرحال، وموسم الشعراء، وقبلة الآمال، ومألف الفضلاء، حتى إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك من أعيان الشعراء وأفاضل الأدباء ما كان يجتمع ببابه[134]»، ويقول عنه صاحب المعجب: «وكان المعتمد هذا يشبّه بهارون الواثق بالله من ملوك بني العبّاس، ذكاء نفس، وغزارة أدب، وكان شعره كأنه الحلل المنشّرة، واجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس، وكان مقتصراً من العلوم على علم الأدب وما يتعلق به وينضمّ إليه[135]».

ويقول عنه أيضاً «وكان لا يستوزر وزيراً إلاّ أن يكون أديباً شاعراً حسن الأدوات، فاجتمع له من الوزراء الشعراء ما لم يجتمع لأحد قبله[136]».

وكان من وزرائه الشعراء أبو الوليد أحمد بن عبدالله بن زيدون وأبو بكر محمد بن عمار[137].

وكان المعتمد من الشعراء البارعين وقد خلّف ديواناً جمع فيه كثيراً من أشعاره، ووصف ابن بسّام شعر المعتمد بقوله «وله شعر كما انشقّ الكمام عن الزهر، لو صدر مثله عمّن جعل الشعر صناعة واتخذه بضاعة، لكان رائعاً معجباً، ونادراً مستغرباً، فما ظنك برجل لا

يجدّ إلاّ راثياً، ولا يجيد إلاّ عابثاً، وهو مع ذلك يرمي فيصيب، ويهمي فيصوب، وشعره يوضح ما شرح ويعبر عما ذكر...[138]».

وقال عنه ابن الأبّار في كتاب الحلّة السيراء «وكان له في الأدب باعٌ وساعٌ، ينظم وينثر، وفي أيامه نفقت سوق الأدباء، فتسابقوا إليه وتهافتوا عليه، وشعره مدوّن موجودٌ بأيدي الناس، ولم يك في ملوك الأندلس قبله أشعر منه ولا أوسع مادّة، وهو القائل في صباه بديهة:

هذا المؤذّن قد بدا بأذانه — يرجو الرضا والعفو من رحمانه

طوبى له من ناطق بحقيقةٍ — إن كان عقد ضميره كلسانه»[139]

وكان لبني عبّاد ديوان للشعراء، وكانوا إذا أعجبهم شاعرٌ أمروا أن يكتب في ديوان الشعراء[140].

وكان الراضي بن المعتمد (أبو خالد يزيد بن محمد بن عباد الملقب بالراضي بالله ت 484هـ) وكان والده المعتمد ولاّه الجزيرة الخضراء ثم رندة، شاعراً وأديباً، قال عنه ابن الأبّار في الحلة السيراء: «وكان الراضي من أهل العلم والأدب، كلفاً بالمطالعة والدراسة[141]». وقال عنه ابن اللّبانة: «وهو شاعر بني عبّاد بعد أبيه، على أنه أقوى عارضةً منه، وأبوه ألطف طبعاً وأرقُّ صنعاً[142]» ومن شعره قوله:

مرّوا بنا أُصُلاً من غير ميعادِ — فأوقدوا نار شوقي أيّ إيقادِ

واذكروني أيّاماً لهوتُ بهم — فيها ففازوا بإيثاري وإحمادي

لا غرو أن زاد في وجدي مرورهم — فرؤية الماء تذكي غُلَّةَ الصادي[143]

وكذلك كان أبناء المعتمد: أبو الحسن عبيد الله بن محمد الملقب بالرشيد[144]، وأبو بكر يحيى بن محمد الملقب بشرف الدولة[145]، وأبو المكارم حكم بن محمد الملقب بذخر الدولة[146]، وكذلك بثينة ابنة المعتمد، كانوا كلهم يقرضون الشعر.

ومن الشعراء الذين اشتهروا في بلاط بني عبّاد: أبو الوليد ابن زيدون، وأبو عامر ابن مسلمة، وأبو الوليد إسماعيل بن محمد الملقب بحبيب، وأبو بكر بن عمار، وعبد الجليل بن وهبون، وأبو بكر محمد بن عيسى بن اللبانة الداني، وأبو الوليد محمد بن عبد العزيز المعلّم، وأبو بحر بن عبد الصمد، وأبو بكر بن القصيرة، وأبو الحسن علي بن حصن الإشبيلي، والحصري القيرواني، وأبو حفص عمر بن الحسن الهوزني[147].

وأما بنو الأفطس ملوك بطليوس فيقول الشقندي في رسالة «تفضيل الأندلس على برّ

العدوة»: «وهل لكم ملكٌ ألّف في فنون الآداب كتاباً في نحو مائة مجلّدة مثل المظفر بن الأفطس ملك بطّليوس ولم تشغله الحروب ولا المملكة عن همّة الأدب؟»[148].

ويقول صاحب المعجب عن المظفر: «كان المظفر هذا أحرص الناس على جمع علوم الأدب خاصة من النحو والشعر ونوادر الأخبار وعيون التاريخ، انتخب مما اجتمع له من ذلك كتاباً كبيراً ترجمه باسمه على نحو الاختيارات للروحي وعيون الأخبار لأبي محمد بن قتيبة، جاء هذا الكتاب في نحو من عشرة أجزاء ضخمة، وقفتُ على أكثره، ترجمته «المظفري»[149]».

أمّا ابن بسّام فيقول في كتاب الذخيرة عن المظفر (ت 460 هـ): «أديب ملوك عصره غير مدافع ولا منازع، وله التصنيف الرائق والتأليف الفائق المترجم بالتذكرة والمشتهر أيضاً بالكتاب المظفري في خمسين مجلد، يشتمل على فنون وعلوم من مغاز وسير ومثل وخبر وجميع ما يختصّ به علم الأدب»[150].

وفي حديثه عن ابنه أبي محمد بن المظفر الملقب بالمتوكل على الله (ت 485 هـ) يقول المراكشي في المعجب «وكان لابنه المتوكل قدمٌ راسخةٌ في صناعة النظم والنثر»[151] وأورد له ابن الأبّار عدة قصائد ومقطعات[152]. وفي إجماله لعناية بني الأفطس بالأدب والأدباء يقول المراكشي: «وكانت أيام بني المظفر بمغرب الأندلس أعياداً ومواسم، وكانوا ملجأ لأهل الآداب، خلدت فيهم ولهم قصائد شادت مآثرهم وأبقت على غابر الدهر حميد ذكرهم»[153].

وقد روت المصادر عن المظفّر قوله «والله ما يمنعني من إظهار الشعر إلاّ كوني لا أقول مثل قول أبي العشائر ابن حمدان... الخ»[154]. وقال عنه صاحب الذخيرة إنه كان يقول: «من لم يكن شعره مثل شعر المتنبي أو شعر المعرّي فليسكت»[155].

ويشبه المقّري في نفح الطيب المتوكل بن الأفطس بالمعتمد بن عبّاد قائلاً عن المتوكل «وكان في حضرة بطليوس كالمعتمد بن عبّاد بإشبيلية، وقد أناخَتْ الآمال بحضرتهما، وشُدّت رحالُ الآداب إلى ساحتهما، يتردّد أهل الفضائل بينهما، كتردد النواسم بين جنتين، وينظر الأدب منهما عن مقلتين، والمعتمد أشعر، والمتوكل أكتب»[156].

وقد ضمّ بلاط بني الأفطس عدداً من مشاهير الشعراء والكتّاب من أشهرهم أبو محمد عبد المجيد بن عبدون اليابري الذي رثى مملكتهم بقصيدته ذائعة الصيت التي مطلعها:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر ... فما البكاء على الأشباح والصور[157]

ومن أدبائهم الذين عرّف بهم صاحب الذخيرة: أبو عبدالله محمد بن أيمن، وأبو بكر عبد العزيز بن سعيد بن البطليوسي ابن القبطورنة، وأبو عبدالله محمد بن البين، ويوسف بن كوثر الشنتريني، وأبو الوليد النحلي، وأبو محمد عبدالله بن صارة الشنتريني، وأبو عمر فتح بن برلوصة البطليوسي، وأبو محمد طلحة بن القبطورنة، وأبو الحسن محمد بن القبطورنة، وأبو بكر بن سوار الأشبوني، وأبو بكر بن قزمان وغيرهم(158).

وإلى جانب مشاركة معظم ملوك الطوائف في نظم الشعر وكتابة التوقيعات البليغة والمساجلات الأدبية في قصورهم ومجالسهم، فقد كان لكلّ مملكة من ممالك الطوائف حاشيةٌ من الأدباء وبطانة من الكتاب والشعراء، فقد كان بنو صمادح ملوك المريّة وكان ألمعهم أبو يحيى محمد بن معن بن صمادح التجيبي الملقب بالمعتصم باللّه (ت 484 هـ) وكان من شعرائه أبو عبدالله محمد بن الحداد الوادي آشي (ت 480 هـ) وأبو عبدالله محمد بن عبادة القزاز، وأبو بكر محمد بن مالك القرطبي، والأسعد بن بِلّيطة (ت في حدود 440 هـ)، وأبو العباس أحمد بن قاسم المحدّث وغيرهم(159).

وورد في الحلّة السيراء أنّ المعتصم كان «حصيف العقل، طاهراً، معنياً بالدين وإقامة الشرع، يعقد المجالس بقصره للمذاكرة، ويجلس يوماً في كل جمعة للفقهاء والخواصّ، فيتناظرون بين يديه في كتب التفسير والحديث، ولزم حضرته فحولٌ من الشعراء، كأبي عبدالله بن الحداد، وفيه استفرغ شعره، وكابن عبادة وابن مالك والأسعد بن بلّيطة وأبي العباس أحمد بن قاسم المحدث، رغم اتصافه بكثرة الجبن وقلة الجود، وعلى ذلك قصده العلماء والأدباء»(160).

وقد أوردت له المصادر الأندلسية جملة من الأشعار والمقطعات(161)، ومن ذلك قوله:

وزهّدني في الناس معرفتي بهم	وطولُ اختباري صاحباً بعد صاحبِ
فلم تُرني الأيامُ خلاًّ تسرّني	مباديه إلاّ ساءني في العواقب
ولا قلتُ أرجوه لدفع ملمّةٍ	من الدهر إلاّ كان إحدى النوائب(162)

وكذلك كان عند مجاهد العامري وابنه إقبال الدولة عليّ بن مجاهد أميري دانية والجزر الشرقية حاشية من الشعراء المشاهير منهم إدريس ابن اليمان، وعبدالله بن إسماعيل الجيّاني وأبو مخلد الأزدي، والفضل بن أحمد دراج القسطلي وأبو عامر أحمد بن غرسية وأبو عبدالله محمد بن خلصة الأعمى وغيرهم.

وكان مجاهد ناقداً للشعر عارفاً بفنونه، وذكر ابن بسّام أنه كان «أزهد الناس في الشعر

وأحرمهم لأهله، وأنكرهم على منشده، لا يزال يتعقبه عليه كلمةً كلمةً، كاشفاً لما زاغ فيه من لفظة وسرقة، فلا تسلَم على نقده قافيه، ثم لا يفوز المتخلّص من مضماره على الجهد لديه بطائل، ولا يحظى بنائل، فأقصر الشعراء لذلك عن مدحه، وخلا الشعر من ذكره»(163).

وكان في بلاط بني ذي النون في طليطلة جملة من مشاهير الشعراء، لكنّ أكثرهم رعاية للشعراء كان المأمون يحيى بن إسماعيل بن ذي النون فقد كان مكرماً للعلماء مقرّباً للأدباء والشعراء، ومن شعراء بلاطه محمد بن رافع رأسه الوشاح المشهور، وأبو اسحق ابراهيم بن وزمر الحجاري، وأبو عبدالله محمد بن شرف القيرواني، وعبد الملك بن غصن الحجاري وعبدالله بن خليفة المصري الحكيم وأبو الفضل البغدادي وغيرهم.

وكذلك كان في بلاط بني جهور، أبي الحزم جهور بن محمد بن جهور (ت 435 هـ) وابنه أبي الوليد محمد بن جهور (ت 443 هـ)، بقرطبة طائفة مشهورة من الشعراء أشهرهم أبو الوليد بن زيدون وأبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد وأبو حفص أحمد بن برد وأبو عبدالله ابن القلاّس وأبو عامر أحمد بن عبدوس، وفي زمنهم عاشت ولاّدة بنت المستكفي والشاعرة مهجة بنت التياني القرطبية. وقد كان لأبي الحزم وابنه أبي الوليد مشاركة في نظم الشعر، فكانا يقولان الشعر ويشاركان في مجالسه.

كما استقطب بنو حمّود الحسنيّون في مالقة طائفة من مشاهير الشعراء منهم أبو عبدالله محمد بن سليمان الحناط الكفيف وأبو زيد عبد الرحمن بن مقانا الأشبوني وأبو عبدالله بن السرّاج المالقي وأبو جعفر ابن اللمائي وأبو بكر عبادة بن ماء السماء وسواهم.

وقد انتهى إلينا عددٌ غير قليل من دواوين الشعر الأندلسي من عصر ملوك الطوائف مثل ديوان أبي الوليد بن زيدون (ت 464 هـ) وديوان المعتمد بن عبّاد (ت 488 هـ) وديوان الحصري القيرواني، وديوان ابن حمديس الصقلي.

عصر المرابطين (484 - 542 هـ)

عندما انتشرت الفتن والحروب والتناحر بين ملوك الطوائف وأصبحت الأندلس مهدّدة بالسقوط في أيدي القشتاليين، استنجد علماء الأندلس وفقهاؤها وأدباؤها بالأمير يوسف ابن تاشفين زعيم المرابطين في المغرب، لتخليصهم من هؤلاء الملوك وإيقاف الخطر القشتالي، فكان عبور يوسف بن تاشفين الى الاندلس سنة 479 وتغلبه على ألفونسو السادس في موقعة الزلاقة الشهيرة بالاشتراك مع بعض ملوك الطوائف، غير أن استمرار هؤلاء الملوك في التناحر دفع بيوسف بن تاشفين الى بسط سيطرته على الأندلس سنة

484 هـ وخلع ملوك الطوائف جميعاً وأسر عدد منهم. واستمرّ حكم يوسف بن تاشفين للأندلس والمغرب حتى وفاته سنة 500 هـ، ثم خلفه ابنه علي بن يوسف بن تاشفين عليها من سنة 500 حتى سنة 537 هـ.

وفي عصر المرابطين استمر النشاط الأدبي الذي شهده عصر الطوائف في اندفاعه، ونظراً الى قصر مدّة عصر المرابطين فإنّ كثيراً من الأدباء الذين عاشو في عصر ملوك الطوائف أدركوا شطراً من عصر المرابطين أو كلّه، وعمل أمراء المرابطين كسابقيهم على رعاية الأدباء وإغداق المكافآت عليهم، ولكن بصورة أقلّ مما كانت عليه الحال أيام ملوك الطوائف، وذلك بسبب انتفاء أهمّ عامل من عوامل ازدهار الأدب في زمن الطوائف وهو عامل المنافسة بين الممالك المختلفة، وبسبب غياب تعدّد بلاطات الملوك لتصبح جميعها في زمن المرابطين بلاطاً واحداً، هو بلاط الأمير المرابطي الذي لم تكن إقامته في الأندلس بل في مراكش، وبذلك لم تعد سوق الشعر الأندلسي على تلك الصورة من الرواج التي كانت عليها أيام ملوك الطوائف. وبالإضافة الى ذلك فإنّ أمراء المرابطين كانوا يقرّبون الفقهاء على حساب الشعراء، لأن دولة المرابطين قامت في الأصل على قواعد دينية مثل الجهاد والرباط، وأنّ فقهاء الأندلس كان لهم الفضل في استدعاء المرابطين الى الأندلس وتشجيعهم على خلع ملوك الطوائف، وإلى ذلك يشير عبد الواحد المراكشي في كتاب (المعجب) عندما تحدث عن علي بن يوسف بن تاشفين، إذ قال فيه: «كان إلى أن يُعدَّ في الزهاد والمتبتلين أقربَ منه إلى أن يُعدَّ في الملوك المتغلبين، واشتدّ إيثاره لأهل الفقه والدين، وكان لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء، فكان إذا ولّى أحداً من قضاته، كان فيما يعهد إليه ألاّ يقطع أمراً ولا يبتّ حكومة في صغير من الأمور ولا كبير إلاّ بمحضر أربعة من الفقهاء، فبلغ الفقهاء في أيّامه مبلغاً عظيماً لم يبلغوا مثله في الصدر الأوّل من فتح الأندلس. ولم يزل الفقهاء على ذلك، وأمور المسلمين راجعة إليهم، وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفةٌ عليهم، طول مدّته، فعظم أمر الفقهاء كما ذكرنا، وانصرفت وجوه الناس إليهم، فكثرت لذلك أموالهم، واتسعت مكاسبهم، وفي ذلك يقول أبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن البني من أهل مدينة جيّان من جزيرة الأندلس:

أهل الرياء لبستمو ناموسكم — كالذئب أدلج في الظلام العاتم

فملكتمو الدنيا بمذهب مالكٍ — وقسمتمو الأموال بابن القاسم

وركبتمو شهب الدواب بأشهب — وبأصبغ صبغت لكم في العالم

وإنّما عرّض أبو جعفر هذا في هذه الأبيات بالقاضي أبي عبدالله محمد بن حمدين قاضي قرطبة، وهو كان المقصود بهذه الأبيات»[164].

وكذلك اتهمت بعض المصادر يوسف بن تاشفين بأنه لم يكن يتذوّق الشعر العربيّ ولا يفهمه، وهذا ما قاله الشقندي في رسالته في تفضيل الأندلس على برّ العدوة حين قال عنه إنّه «لولا توسّط ابن عبّاد لشعراء الأندلس في مدحه ما أجروا له ذكراً، ولا رفعوا للملكه قدراً، وبعدما ذكّروه بوساطة المعتمد بن عبّاد فإنّ المعتمد قال له، وقد أنشدوه: أيعلم أميرُ المسلمين ما قالوه؟ قال: لا أعلم ولكنّهم يطلبون الخبز. ولّما انصرف عن المعتمد إلى حضرة ملكه كتب له المعتمد رسالة فيها:

بنتم وبنّا فما ابتلّت جوانحنا ... شوقاً إليكم ولا جفّت مآقِينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت ... سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا

فلما قرئ عليه هذان البيتان قال للقارئ: يطلب منّا جواري سوداً وبيضاً؟!

قال: لا يا مولانا، ما أراد إلاّ أنّ ليله كان بقرب أمير المسلمين نهاراً لأنّ ليالي السرور بيض، فعاد نهاره ببعد أمير المسلمين ليلاً لأنّ أيام الحزن ليالٍ سود. فقال: والله جيّد، اكتب له في جوابه: إنّ دموعنا تجري عليه، ورؤوسنا توجعنا من بعده»[165].

وربّما يكون في هذه الصورة تشويه مقصود لابن تاشفين، لأنّ الشقندي ألّف رسالته هذه بطلب من أمير سبتة الموحّدي، وكان الموحّدون يبغضون المرابطين ويعادونهم.

كما أنّ أمراء المرابطين كانوا منشغلين بالجهاد ضدّ القشتاليين وبمحاولة استعادة ما أضاعه ملوك الطوائف وإصلاح ما أفسدوه، ولذلك قلّ اهتمامهم بالشعر قياساً بما كان عليه ملوك الطوائف. كما أنّ غلبة الطابع الديني على دولة المرابطين أثّرت في أغراض الشعر، حيث كان الفقهاء يعترضون على شعر اللهو والمجون والغزل الفاحش والهجاء الفاحش والخمريات.

وقد أدّت هذه الأسباب مجتمعة إلى تراجع مكانة الشعر لدى أمراء المرابطين، كما أدت الى اتهام بعض المستشرقين لعصر المرابطين بأنه كان عصر انحطاط وتوقف وضعف من الناحية الأدبية[166]، والى شكوى بعض الشعراء من كساد سوق الشعر، فمن ذلك ما قاله الأعمى التطيلي:

ايا رحمتا للشعر اقوت ربوعه ... على أنّها للمكرمات مناسكُ
وللشعراء اليوم ثلّت عروشهم ... فلا الفخر مختالٌ ولا العزُّ تامكُ[167]

ويقول أيضاً:

وما أخملوني لكن المجْدَ أخملوا ... وما ضيّعوني لكن العلمَ ضيّعوا[168]

أما أبو بكر يحيى بن بقيّ فيقول:

أكلُّ بني الآداب مِثليَ ضائعٌ ... فأجعل ظلمي أسوةً في المظالم

أم الظلمُ محمولٌ عليَّ لأنني ... طلبْتُ العُلى من قبل حلّ التمائم

....

ستبكي قوافي الشعر ملء جفونها ... على عربيٍّ ضاعَ بين أعاجم

ولا ذنبَ لي عند الزمان علمتُهُ ... سوى أنني للشعر آخرُ ناظِمِ[169]

ويقول أيضاً:

ولي هممٌ ستقذف بي بلاداً ... نأت إمّا العراقَ أو الشآما

والحقُ بالأعاريب اعتلاءً ... بهم وأجيد مدحهم اهتماما

لكيما تحمل الركبان شعري ... بوادي الطلح أو وادي الخزامى

وكيما يعلم الفصحاء أني ... خطيبٌ علّم السجعَ الحماما

وقد أطلعتُهنَّ بكل أرضٍ ... بدوراً لا يفارقن التماما

فلم أعدم وإياها حسوداً ... كما لا تعدمُ الحسناءُ ذاما[170]

غير أنّ ذلك لا يعني أنّ عصر المرابطين كان خواء من الشعر ومظاهر الحركة الشعرية، بل إنّ ثمة كثيراً من هذه المظاهر التي عرفت في هذا العصر الذي لا يقلّ شأن الشعر فيه كثيراً عن شأنه في العصور السابقة أو اللاحقة؛ فقد قال صاحب المعجب عند الحديث عن أعيان الكتاب في أيام يوسف بن تاشفين «واجتمع له ولابنه من أعيان الكتّاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار»[171] ثم يذكر اثنين منهم وهما أبو بكر ابن القصيرة، الذي كان قبل ذلك من كتّاب المعتمد، وأبو محمد عبد المجيد بن عبدون الذي كان شاعر بني الأفطس أيام ملوك الطوائف[172].

ويقول عن يوسف بن تاشفين أيضاً «فانقطع إلى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كلّ علمٍ فُحوله، حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم»[173].

ويقول صاحب المعجب أيضاً في الحديث عن علي بن يوسف بن تاشفين «ولم يزل أمير المسلمين من أول إمارته يستدعي أعيان الكتّاب من جزيرة الأندلس، وصرف عنايته إلى

ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك، كأبي القاسم ابن الجدّ المعروف بالأحدب، أحد رجال البلاغة، وأبي بكر محمد بن محمد المعروف بابن القَبَطُرنة، وأبي عبدالله بن أبي الخصال، وأخيه أبي مروان، وأبي محمد عبد المجيد بن عبدون المذكور آنفاً، في جماعةٍ يكثر ذكرهم»[174].

وعلى الرغم مما يظهر من المبالغة في هذه الأخبار إلاّ أنها تظلّ مؤشراً على وجود نشاط أدبي ذي شأن في بلاط أمراء المرابطين، على الأقل نظراً إلى حاجة الدولة الى عدد من الكتاب والشعراء، كما هو شأن جميع الدول.

وقد مدح بعض شعراء الأندلس أمراء المرابطين وقادتهم وولاتهم وحتّى نساءهم كالذي نجده في شعر ابن خفاجة وابن باجّة وأبي القاسم المواعيني والأعمى التطيلي.

وهناك شواهد كثيرة على مشاركة ولاة من المرابطين في مجالس الشعر والتوشيح في الأندلس منهم الزبير بن عمر اللمتوني، وأبو بكر إبراهيم بن تيفلويت صهر علي بن يوسف بن تاشفين، وأبو عبدالله محمد بن عائشة صاحب أعمال بلنسية؛ وقد كان ابن عائشة يوماً مع ابن خفاجة وجماعةٍ من أهل الأدب تحت دوحة خوْخ منوّرة، فهبّت ريح صرصر أسقطت عليهم أنوارها، فقال ابنُ عائشة بديهاً:

ودوحــــةٍ اشـــرقت ســـمــــاءً	واطلعت زهرها نجـــومـــا
هفــا نســيمُ الصَّــبا عليــهـا	فـخلتـهـا أرسلت رجـومـا
كــانّمــا الجـــوّ غـــار لمّا	بدت فـأغـرى بهـا النسـيمـا[175]

وكان أبو بكر بن إبراهيم بن تيفَلْويِت أديباً بليغاً، ولي غرناطة سنة 500 هـ ثم سرقسطة، وقد استوزر أبا بكر بن باجّة، وعندما مات رثاه بشعر كثير، وكان يقول الشعر ارتجالاً، ومن ذلك قوله في سيف هزّه علي بن تاشفين:

هززتَ حُســامـاً فـشـبّـهْـتَــهُ	غـديراً من الماءِ لكنْ جَـمَـدْ
فـلـمّـا بدا لـيَ إفـــرِنـدُهُ	لهـيبـاً من النار لكن خَـمَـدْ
فلولا الجـمـودُ ولولا الخـمـودُ	لســال لدى الهـزّ او لاتّقـد[176]

وقد وصلنا من عصر المرابطين عددٌ من دواوين الشعراء الأندلسيين مثل ديوان ابن خفاجة (ت 533 هـ) وديوان الأعمى التطيلي (ت 525 هـ) وديوان ابن حمديس (ت 527 هـ).

عصر الموحدين (542 هـ - 667 هـ)

كان مؤسس دولة الموحدين محمد بن عبدالله بن تومرت الملقب بالمهدي (471 - 524 هـ)، وكان مبدأ أمره رجل دين يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر في بلاد السوس بالمغرب وذلك سنة 515 هـ، وكان قد رحل الى المشرق سنة 501 طلباً للعلم، ولقي أبا بكر الشاشي الفقيه في بغداد وأبا حامد الغزالي بالشام، ثم رجع الى المغرب وأخذ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فاجتمع إليه الناس وأحبّوه وأطاعوه، ورفع نسبه الى النبي محمد (ﷺ) وصرح بدعوى العصمة لنفسه وأنه المهدي المعصوم، ثم اختار عبد المؤمن بن عليّ كبير صحابته. وألّف ابن تومرت كتاب «أعز ما يطلب» يبين فيه مذهبه، ويقول صاحب المعجب إنه كان «على مذهب أبي الحسن الأشعري في أكثر المسائل، إلاّ في إثبات الصفات، فإنه وافق المعتزلة في نفيها وفي مسائل قليلة غيرها، وكان يبطن شيئاً من التشيّع»[177].

وعندما توفي ابن تومرت سنة 524 هـ خلفه كبير صحابته عبد المؤمن بن علي، من قبيلة مصمودة، وأعلن نفسه خليفة، وحارب المرابطين، واستولى كبير صحابته على مراكش سنة 541هـ، ثم جاز مضيق جبل طارق الى الأندلس فاستولى عليها سنة 555 هـ، وتوفي سنة 558 هـ، وخلفه ابنه يوسف بن عبد المؤمن الذي استشهد في أثناء حصاره للبرتغال سنة 580 هـ، فخلفه ابنه يعقوب بن يوسف المعروف بالمنصور الموحدي الذي ينسب له النصر المؤزّر على الإسبان في معركة الأرك سنة 591 هـ، ولما توفي خلفه ابنه محمد بن يعقوب الملقب بالناصر الذي لحقت المسلمين على زمنه هزيمة شديدة في معركة العقاب سنة 609 هـ، ضعفت على إثرها دولة الموحدين، وأخذت مدن الأندلس بالسقوط في أيدي الإسبان الواحدة تلو الأخرى، وولي الخلافة بعد وفاته سنة 610 هـ عدد من الخلفاء الضعاف المتنازعين، حتى خرجت الأندلس من طاعة الموحدين سنة 665 هـ بعد سقوط سرقسطة في يد الإسبان وقيام دولة بني مرين في المغرب، ومملكة بني الأحمر في غرناطة.

وقد برزت عدة عوامل أدّت إلى ازدهار الأدب شعراً ونثراً في الاندلس في زمن الموحّدين.

وأول هذه العوامل أن دولة الخلافة الموحّدية قامت على أساس فكريّ وديني، وأنّ مؤسّسها وخلفاءه كانوا من كبار العلماء، وكان من الطبيعي أن يقرّبوا إليهم الكتاب والأدباء والشعراء في الأندلس والمغرب، وكانت لهم تنظيمات قامت على أساس درجاتهم من العلم.

وثاني هذه العوامل أن الموحدين نظروا الى الشعراء والكتاب باعتبارهم مظهراً من

مظاهر أبّهة الحكم، شأن الدول صاحبة الشأن الكبير، نظراً إلى كثرة التنظيمات السياسية والإدارية في الدولة وقوة سلطة الخلافة الموحدية في الأندلس والمغرب واتساع رقعتها.

وثالث هذه العوامل أن توسّع الموحدين في الأندلس والمغرب كان يتطلب منهم الاعتماد على مشاهير الأدباء للعمل في دواوينهم بأنواعها المختلفة: ديوان الجند وديوان الخراج وديوان الرسائل وما إلى ذلك.

ومن هذه العوامل كذلك أن كثيراً من خلفاء الموحدين وأمرائهم وولاتهم في الأندلس كان من الأدباء أو من محبّي الأدب ورعاته، وقد أثرت أشعار ورسائل وتوقيعات بليغة لعبد المؤمن بن علي (537-558 هـ) وابنه يوسف بن عبد المؤمن (558-580 هـ) ويعقوب بن يوسف المنصور (580-595 هـ) وأبي العلاء المأمون إدريس بن يعقوب (624 هـ - 629 هـ)، وكذلك لولاة الموحدين على المدن والأقاليم مثل أبي الربيع سليمان بن عبد الله الموحدي، الذي خصّه عبّاس الجرّاري بكتاب عنوانه: الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدي[178]. ومن هذه العوامل كذلك كثرة الأحداث السياسية المهمّة مثل غزوة الأرك (591 هـ) وهزيمة العقاب (609 هـ) وما كان لها من صدى واسع في الشعر الأندلسي، في موضوعات رثاء المدن والاستنجاد والحضّ على الجهاد وما إلى ذلك.

كما ترك الترف الاجتماعي الذي شهدته الأندلس آثاراً جليّة في موضوعات الشعر الأندلسي وأساليبه، فنجد الشعراء يتبارون في وصف الحدائق العامّة ومجالس اللهو والطرب ووصف القصور والتماثيل والمتنزهات وغيرها، وما قابل ذلك من بروز نزعات الزهد والتصوّف لدى شعراء الأندلس مثل محيي الدين بن عربي (ت 638 هـ) وأبي الحسن الششتري (ت 668 هـ) وغيرهما.

وقد بدأ اهتمام الموحدين بالشعر والشعراء منذ اللحظة الأولى لدخول الخليفة عبد المؤمن بن علي إلى الأندلس، إذ يصف عبد الواحد المراكشي في كتابه المعجب دخول عبد المؤمن بن علي إلى الأندلس قائلاً «ونزل الجبل المعروف بجبل طارق وسمّاه هو جبل الفتح، فأقام به أشهراً، وابتنى به قصوراً عظيمة، وبنى هناك مدينة هي باقية إلى اليوم، ووفد عليه في هذا الموضع وجوه الأندلس للبيعة، كأهل مالقة وأغرناطة ورندة وقرطبة وإشبيلية، وما والى هذه البلاد وانضمّ إليها، وكان له بهذا الجبل يومٌ عظيم، اجتمع له وفي مجلسه فيه وجوه البلاد ورؤساؤها وأعيانها وملوكها من العدوة والأندلس ما لم يجتمع لملك قبله، واستدعى الشعراء في هذا اليوم ابتداءً ولم يكن يستدعيهم قبل ذلك، إنما كانوا يستأذنون فيؤذن لهم»[179].

وعندما قفل المنصور يعقوب بن يوسف الموحّدي من انتصاره في غزوة الأرك سنة 591 هـ «جلس للوفود في قبة من تلك القباب مشرفة على النهر الأعظم، وأذن فدخلوا عليه على طبقاتهم ومراتبهم، وأنشده الشعراء»[180]، وبلغ من كثرة الشعراء المهنئين «أنه لم يتمكن لكثرتهم أن ينشد كلّ إنسان قصيدته، بل كان يختصّ منها بالإنشاد البيتين والثلاثة المختارة». وأورد صاحب نفح الطيب نقلاً عن كتاب روح الشعر وروح الشحر لأبي عبدالله محمد بن الجلاب الفهري أن أمير المؤمنين يعقوب المنصور لما قفل من غزوة الأرك المشهورة، ورد عليه الشعراء من كل قطر يهنئونه، فلم يمكن لكثرتهم أن ينشد كل إنسان قصيدته بل كان يختصّ منها بالإنشاد البيتين أو الثلاثة المختارة. قال: وانتهت رقاع القصائد وغيرها إلى أن حالت بينه وبين من كان أمامه لكثرتها»[181].

وتذكر المصادر أن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن الموحدي عزم في سنة 566 هـ على الجهاد في الأندلس، فوجّه إلى القبائل العربية في المغرب قصائد تحضّهم على الجهاد، منها قصيدة لابن طفيل مطلعها:

اقيموا صدور الخيل نحو المغارب لغزو الأعادي واقتناء الرغائب[182]

وتذكر المصادر أيضاً أن عبد المؤمن بن علي كتب مرّة الى أهل المغرب يستنفرهم الى الغزو بجزيرة الأندلس، وأمر أن تكتب في آخرها أبيات قالها - رحمه الله - في ذلك المعنى، وهي:

اقيموا إلى العلياء هوج الرواحل وقودوا إلى العلياء جُرْدَ الصواهل[183]

.... الخ.

وقد أورد صاحب المعجب تعريفاً مسهباً بالشعراء والكتاب الذين كانوا في بلاط كلّ واحد من هؤلاء الخلفاء الموحّدين، فمن كتّاب عبد المؤمن بن علي أبو جعفر أحمد بن عطية[184] وأبو القاسم عبد الرحمن القالمي[185] وأبو محمّد عيّاش بن عبد الملك بن عيّاش من أهل مدينة قرطبة[186]. وذكر عبد الواحد المراكشي أنه كان على باب عبد المؤمن بن علي طائفة من الشعراء أكثرهم مجيدون[187] منهم أبو عبدالله محمد بن حبّوس من أهل مدينة فاس وكانت طريقته في الشعر على نحو طريقة محمد بن هانئ الأندلسي في قصد الألفاظ الرائعة والقعاقع المهولة وإيثار التقعير[188]. ومن شعراء عبد المؤمن أيضاً الأصمّ المرواني الشاعر ابن الطليق[189] وأبو عبدالله محمد بن غالب الرصافي البلنسي[190] ويقول أيضاً عن عبد المؤمن: «وكان محبّاً في الآداب، مؤثراً لأهلها، يهتز للشعر ويثيب

عليه، اجتمع له من وجوه الشعراء وأعيان الكتّاب عصابة ما علمتها اجتمعت لملك من بعده»[191].

أما يوسف بن عبد المؤمن فكان من شعرائه أبو بكر محمد بن طفيل[192] وعلي بن حزمون الشاعر[193] ومحمد بن عبد ربه الكاتب حفيد صاحب العقد[194] وغيرهم.

وإلى جانب هؤلاء الشعراء عاش في الأندلس أعداد كبيرة من الشعراء المشاهير مثل إبراهيم بن سهل الإشبيلي (ت 649 هـ) ومحمد بن إدريس مرج الكحل (ت 634 هـ) وأبو عبدالله ابن الأبّار (ت 658 هـ) وابن خروف الإشبيلي، وحفصة بنت الحاج الركونية، وأبو بحر صفوان بن إدريس (ت 598 هـ) ومحمد بن أحمد بن جبير (ت 564 هـ) وغيرهم.

واشتهر عصر الموحدين بكثرة انتشار المجالس الأدبية التي كانت تعقد إمّا في قصور الخلفاء والأمراء والولاة وإمّا في منازل الأدباء أو حدائق بيوتهم أو الحدائق العامة، وكذلك كانت مجالس اللهو والمجون والغناء ميادين للمطارحات والمساجلات الشعرية.

ومما تجدر الإشارة إليه أنّه ألّف في عصر الموحدين عدد جمٌ من كتب تراجم الشعراء والأدباء مثل كتاب زاد المسافر لصفوان بن إدريس التجيبي، وكتاب تحفة القادم لأبي عبدالله بن الأبّار، وبرنامج شيوخ الرعيني لأبي الحسن الرعيني، وكتاب أدباء مالقة لابن خميس، وكتاب المغرب في حلى المغرب لابن سعيد الأندلسي، وكتاب رايات المبرزين لابن سعيد أيضاً، وكتاب القدح المعلّى في التاريخ المحلّى لابن سعيد أيضاً، وكتاب الغصون اليانعة في شعراء المائة السابعة لابن سعيد، وكتاب المطرب لابن دحية الكلبي وخريدة القصر للعماد الأصفهاني (انظر ثبت المصادر المراجع)، ولم يحظ أيّ عصرٍ من العصور بهذا العدد من كتب تراجم الشعراء.

كما انتهى إلينا من هذا العصر عددٌ من الدواوين الشعرية الأندلسية لم يصل إلينا مثلها من أي عصر من عصور الأدب الأندلسي، ومنها: ديوان ابن الأبّار القضاعي، وديوان حازم القرطاجني، وديوان ابن سهل الإشبيلي، وديوان أبي عبدالله الرصافي البلنسي، وديوان ابن الزقّاق البلنسي، وديوان محيي الدين ابن عربي، وديوان ابن الصبّاغ الجذامي (ت بعد 648 هـ) وغيرهم.

عصر بني الأحمر (635 - 897 هـ)

يقول إسماعيل بن يوسف بن الأحمر (ت 807 هـ) أحد أمراء بني الأحمر، وعاش في فاس، وكان أديباً وشاعراً ومؤلفاً، في وصف الأندلس أيام قومه بني الأحمر:

أبى الله إلاّ أن تكون اليدُ العليا ... لأندلسٍ من غير شرط ولا ثنيا
وإن هي عضّتها بنوبٍ نوائبٌ ... فصيّرت الشّهْدَ المشورَ بها شريا
فما عدمت أهل البلاغة والحِجا ... يقيمون فيها الرسْمَ للدين والدنيا
إذا خطبوا قاموا بكلّ بليغةٍ ... تجلّي القلوبَ الغُلْفَ والأعين العُميَا
وإن شعروا جاءوا بكلّ غريبةٍ ... تخال النجوم النيّرات لها حليا

،،، الخ[195]

ويقول الرحّالة عبد الباسط بن شاهين المالطي الذي زار غرناطة سنة 870 هـ إنها «مجمع الفضلاء والعلماء والأعيان والشعراء وأرباب الفنون والكمالات»[196].

تدلّ هاتان الإشارتان على أنّ مملكة غرناطة، آخر مملكة من ممالك الإسلام في الأندلس، رغم التضييق والحصار والحروب التي تعرّضت لها، إلاّ أنّ نبض الأدب قد استمرّ فيها بين قوة وضعف، تبعاً لكثير من العوامل التي أحاطت بها.

وقد يحسن أن نقسم هذا العصر إلاّ ثلاث مراحل:

الأولى: من تأسيس غرناطة على يد محمد بن يوسف بن نصر سنة 635 هـ حتى وفاة ابنه محمد بن محمد سنة 701 هـ.

الثانية: تمتد طول القرن الثامن تقريباً (من بداية عهد محمد الثالث سنة 701 حتى وفاة محمد الخامس سنة 793 هـ).

الثالثة: وتمتد طوال القرن التاسع الهجري تقريباً (من وفاة محمد الخامس سنة 793 حتى تسليم غرناطة على يد أبي عبدالله الصغير محمد بن علي بن سعد بن الأحمر سنة 897 هـ).

أما المرحلة الأولى فقد شهد أدباؤها سقوط معظم المدن الأندلسية: قرطبة وإشبيلية وبلنسية وسرقسطة وغيرها، وخيّل إلى كثير منهم أن غرناطة ستسقط هي الأخرى قريباً، فهجر كثيرٌ منهم الأندلس إلى المغرب وتونس ومصر وبلاد الشام. ومن هؤلاء: ابن الأبّار القضاعي، وابن سعيد المغربي، وابن سهل الإشبيلي، وأبو المطرّف بن عميرة، وحازم

القرطاجني، وابن البيطار، وابن مالك الجياني، ومحيي الدين بن عربي وسواهم. بينما بقي آخرون تحت رعاية ملوك بني الأحمر، ومن هؤلاء: ابن عابد الأنصاري وابن مسعود المحاربي وابن الحكيم وابن الزبير وأبو البقاء الرندي وابن خميس وابن المرابط وابن الفخار الجذامي وابن شَبْرين وغيرهم.

أما المرحلة الثانية (701-793 هـ) فقد شهدت فيها مملكة غرناطة نوعاً من الاستقرار بسبب المساعدات التي كانت تتلقاها من بني مرين في المغرب، وقد أدى ذلك إلى انخفاض مستوى هجرة العقول من الأندلس، وشهدت غرناطة في منتصف القرن الثامن الهجري حركة أدبية متميزة كان من ألمع شخصياتها لسان الدين بن الخطيب وأبو الحسن ابن الجيّاب وابن زمرك وابن الحاج النميري وغيرهم.

أما المرحلة الثالثة (793 هـ - 897 هـ) فتعدّ مرحلة احتضار للوجود الإسلامي في الأندلس، بسبب الخلافات الشديدة بين بني الأحمر أنفسهم ومحاولات الإسبان للاستيلاء على غرناطة، وقد اتسمت هذه المرحلة بقلة المصادر الأدبيّة التي تمثلها ما عدا بعض دواوين الشعر والمجموعات الأدبيّة القليلة. وكان من شعراء هذه المرحلة وأدبائها: أبو يحيى بن عاصم الغرناطي صاحب كتاب جنة الرضا في التسليم لما قدّر الله وقضى والمعروف بابن الخطيب الثاني، والشرّان، وعمر الزجّال، وابن الأزرق، والعربي العقيلي، والشاعر يوسف الثالث، وابن فركون، وعبد الكريم القيسي.

وثمة عوامل اثرت تأثيراً سلبياً على الشعر في عصر بني الأحمر وعوامل أثّرت تأثيراً إيجابياً. فمن العوامل التي أثرت سلباً:

1- الحروب والفتن والنزاعات وهجرة الأدباء إلى خارج الأندلس، وقد ذكرنا أمثلة على ذلك.

2- استشهاد عدد كبير من العلماء والأدباء في الحروب التي قامت بين مملكة غرناطة والإسبان وخاصة معركة طريف سنة 741 هـ، وحصار جبل طارق سنة 750 هـ.

3- وفاة عدد كبير من العلماء والأدباء في موجات الطاعون التي كانت تجتاح غرناطة، وخاصة بين سنتي 749-750 هـ [197].

4- هجرة بعض الأدباء المشاهير بسبب استبداد الأمراء والسلاطين، ومن بين هؤلاء أبو حيّان الغرناطي، حيث يقول في بعض أشعاره:

لا تصحبَنْ ملكاً أو مَنْ يلوذ به وإن تنلْ منهمُ عزّاً وتمكينا
يستخدمونك في لذّات أنفسهم ويذهب العمرُ لا دنيا ولا دينا[198]

ويشير إلى الظلم الذي تعرّض له قائلاً:

ما لليراعةِ لا ريعت بحادثةٍ استعجمت ولحبري الآن قد جَمَسَا
وللقوافي قفت مالي فلا أدبٌ يُملى ولا نَشَبٌ يريح مبتئسا
فصفحة الطرس من دري معطّلةٌ ورسم جودي إذا قللت قد دَرَسا
وقد ذوَتْ زهراتُ الشعر واسفاً لمّا غدا ماءُ فكري غائراً يبسا
كأنّني لم أعمّر منتدى أدبٍ ولم أُجِلْ للصِّبا في حلبةٍ فَرَسا
سددتُ بابَ القِرى عن كلّ ملتمسٍ إنْ كنتُ أسكُن بعد العام أندلسا[199]

أما العوامل التي أثّرت إيجاباً على الشعر في عصر بني الأحمر، فكان أهمها رعاية ملوك بني الأحمر للأدب والأدباء، فقد كان معظم هؤلاء الملوك إمّا أدباء أو محبّين للأدب، فقد كان محمد الأول (ت 671 هـ) يعقد مجلساً أسبوعياً لوزرائه وكتابه وقضاته وشعرائه، وكان يستمع إلى إنشاد الشعراء[200]. وكان معظم وزرائه وكتابه من الشعراء ومنهم: أبو الحسن علي بن محمد الرعيني، وأبو بكر بن خطاب، وأبو عمرو اللوشي[201]. أما محمد الثاني (ت 701 هـ) فكان هو نفسه شاعراً، ويذكر لسان الدين بن الخطيب أنه اطّلع على كثير من شعره، نحو قوله مخاطباً شاعره عزيز بن عليّ الداني:

تذكّرْ عزيزُ ليالٍ مضَتْ وإعطاءنا المالَ بالراحتين
وقد قصدتنا ملوك الجهات ومالوا إلينا من العدوتين
وإذْ سالَ السِلْمَ منّا اللعينُ فلم يحظَ إلاّ بخُفّي حُنين[202]

وكان من شعراء محمد الثاني عزيز بن عليّ الداني، وأبو بكر اللوشي، ومحمد بن عابد الأنصاري، ومحمد بن الحكيم، وصالح بن شريف الرندي[203]. أما محمد الثالث (ت 708 هـ) فتذكر المصادر أنه كان شاعراً ويعقد المجالس للشعراء، وكان أيامه أعياداً، وكان من شعرائه: ابن شَبْرين وأبو إسحق اللوشي وعزيز الداني وأبو عبدالله محمد بن الحيكم[204]. أمّا نصْر بن الأحمر، فكان من أشهر شعرائه أبو الحسن بن الجيّاب.

غير أنّ أكثر ملكين كان لهما الفضل في رعاية الأدباء هما: يوسف الأول (ت 755 هـ)

ومحمد الخامس (ت 793 هـ)، فقد كان في أيامهما لسان الدين بن الخطيب وابن الجيّاب وابن زمرك وابن الحاج النميري.

وفي القرن التاسع الهجري كان يوسف الثالث ابن الأحمر (ت 820 هـ) شاعراً مشهوراً وخلف ديواناً شعرياً حافلاً، وكان في بلاطه عدد كبير من الشعراء (انظر: مظهر النور الباصر لأحمد بن فركون الغرناطي).

ولم يخلُ حتى آخر ملوك بني الأحمر الذي سقطت غرناطة في زمنه من أن يكون له شاعره الخاص، فقد كان لأبي عبدالله الصغير شاعره وكاتبه أبو عبدالله محمد بن عبدالله العربي العقيلي الذي كتب عن ملكه رسالة الاعتذار الى ملك فاس الوطاسي وعنوانها: "الروض العاطر الأنفاس في التوسّل إلى سلطان فاس" وهي رسالة شعرية ونثرية[205].

وبالإضافة إلى كتب تراجم الأدباء والشعراء مثل كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة وكتاب الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه من شعراء المائة الثامنة وكتاب أدباء مالقة لابن خميس، فقد وصلت إلينا من عصر بني الأحمر مجموعة من دواوين الشعر مثل: ديوان الصيّب والجهام للسان الدين بن الخطيب، وديوان أبي حيّان الغرناطي، وديوان ابن الجيّاب، وديوان ابن جابر، وديوان الغسّاني، وديوان يوسف الثالث، وديوان ابن خاتمة الأنصاري، وديوان ابن الحاج النميري، وديوان ابن فركون، وديوان عبد الكريم القيسي وديوان ابن زمرك، ومختارات ابن عزيم.

ومن الظواهر اللافتة للنظر في هذا العصر ظاهرة انتشار النقوش الشعرية على جدران قصر الحمراء وجنة العريف ونوافذهما، ومعظم هذه الأشعار للسان الدين بن الخطيب وابن زمرك وابن الجياب والملك يوسف الثالث. كما نقشت أشعار أخرى على الأحواض والجرار الخزفية وشواهد القبور وغيرها.

ويبلغ عدد القصائد والمقطوعات المنقوشة على جدران قصر الحمراء وجنة العريف اثنتين وثلاثين قصيدة ومقطوعة وبعض الأبيات المفردة[206].

وقد كان ملوك بني الأحمر يعتمدون على شعرائهم في كثير من المهام، فكان منهم الوزراء وقادة الجيش، بل إن لسان الدين بن الخطيب (ت 776 هـ) كان ينوب عن يوسف الأول ومحمد الخامس في الملك أحياناً.

وكان ملوك بني الأحمر يعتمدون عليهم في السفارات كما كان شأن ابن الخطيب والشريف الغرناطي وابن زمرك وابن لبّ وابن عبد البرّ الخولاني وغيرهم كثير[207].

وكان الشعراء يرافقون الجيوش في الحملات العسكرية، او يشاركون في الدفاع عن غرناطة وثغورها ضدّ الهجمات الإسبانية، فقد كان محمد بن شلبطور (ت 755 هـ) قائداً لأسطول غرناطة وكان شاعراً في الوقت نفسه[208]. وتحدّثت المصادر عن كثير من شعراء غرناطة الذين استشهدوا في المعارك ضدّ الإسبان مثل محمد بن يحيى الأشعري الذي استشهد في معركة طريف سنة 741 هـ[209] وعبدالله بن لسان الدين بن الخطيب الذي استشهد في المعركة نفسها[210] وغيرهم.

وقد تنوّعت أغراض الشعر في هذا العصر تبعاً لتطورات الواقع السياسي والاجتماعي، فكثر شعر الاستنجاد ورثاء المدن ووصف المعارك، وكثر شعر الأعياد والمناسبات الرسمية والدينية.

الحواشي والتعليقات

(1) المعجب للمراكشي 26 ، جذوة المقتبس 6

(2) الحلة السيراء 64/1، جذوة المقتبس 201، تاريخ افتتاح الأندلس 43-44.

(3) الحلة السيراء 66/1.

(4) الحلة السيراء 66/1، جذوة المقتبس 200.

(5) جذوة المقتبس 189-190.

(6) المغرب 131/1-132

(7) الإحاطة 347/3.

(8) نفسه 347/3.

(9) نفح الطيب 177/3.

(10) طبقات النحويين واللغويين 286، نفح الطيب 224/3-225.

(11) التكملة 216/1، المقتبس 372/2 ، المغرب 114/1.

(12) طبقات النحويين واللغويين 283، المقتبس 190/2 ، 236.

(13) الحلة السيراء 68/1 ، الإحاطة 346/3.

(14) الحلة السيراء 68/1 ، تاريخ افتتاح الأندلس 54.

(15) الحلة السيراء 68/1 ، تاريخ افتتاح الأندلس 63.

(16) الحلة السيراء 350/2.

(17) نفح الطيب 265/1.

(18) الحلة السيراء 36/1 ، البيان المغرب 60/2، المعجب 31.

(19) الحلة السيراء 37/1 ، البيان المغرب 60/2.

(20) الحلة السيراء 37/1 .

(21) الحلة السيراء 43/1 .

(22) نفسه43/1.

(23) الحلة السيراء 47/1-50 ، المغرب 44/1-45 ، البيان المغرب 71/2-72، 79-80، المقتبس 145/2 ، 227-228.

(24) المقتبس 145/2، الحلة السيراء 47/1، المغرب 44/1-45 ، البيان المغرب 71/2-72.

(25) المقتبس 299/2-302، المغرب 47/1، الحلة السيراء 114/1-119.

(26) الحلة السيراء 114/1-115، البيان المغرب 86/2 (منسوبة لعبدالله بن الشمر)، المغرب 47/1، المقتبس 299/2-300.

(27) الحلة السيراء 119/1-120.

(28) الحلة السيراء 121/1-123، البيان المغرب 154/2-155.

(29) الحلة السيراء 122/1، البيان المغرب 155/2.

(30) المغرب 114/1.

(31) نفسه 132/1.

(32) تاريخ افتتاح الأندلس 59-60.

(33) المقتبس 231/2.

(34) نفسه 231/2-238.

(35) نفسه 238/2-243.

(36) نفسه 243/2-262.

(37) نفسه 262/2-269.

(38) المعجب 34.

(39) المقتبس 174/2-178.

(40) المقتبس 233/2، رسائل ابن حزم 75/2.

(41) المقتبس 336/2.

(42) نفسه 343/2.

(43) نفسه 347/2.

(44) نفسه 350/2.

(45) نفسه 371/2.

(46) نفسه 381/2.

(47) نفسه 385/2.

(48) نفسه 276/2.

(49) نفسه 334/2.

(50) البيان المغرب 120/2.

(51) المقتبس / تحقيق إسماعيل العربي 55.

(52) نفسه 63.

(53) نفسه 63-66.

(54) نفسه 66.

(55) نفسه 67.

(56) نفسه 68.

(57) نفسه 68.

(58) نفسه 68.

(59) نفسه 69.

(60) نفسه 69.

(61) نفسه 70.

(62) نفسه 70.

(63) نفسه 70.

(64) نفسه 70.

(65) نفسه 70.

(66) نفسه 71.

(67) نفسه 71.

(68) نفسه 71.

(69) نفسه 72.

(70) انظر: الوشاح الأول مقدم بن معافى القبري، د. صلاح جرار.

(71) جذوة المقتبس 305.

(72) المقتبس 307/2-335

(73) نفسه 319/2

(74) انظر خبر ذلك وما قيل فيه من الشعر في المقتبس لابن حيّان، تحقيق إسماعيل العربي 78-90

(75) نفح الطيب 173/3

(76) المقتبس 234/2

(77) البيان المغرب 156/2-157

(78) المغرب 186/1، نفح الطيب 385/1، 395

(79) المغرب 56/2

(80) تاريخ علماء الأندلس 113/2

(81) نفح الطيب 174/3

(82) المقتبس 479/5

(83) نفح الطيب 188/3

(84) تاريخ الأدب الأندلسي / عصر سيادة قرطبة 70

(85) انظر ديوان ابن عبد ربه 181-210

(86) البيان المغرب 225/2

(87) المقتبس 40/5

(88) نفسه 41/5

(89) نفسه 49/5-50

(90) رايات المبرزين 113 منسوبة إلى الأمير محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر،

الحلة السيراء 209/1، المغرب 190/1، وورد البيتان في المطرب ص12 منسوبين للحكم المستنصر.

(91) ديوان ابن عبد ربه 35-37، تاريخ عبد الرحمن الناصر 39-40

(92) الصلة 692-693

(93) المغرب 37/2-38

(94) الصلة 692/2

(95) نفسه 692/2

(96) نفسه 693/2، الجذوة 412

(97) الحلة السيراء 8/2

(98) نفسه 10/2

(99) نفسه 8/2-12

(100) الذخيرة ق1 م1 ص46

(101) جذوة المقتبس 21، المعجب 69-71، الحلة السيراء 9/2، الذخيرة ق1 م1 ص47-48

(102) الحلة السيراء 13/2، المعجب 84، جذوة المقتبس 26، الذخيرة ق1 م1 ص55

(103) الذخيرة ق1 م1 ص56، الحلة السيراء 14/2، ووردت أربعة أبيات منها في الجذوة 26، والمعجب 84-85.

(104) انظر أسماء هؤلاء الشعراء في رسالة الماجستير التي أعدها عصام عبد المجيد المطرمي بعنوان: الحركة الشعرية في ظلّ المنصور بن أبي عامر، الجامعة الأردنية، 1993

(105) الإحاطة 106/3

(106) نفسه 106/3

(107) نفسه 106/3-107

(108) جذوة المقتبس 111

(109) نفسه 227

(110) نفسه 257

(111) نفسه 111

(112) نفح الطيب 189/3

(113) المعجب 30-31

(114) مطمح الأنفس 389-397، الحلة السيراء 274/1-277، المغرب في حلى المغرب 203/1، نفح الطيب 400/1-401

(115) نفح الطيب 400/1، البيان المغرب 274/2، الاحاطة 105/2

(116) الدرر النثيرة، مؤلف مجهول، ورقة 48، مخطوط الخزانة الملكية بالرباط، نسخة ميكروفيلم في الجامعة الأردنية.

(117) جذوة المقتبس 150.

(118) نفسه 150

(119) نفسه 150-151

(120) البيان المغرب 4/3

(121) نفسه 18/3

(122) الذخيرة ق4 م1 ص78-79

(123) أعمال الأعلام 91-98

(124) نفسه 92-97

(125) نفح الطيب 190/3

(126) الذخيرة ق2 م1 ص66

(127) الذخيرة ق2 م1 ص12

(128) نفح الطيب 190/3-191

(129) الذخيرة ق2 م1 ص13

(130) الذخيرة ق2 م1 ص23، الحلة السيراء 38/2-39

(131) الذخيرة ق2 م1 ص28

(132) نفسه 28

(133) نفسه 31

(134) وفيات الأعيان 24/5

(135) المعجب 149

(136) نفسه 154

(137) نفسه 154 ، 164

(138) الذخيرة ق2 م1 ص41-42

(139) الحلة السيراء 55/2

(140) المعجب 173

(141) الحلة السيراء 71/2

(142) نفسه 71/2

(143) قلائد العقيان 114/1، الحلة السيراء 71/2

(144) الحلة السيراء 68/2-70

(145) نفسه 76/2-77

(146) نفسه 77/2-78

(147) انظر تراجمهم في كتاب الذخيرة ق2 م1 ص81-522

(148) نفح الطيب 194/3

(149) المعجب 111

(150) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ق2 م2 ص640

(151) المعجب 112

(152) الحلة السيراء 104/2-107

(153) المعجب 112

(154) نفح الطيب 466/4

(155) الذخيرة ق2 م2 ص641

(156) نفح الطيب 467/4

(157) انظر القصيدة وبعض أخبار ابن عبدون في المعجب ص112-136

(158) انظر تراجم أدبائهم في الذخيرة القسم الثاني المجلد الثاني.

(159) الحلة السيراء 82/2-83

(160) نفسخ 82/2-83

(161) الحلة السيراء 84/2-88، قلائد العقيان 146/1-156، الذخيرة ق1 م2 ص729

(162) الحلة السيراء 84/2-85، قلائد العقيان 152/1، وفيات الأعيان 40/5، المغرب 197/2

(163) الذخيرة ق3 م1 ص23

(164) المعجب 252-254

(165) نفح الطيب 191/3-192

(166) الشعر الأندلسي لإميليو غارثيا غومس 56-58، تاريخ الفكر الأندلسي لغونثالث بلنثيا 123

(167) ديوان الأعمى التطيلي 90، تحقيق إحسان عبّاس، دار الثقافة، بيروت، 1963

(168) نفسه 49

(169) يحيى بن بقي، حياته وأدبه، صلاح جرار ص347-348

(170) نفسه 356

(171) المعجب 243

(172) نفسه 243-244

(173) نفسه 243

(174) المعجب 255-256

(175) المغرب 314/2

(176) الإحاطة 412/1

(177) المعجب 275

(178) دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1984

(179) المعجب 310-311

(180) نفسه 419

(181) نفح الطيب 172/4

(182) انظر القصيدة في تاريخ المنّ بالإمامة على المستضعفين، لابن أبي صاحب الصلاة، ص436-441

(183) انظر الأبيات في المعجب 329-330

(184) المعجب 290-292

(185) نفسه 292-293

(186) نفسه 293

(187) نفسه 311

(188) نفسه 311-312

(189) نفسه 314-316

(190) نفسه 316-326

(191) نفسه 327

(192) نفسه 349-352

(193) نفسه 419-423

(194) نفسه 424-429

(195) نفح الطيب 458/5، أزهار الرياض 115/1

(196) رحلة عبد الباسط بن شاهين ص313

(197) الإحاطة 365/2

(198) ديوان أبي حيّان 237-238

(199) نفسه 238

(200) الإحاطة 95/2

(201) نفسه 96/2

(202) الإحاطة 558/1، اللمحة البدرية 51

(203) اللمحة البدرية 52

(204) اللمحة البدرية 63-64، الإحاطة 549/1

(205) انظر الرسالة في نفح الطيب 529/4-548، أزهار الرياض 72/1-102

(206) انظر كتاب: ديوان الحمراء، للدكتور صلاح جرار

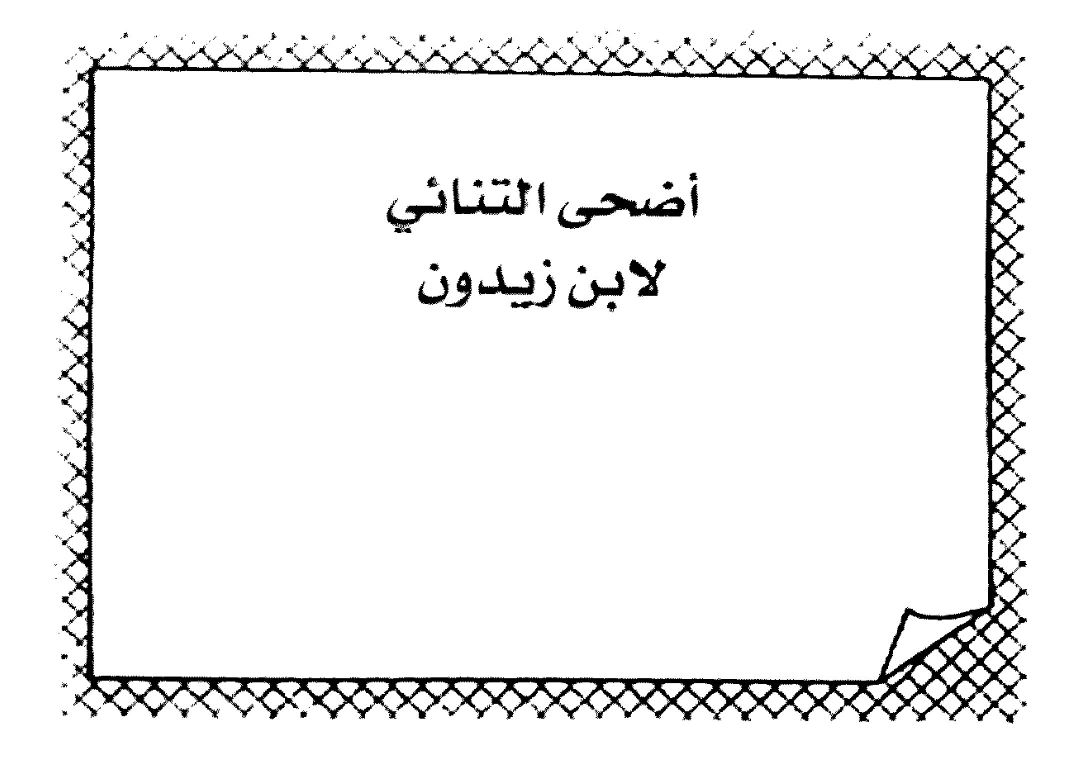
(207) انظر، نفح الطيب 191/6، الإحاطة 181/2، 437 ، 300، 324/1، أزهار الرياض 17/2

(208) الإحاطة 360/2

(209) الإحاطة 176/2

(210) ديوان لسان الدين بن الخطيب 248

الفصل الثاني



أضحى التنائي
لابن زيدون

أضحى التنائي

لابن زيدون[1]

اضحى التَّنائي بديلاً من تَدانينا ... وناب عن طيب لُقيانا تجافينا

الاّ - وقد حانَ صُبحُ البَيْن - صَبَّحنا ... حَيْنٌ، فقام بنا للْحَيْن داعينا

من مُبلغُ المُلبسينا بانتزاحهِمُ ... حُزْناً معَ الدهرِ لا يَبْلى، ويُبلينا

انَّ الزَّمان الذي ما زال يُضحكنا ... أُنساً بقربهمُ قد عاد يُبكينا

غَيظَ العِدا من تَساقينا الهَوَى، فَدَعَوْا ... بانْ نَغَصَّ، فقالَ الدهرُ: آمينا

فانحلَّ ما كانَ معقوداً بأنفسنا ... وانْبتَّ ما كان موصولاً بأيدينا

وقد نكونُ، وما يُخشى تَفَرُّقُنا ... فاليومَ نحنُ، وما يُرْجَى تَلاقينا

❖❖❖❖

يا لَيْتَ شِعْري - ولمْ نُعْتِبْ أعاديكُمْ - ... هلْ نالَ حظّاً من العُتْبى أعادينا

لمْ نَعْتَقِدْ بَعْدَكُمْ إلا الوفاءَ لكمْ ... رأياً، ولم نتقلَّدْ غَيْرَهُ دينا

ما حقُّنا أنْ تُقِرُّوا عَيْنَ ذي حَسَدٍ ... بنا، ولا أنْ تَسُرُّوا كاشِحاً فِينا

❖❖❖❖

كُنّا نَرَى اليَأسَ تُسْلينا عَوارِضُهُ ... وقدْ يئِسْنا، فما لِليَأسِ يُغْرِينا

بِنْتُمْ وبِنّا، فما ابْتَلَتْ جَوانِحُنا ... شَوْقاً إليكمْ، ولا جَفَّتْ مآقينا

نكادُ - حينَ تُناجيكمْ ضَمائرُنا ... يَقْضِي علينا الأسَى، لولا تَأسِّينَا

حالتْ لِفقدِكُمْ أيّامُنا، فغَدَتْ ... سُوداً، وكانتْ بكم بِيضاً ليالينا

إذْ جانِبُ العَيْشِ طَلْقٌ من تألُّفِنَا ... ومَرْبعُ اللَّهْوِ صافٍ من تَصافينا

وإذْ هَصَرْنا فنونَ الوَصْلِ دانيةً ... قِطافُها، فَجَنَيْنَا منهُ ما شِينا

❖❖❖❖

لِيُسقَ عَهْدُكُمُ عَهْدُ السُّرورِ، فما ... كنتمْ لأرواحنا إلاّ رياحينا

لا تَحْسَبوا نأيكُمْ عَنّا يُغَيِّرُنَا ... إنْ طالما غيّرَ النّأيُ المُحبّينا

واللهِ ما طَلَبَتْ أهواؤُنا بدلاً ... منكمْ، ولا انصرفتْ عنكمْ أمانينا

ولا استفدنا خليلاً عنكِ يَشْغَلُنا ... ولا اتَّخذْنا بديلاً منكِ يُسْلِينَا



يا ساريَ البَرقِ غادِ القَصرَ واسْقِ به — مَنْ كان صِرفَ الهَوَى والوُدُّ يَسْقِينا
واسْألْ هنالك: هل عَنَّى تَذَكُّرُنَا — إلفاً، تَذَكُّرُهُ أمسى يُعَنِّينا؟
ويا نَسيمَ الصَّبا بَلِّغْ تَحِيَّتَنا — مَنْ لو على البُعْدِ حَيّاً كان يُحْيينا
فهل أرى الدَّهْرَ يَقْضِينَا مُسَاعَفَةً — فيه، وإنْ لمْ يَكُنْ غِبّاً تَقاضِينا؟

❖❖❖❖

رَبيبُ ملكٍ كأنَّ اللّهَ أنْشَأَهُ — مِسكاً، وقدَّرَ إنْشاءَ الوَرى طِينا
أو صَاغَهُ وَرِقاً مَحْضاً، وتوّجَهُ — من ناصع التِّبْرِ إبداعاً وتحسينا
إذا تأوَّدَ آدَتْهُ رفاهيةً — تومُ العُقودِ، وأدْمَتْهُ البُرى لِينا
كانتْ له الشَّمْسُ ظِئْراً في أكِلَّتِهِ — بلْ ما تَجَلَّى لها إلاّ أحايينا
كأنّما أُثْبِتَتْ في صَحْنِ وَجْنَتِهِ — زُهْرُ الكواكبِ تَعْويذاً وتَزْيينا
ما ضَرَّ أنْ لمْ نكنْ أكفاءَهُ شَرَفاً — وفي المَوَدَّةِ كافٍ من تكافينا

❖❖❖❖

يا رَوْضَةً طالما أجْنَتْ لواحِظَنَا — وَرداً جَلاه الصِّبا غَضّاً ونِسْرينا
ويا حياةً تَمَلَّيْنا بزهرتها — مُنىً ضُروباً ولذّاتٍ آفانينَا
ويا نعيماً خطرنا من غَضارتِهِ — في وَشْيِ نُعْمَى سَحَبْنا ذَيْلَهُ حِينَا
لَسْنا نُسَمّيكِ إجلالاً وتكرِمَةً — وقدرُكِ المُعتَلي عن ذاكِ يُغْنينَا
إذا انفَرَدْتِ وما شُورِكْتِ في صِفَةٍ — فَحَسْبُنا الوصفُ إيضاحاً وتَبْيينا

❖❖❖❖

يا جنّةَ الخُلْدِ أُبْدِلْنا بسِدرَتِها — والكوثرِ العَذْبِ زَقّوماً وغِسلينا
إن كان قد عَزَّ في الدنيا اللّقاءُ ففي — مَواقِفِ الحَشْرِ نلقاكمْ، ويكفينا
كأنّنا لم نَبِتْ، والوَصْلُ ثالثُنا — والسَّعْدُ قد غَضَّ من أجفانِ واشينا
سِرّانِ في خاطرِ الظَّلْماءِ يَكْتُمُنا — حتّى يكادَ لسانُ الصُّبْحِ يُفْشينا
لا غَرْوَ في أنْ ذكَرْنا الحُزْنَ حين نَهَتْ — عنهُ النُّهى، وتركنا الصَّبْرَ ناسينا
إنّا قرأنا الأسى يوم النَّوى سُوَراً — مكتوبةً، وأخذنا الصَّبْرَ تَلْقِينا
أمّا هواكِ فلم نَعْدِلْ بمَنْهَلِهِ — شِرْباً، وإن كان يُروينا فَيُظْمِينا

لم نَجْفُ أُفْقَ جَمَالِ انت كوكَبُهُ ... سَالِينَ عنهُ، ولم نَهْجُرْهُ قَالِينا
ولا اختياراً تَجَنَّبْناهُ عن كَثَبٍ ... لكن عَدَتْنا - على كُرْهٍ - عَوادينا

❖❖❖❖

نَأسَى عليكِ إذا حُثَّتْ مُشَعْشَعَةً ... فينا الشَّمُولُ، وغنّانا مُغَنّينا
لا اكؤسُ الرَّاحِ تُبدي من شمائلنا ... سِيمَا ارتياحٍ، ولا الأوتارُ تُلهِينَا
دُومِي على العَهْدِ - ما دُمنَا - مُحافِظَةً ... فالحُرُّ مَنْ دَانَ إنصافاً، كَمَا دِينَا
فما اسْتَعَضْنا خليلاً منكِ يَحْبِسُنا ... ولا اسْتَفَدْنا حبيباً عنكِ يَثْنِينا
ولوْ صَبَا نحوَنا من عُلْوِ مَطْلَعِهِ ... بدرُ الدُّجَى لمْ يَكُنْ -حَاشَاكِ- يُصْبِينا
أَوْلِي وَفاءً - وإن لم تَبْذُلي صِلَةً - ... فالطيفُ يُقنعنا، والذِّكْرُ يَكفينا
وفي الجواب مَتاعٌ إن شَفَعتِ به ... بِيضَ الأيادي التي ما زِلْتِ تُولِينَا
عليكِ مِنّا سَلامُ اللهِ ما بَقِيَتْ ... صَبابةٌ بِكِ نُخْفيها فَتُخْفِينا

مقدّمة

يعدّ ابن زيدون، أبو الوليد أحمد بن عبدالله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي (394 هـ - 463 هـ) واحداً من ألمع شعراء الأندلس، وتعدّ قصيدته (أضحى التنائي..) من أبرز عيون الشعر الأندلسي، بل من أبرز عيون الشعر العربيّ في الغزل. وبين هذه القصيدة وسيرة صاحبها علاقة وثيقة، فهي من خُلاصات حياته السياسية وخبراته الاجتماعية وثقافته الأدبية وتجربتهِ الشعرية.

ولد ابن زيدون بالرصافة أحد أرباض قرطبة سنة 394 هـ من أسرة مرموقة، فقد كان والده من أعلام قرطبة، لكنه توفي حين كان ابن زيدون في الحادية عشرة من عمره، فكفله جدّه لأمّه أبو بكر محمد بن محمد بن إبراهيم، وكان أيضاً من العلماء المرموقين. وتتلمذ ابن زيدون على أساتذة مشهورين منهم أستاذه أبو بكر مسلم بن أحمد بن أفلح النحوي.

وقد حظي ابن زيدون بمناصب رفيعة لدى أبي الحزم بن جهور أمير قرطبة، فكان سفيره وشاعره، وكان ابن زيدون في الوقت نفسه صديقاً لابن أمير قرطبة أبي الوليد ابن أبي الحزم بن جهور، وقد حسده أقرانه من أدباء قرطبة على هذه المكانة الرفيعة لدى بني جهور فأخذوا يحيكون له الدسائس، وفي هذه الأثناء نشأت بين ابن زيدون وولاّدة بنت المستكفي علاقة حبّ اشتهرت بين الناس، فقد كان لولاّدة مجلسٌ أدبي في قرطبة يرتاده الشعراء والكتّاب، وكان ابن زيدون من رواد ذلك المجلس، فأحبها وأحبّته، ودخل ابن زيدون في منافسة مع عدد من الطامعين بحبّ ولاّدة مثل الوزير أبي عامر ابن عبدوس وأبي عبدالله بن القلاّس وغيرهما، وقد زاد ذلك من تحامل أعدائه وتآمرهم عليه حتى أوقعوا بينه وبين ولاّدة ثم أوقعوا به لدى أبي الحزم بن جهور فسجنه سنة 430 هـ، وحاول الشاعر أن يدافع عن نفسه لدى أبي الحزم فكتب له رسالة مشهورة تعرف بالرسالة الجدّية، فلم يلتفت الأمير إليه، وبعد خمسمائة يوم هرب ابن زيدون من سجنه، واتجه إلى إشبيلية، واتصل بأميرها المعتضد بن عبّاد، ومن إشبيلية كتب ابن زيدون قصيدته إلى ولاّدة.

وقد وصف ابن بسّام هذه القصيدة بقوله «وهذه القصيدة بجملتها فريدة، وقد عارضه فيها جماعة قصّروا عنه»[2]. وقد قيل عنها أيضاً إنّه «ما حفظها أحدٌ إلاّ مات غريباً»، ولهج كثيرون بأنّ إنساناً لا يتم له الظرف ما لم يحفظها. وقد شغف بمعارضتها وتخميسها وتسديسها كثيرون ولكنها ظلّت سامقةً في مكانها الرفيع[3].

وممّا قاله الفتح بن خاقان في وصفها «وهي قصيدة ضربت من الإبداع بسهم، وطلعت

في كلّ خاطر ووهم، ونزعت منزعاً قصّر عنه حبيب وابن الجهم»[4]. وقال عبد الواحد المرّاكشي عن قصيدة ابن زيدون «ومن نسيبه الذي يختلط بالروح رقة وبأجزاء الهواء لطافة»[5].

وأما صلاح الدين الصفدي في كتابه تمام المتون فيقول عنها: «ومن ذلك قصيدته النونيّة التي سارت في البلاد، وطارت في العباد، وقد اشتهرت حتى صارت محذورة، فيقال إنه ما حفظها أحدٌ إلاّ مات غريباً، وعارضها الناسُ في حياته وبعد موته ولم يقاربوها»[6].

وممّن عارضها من الشعراء الأندلسيين أبو بكر بن الملح حيث يقول في قصيدة أوّلها:

هل يسْمَعُ الربْعُ شكوانا فيشكينا ... او يَرْجعُ القولَ مغناهُ فيغنينا[7]

ومن أشهر معارضاتها الحديثة معارضة أحمد شوقي التي مطلعها:

يا نائح الطلح اشباهٌ عوادينا ... نشجى لواديكَ ام نأسى لوادينا

بالإضافة إلى أكثر من خمسين معارضة لهذه القصيدة[8]

بناء القصيدة

تتألف قصيدة ابن زيدون من مجموعة من الوحدات المترابطة تمثّل الحالات الشعورية التي انتابت الشاعر وهو يكتب قصيدته؛ فمطلع القصيدة:

اضحى التنائي بديلاً من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا

هو إعلانُ نعيٍ لزمن وصله بولاّدة إذ حلّ التنائي محلّ التداني وحلّ التجافي محلّ طيب اللقيا، وكأنّه في هذا البيت يختصر لنا آخر ما آلت إليه علاقته مع ولاّدة.

ويتمنّى ابن زيدون، بعد أن وصف لنا ما انتهت إليه علاقته مع ولاّدة، لو أنّه نُعي إلى الناس بدلاً من أن يُنعى حبّه؛ ويفضل الموت على الفراق.

الاّ وقد حان صُبْحُ البَيْن صبّحنا ... حينٌ فقام بنا للحين ناعينا

ثم يبحث عمّن يحمل رسالة إلى ولاّدة يبلغها أنه منذ فارقها ما زال مقيماً على البكاء بدلاً من الضحك الذي كانا عليه قبل الفراق.

ثم يعزو ما وقع إلى سببين: الأعداء والدهر، فالأعداء غاظهم ما كان بين ابن زيدون وولاّدة ودعوا عليهما بالغصّة فاستجاب الدهر لهم، وكان من نتيجة ذلك انحلال ما كان

معقوداً بينهما وانقطاع ما كان موصولاً، وبعد أن كانا لا يخشيان تفرّقاً أصبحا لا يرجوان تلاقيا:

غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا ... بأنْ نغصَّ فقال الدهر آمينا
فانحلّ ما كان معقوداً بأنفسنا ... وانبتَ ما كان موصولاً بأيدينا
وقد نكونُ وما يخشى تفرّقنا ... فاليوم نحنُ وما يُرجى تلاقينا

أما القسم الثاني من القصيدة فهو توجيه العتاب لولّادة، وتحميلها المسؤولية على ما انتهت إليه علاقتهما:

يا ليت شعري، ولم نعتب أعاديكم ... هل نال حظّاً من العتبى أعادينا
لم نعتقد بعدكم إلاّ الوفاء لكم ... رأياً ولم نتقلد غيره دينا
ما حقّنا أن تقرّوا عين ذي حسد ... بنا ولا أن تسرّوا كاشحاً فينا

وفي القسم الثالث يصف حاله بعد الفراق، من يأس وبكاء وأسى وغيرها:

كنّا نرى اليأس تسلينا عوارضه ... وقد يئسنا فما لليأس يغرينا
بنتم وبنّا فما ابتلّت جوانحنا ... شوقاً إليكم ولا جفّت مآقينا
نكاد حين تناجيكم ضمائرنا ... يقضي علينا الأسى لولا تأسّينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت ... سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا

وقد دفعته عبارة «وكانت بكم بيضاً ليالينا» إلى تذكر الماضي الجميل:

إذا جانب العيش طلْقٌ من تألفنا ... ومربع اللهو صافٍ من تصافينا
وإذ هصرنا فنون الوصل دانيةً ... قطافها فجنينا منه ما شينا
ليُسْقَ عهْدكم عهد السرور فما ... كنتم لأرواحنا إلاّ رياحِينا

ولمّا اقتربت صورة الماضي من مخيّلته أراد التشبث بها، فأخذ يؤكّد لولّادة أنه لم يتغيّر ولم يرضَ بدلاً عنها:

لا تحسبوا نأيكم عنّا يغيّرنا ... إنْ طالما غيّر النأي المحبّينا
واللّه ما طلبت أهواؤنا بدلاً ... منكم ولا انصرفَت عنكم أمانينا
ولا استفدنا خليلاً منكِ يشغلنا ... ولا اتخذنا بديلاً منك يُسْلينا

ويلاحظ المتأمل للأبيات أن ابن زيدون ظلّ يخاطب ولاّدة بضمير المخاطب الجمعي

(أعاديكم، بعدكم، تقروا، بنتم، عهدكم، كنتم..) عندما كان يتحدث عن البعد والفراق، لأنها كانت تعظم في نظره كلّما شعر ببعدها عنه، لكنّه عندما وصل الى الأبيات التي يتحدث فيها عن تخصيصه لها بالحبّ وإفرادها بالانشغال بها فإننا نجده يخاطبها بضمير المخاطب المفرد:

ولا استفدنا خليلاً منكِ يشغلنا ... ولا اتخذنا بديلاً منكِ يُسْلينا

وهذا ما يمكن الوقوف عليه بسهولة في أبيات هذه القصيدة، فكلما استبدّ به اليأس وتذكر مدى بعدها عنه حتى في المكانة الاجتماعية نجده يستخدم ضمير المخاطب للجمع، وكلّما استحضرها بخياله واستشعر قربه منها أو كلما خصّها بوصف ما استخدم في مخاطبتها ضمير المخاطب المفرد، في مثل قوله:

لسنا نسّميكِ إجلالاً وتكرمةً ... وقدركِ المعتلي عن ذاك يغنينا

إذا انفردْتِ وما شوركْتِ في صفةٍ ... فحسبنا الوصف إيضاحاً وتبيينا

إلى غير ذلك من الأمثلة التي يمكن الوقوف عليها في القصيدة.

أمّا القسم الذي يلي تذكّر الماضي، فهو قسم يمثّل استبداد الحنين بالشاعر ممّا يدفعه الى البحث عن رسل ذوي سرعة خارقة تحمل له رسائل إلى ولاّدة، كالبرق ونسيم الصبا، بل إن الشاعر حرص على أن تكون هذه الرسل ذوي دلالات خيّرة، البرق يدلّ على المطر، والنسيم يدلّ على الرقة:

يا ساريَ البرقِ غادِ القصْرَ واسقِ به ... من كان صرف الهوى والودّ يسقينا

ويا نسيم الصبا بلّغ تحيّتنا ... من لو على البعد حيّا كان يحيينا

... الخ

وفي القسم التالي نجد ابن زيدون كأنه يصف محبوبته لهذين الرسولين كي لا يضلاّ الطريق إليها، فيسهب في وصف جمالها ومحاسنها، ومن هذه المحاسن:

ربيبُ مُلْك كأنّ اللّه انشاه ... مسكاً وقدّرَ إنشاء الورى طينا

او صاغه وَرِقاً محضاً وتوّجه ... من ناصع التبر إبداعاً وتحسينا

إذا تأوّد آدته رفاهيةً ... تومُ العقودِ وادمته البُرى لينا

كانت له الشمسُ ظئراً في اكلّته ... بل ما تجلّى لها إلاّ أحايينا

كانّما اثبتت في صحن وجنته ... زهر الكواكب تعويذاً وتزيينا

ما ضـرَّانْ لم نكن أكـفـاءه شـرفـاً	وفـي المودّةِ كـافٍ مـن تكافـينا
يا روضـةً طالما أجنت لواحظنـا	ورداً جـلاه الصِّـبا غـضّاً ونسـرينا

...

إذا انفـردتِ ومـا شـورِكْتِ في صـفـةٍ	فـحسـبنا الوصف إيضاحاً وتبيينا
يا جنة الخلد أبدلنا بسـدرتهـا	والكوثر العـذب زقـومـاً وغسلينا

ويلاحظ في هذه الأبيات براعة ابن زيدون بالوصف الخلاّب، وقد قام وصفه على روعة التصوير، وعلى إفراد ولاّدة بمحاسن ليست في غيرها من البشر، وكأنها مخلوقة من المسك وأما غيرها من البشر فمخلوقون من الطين، وبشرتها كأنها من الفضة الخالصة لبياضها وشعرها كأنه الذهب لشقرته، وجسمها ناعمٌ جداً إلى درجة أن العقود المزدوجة التي تلبسها تميلها ذات اليمين وذات الشمال والخلاخيل تدميها لنعومتها، وهي روضة وجنّة وكوثر، لا مثيل لها في صفاتها.

وتعتمد روعة التصوير عند ابن زيدون في هذه القصيدة على التشبيهات والكنايات والاستعارات ولا سيّما المكنيّة، وهذا ما يتجلّى واضحاً في القسم التالي الذي يشتمل على مضمون الرسالة التي أراد الشاعر أن يوصلها مع البرق ونسيم الصبا التي تستمرّ حتى آخر القصيدة. وتشتمل هذه الرسالة على عدة موضوعات:

الأولى: التعبير عن يأسه من لقائها في الدنيا، والأمل في لقائها في الآخرة، وقد عبّر عن هذا اليأس بمخاطبتها بضمير المخاطب للجماعة:

إن كان قد عزّ في الدنيا اللقاءُ ففي	مـواقف الحشـر نلقاكم ويكفينا

لكنّ ابن زيدون حاول التغلب على يأسه من لقائها في الدنيا بأن فتح لنفسه نافذتين، الأولى: أمل لقائها في الآخرة، والثانية استحضار أجمل لحظات الماضي، إذ لا بدّ من مقاومة اللحظة الراهنة، وهي لحظةٌ عسيرة، بالاستعانة بلحظات الماضي أو المستقبل البعيد.

الثانية: وفي استدعائه لصور الماضي الجميل يبدع ابن زيدون في تصوير اللحظات الجميلة والتحسّر عليها معتمداً على الاستعارات الفائقة والعبارات العذبة:

كـأننا لم نبت والوصل ثالثنا	والسعْدُ قد غضَّ من أجفانِ واشينا
سـرّان في خاطر الظلماء يكتمنا	حتّى يكاد لسانُ الصُبْح يفشينا

الثالثة: وصف ما حلّ به من تجدّد الحزن والأسى، ذلك أن تذكّر الماضي الجميل لا بدّ أن يبعث الأسى:

لا غرو في أن ذكرنا الحزن حين نهت — عنه النهى وتركنا الصبر ناسينا
إنّا قرانا الأسى يوم النوى سوراً — مكتوبةً وأخذنا الصبر تلقينا

...

ناسى عليكِ إذا حثّت مشعشعةً — فينا الشَّمولُ وغنّانا مغنّينا
لا أكؤس الراح تبدي من شمائلنا — سيما ارتياحٍ ولا الأوتار تلهينا

الرابعة: وقد دفعه تذكّر الماضي إلى محاولة التشبّث به، وذلك من خلال التعهّد لولّادة بالمحافظة على حبّه لها وعدم الاستعاضة عنها، ونلاحظ أنّه في هذه الأبيات التي خصّها بها بالحبّ والوفاء استخدم ضمير المخاطب المفرد:

أمّا هواكِ فلم نعدل بمنهله — شِرْباً وإن كان يروينا فيظمينا
لم نجفُ أفق جمالٍ أنتِ كوكبه — سالين عنه ولم نهجره قالِينا
ولا اختياراً تجنّبناه عن كثبٍ — لكن عدتنا على كرهٍ عوادِينا

...

فما استعضنا خليلاً منكِ يحبسنا — ولا استفدنا حبيباً عنكِ يثنينا
ولو صبا نحوَنا من عُلوِ مطلعِهِ — بدرُ الدجى لم يكن حاشاكِ يصبينا

الخامسة: الالتماس من ولّادة أن تحافظ على عهده كما حافظ على عهدها:

دومي على العهد - ما دمنا - محافظةً — فالحرَّ من دان إنصافاً كما دينا

...

أولي وفاءً وإن لم تبذلي صلةً — فالطيفُ يقنعنا والذكر يكفينا

السادسة: التماسُ جوابٍ منها على ما سأل:

وفي الجوابِ متاعٌ إن شفعتِ به — بيضَ الأيادي التي ما زلت توليِنا

وآخرها: البيت الذي ختم به القصيدة، وقد بلغ فيه شوقُ ابن زيدون لولّادة ذروته، حيث ظهر في تسعة أبيات من الأبيات الأحد عشر الأخيرة مخاطبته لها بضمير المخاطب المفرد، ويتوّج ذلك بأن يلقي عليها سلام الله قائلاً:

عليكِ منّا سلامُ الله ما بقيت   صبابة بك نخفيها فتخفينا

المفارقة في القصيدة:

تعجّ قصيدة ابن زيدون النونيّة بالثنائيات الضدّية والمقابلات، إذ تقوم في الأصل على رصد التحوّلات التي طرأت على العلاقة بين ابن زيدون وولاّدة، والآثار التي تركتها هذه التحولات على كلّ منهما وعلى صورة العلاقة بينهما، وقد اشتملت هذه القصيدة على مفردات كثيرة توحي بعمق هذا التحوّل وسعته، مثل كلمتي (بديلاً) و (ناب) في قوله:

اضحى التنائي بديلاً من تدانينا   وناب عن طيب لقيانا تجافينا

وكلمة (حالت) بمعنى تحوّلت وتبدلت في قوله:

حالت لفقدكم أيامنا فغدت   سوداً، وكانت بكم بيضاً لياليِنا

وكلمة (بدلاً) في قوله:

والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً   منكم ولا انصرفت عنكم امانِينا

وكلمة (بديلاً) في قوله:

ولا استفدنا خليلاً عنك يشغلنا   ولا اتخذنا بديلاً منك يسلينا

وكلمة (أبدلنا) في قوله:

يا جنّة الخلد أُبدِلْنا بسدرتها   والكوثر العذب زقوماً وغسلينا

وكلمة (نعدِلْ) بمعنى نستبدل في قوله:

امّا هواك فلم نعدل بمنهله   شِرباً وإنْ كان يُروينا فيظمينا

وكلمة (استعضنا) في قوله:

فما استعضنا خليلاً منك يحبسنا   ولا استفدنا حبيباً عنك يثنينا

ولمّا كانت القضيّة المركزيّة التي تؤرّق ابن زيدون هي قضية التحوّل والتبدّل الذي وقع لعلاقته مع ولاّدة بالإضافة الى التحوّل في المكان والزمان، فإنّه يواجه القارئ بهذه القضيّة من البيت الأول:

اضحى التنائي بديلاً من تدانينا   وناب عن طيب لقيانا تجافينا

ولذلك فإنه يحاول أن يقاوم هذا الواقع الجديد - من جانبه على الأقل - بالإكثار من وضع أداة نفي قبل الكلمات الدالة على التبدّل:

والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً ... منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا
ولا استفدنا خليلاً عنك يشغلنا ... ولا اتخذنا بديلاً منك يسلينا
أمّا هواك فلم نعدل بمنهله ... ...
فما استعضنا خليلاً منك يحبسنا ... ولا استفدنا حبيباً عنك يثنينا

ومن الأدوات التي اتكأ عليها ابن زيدون للتعبير عن شكواه الشديدة من التحوّل الذي طرأ على علاقته بولاّدة الإكثار من استخدام الفعل (كان) ومشتقاتها، رغبة منه في التمسّك بالحال التي كان عليها في الماضي، نحو قوله:

فانحلّ ما كان معقوداً بأنفسنا ... وانبتّ ما كان موصولاً بأيدينا
وقد نكون وما يُرجى تفرُّقنا ... فاليوم نحنُ وما يُرْجى تلاقينا

وقوله

كنّا نرى اليأس تسلينا عوارضه ... وقد يئسنا فما لليأس يغرينا

وقد استخدم ابن زيدون الفعل (كان) ومشتقاته خمس عشرة مرّةً في هذه القصيدة، كما أكثر من استخدام الأفعال الماضية تعبيراً عن تعلّقه بالماضي وعدم رغبته بالانسلاخ عنه، إلى الحدّ الذي جعله يعبّر عن كثير من جوانب الحاضر بأفعال ماضية مثل:

بنتم وبنّا فما ابتلّت جوانحنا ... شوقاً إليكم ولا جفّت مآقينا

فهو في هذا البيت يتحدث عن حاضره ولكنه يستخدم أفعالاً ماضية، وقد بلغ عدد الأفعال الماضية في هذه القصيدة نحو سبعين فعلاً. لكنّ الأفعال الماضية تقابلها أفعالٌ مضارعة ما دامت هذه القصيدة تنهض بالدرجة الأولى على المقارنة بين الماضي والحاضر، ووردت نحو خمسين مرّة في هذه القصيدة. ولهذا التفاوت بين عدد الأفعال الماضية وعدد الأفعال المضارعة دلالاته في نفس الشاعر الذي يعلن عن تمسّكه بالماضي وتبرّمه من الحاضر، في ما يتّصل بعلاقته مع ولاّدة.

وإذا كانت القضيّة المركزية لابن زيدون في هذه القصيدة هي شكواه من التحوّل والتغيّر والتبدّل، فإن استخدامه للمفارقه بما تشتمل عليه من صور الطباق والمقابلة والثنائيات الضدّية، ليس من أجل تزيين القصيدة، بل هي متطلبات لا غنى عنها لموضوع القصيدة، ولذلك جاءت هذه المفارقات لتعمّق المعاني التي تشتمل عليها القصيدة، إنّ المحاور الرئيسية في هذه المفارقات هي: الزمان والمكان وولاّدة وابن زيدون.

أمّا تحوّل الزمان فيظهر في قول ابن زيدون:

من مبلغ الملبسينا بانتزاحهمُ حزناً مع الدهر لا يبلى ويُبلينا
انّ الزمان الذي ما زال يضحكنا انساً بقربهم قد عاد يبكينا

فالزمن قد تحوّل من زمان أنس وقرب وضحك إلى زمن بكاءٍ وبلاء.

وقوله:

وقد نكونُ وما يُخْشى تفرّقنا فاليومَ نحنُ وما يُرجى تلاقينا

ففي هذا البيت مقابلةٌ بين ما كان عليه الشاعر ومعشوقته وما آلا إليه، فقد كانا في الماضي لا يُخشى تفرّقهما وأصبحا في الحاضر لا يُرجى تلاقيهما. وفي هذا البيت صورة من صور المقابلة المركّبة وفيها مغالاة في التعبير عن المعنى المقصود، فنقيض عبارة «ما يخشى تفرّقنا» هو «يخشى تفرّقنا»، لكنّ ابن زيدون عمّق التناقض فجعل نقيضها «ما يُرجى تلاقينا» إذ جمع نقيض (يخشى) إلى نقيض (تفرّقنا) وأبقى على أداة النفي (ما) فجعل للمقابلة معنى أكثر عمقاً وتعبيراً عن يأسه.

ومن الأبيات التي تتحدث عن تبدّل الزمان قوله:

حالت لفقدكم أيّامنا فغدت سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا

فالليالي التي كانت بيضاء بسبب السرور رجعت سوداء كعادتها، ولكن الأيام قد أصبحت سوداء، فالليالي تقابل الأيام والسواد يقابل البياض، وفي هذا البيت كما في البيت السابق مغالاة في المفارقة، فنقيض الليالي البيضاء (في الأصل) هو الليالي السوداء، لكن ابن زيدون جعل نقيضها الأيام السوداء من باب المبالغة في المفارقة ووصف سوء حاله بعد ولاّدة، فجمع نقيض الليالي الى نقيض بيضاء فأصبحت (الأيام السوداء)، وعمّق بذلك معنى الحزن الذي يشكو منه.

ومن الأبيات التي تتحدث عن تبدّل الزمان قوله:

إنْ كان قد عزّ في الدنيا اللقاء ففي مواقف الحشر نلقاكم ويكفينا

فالشاعر لا يقارن بين حاضرٍ وماضٍ بل بين زمانٍ دنيويّ محدود وزمان أخرويّ مطلق، فالزمن الحاضر حال دون لقائه بولاّدة، ولذلك فإنه يأمل بأن تجمع الآخرة بينهما في مواقف الحشر.

ومن الأبيات الدّالة بعمق على تحوّل الزمن في القصيدة قوله:

كـأنّنا لم نبت والوصل ثالثنا والسعْدُ قد غَضَّ من أجفان واشينا

سرّان في خاطر الظلماء يكتمنا حتّى يكاد لسانُ الصبح يفشينا

والمفارقة في هذين البيتين هي في إطار تصوير نضارة الماضي وحسنه، فالليل يكتمهما بخاطره، والصبح يفشيهما بلسانه، وهي مقابلة مؤلفة من عدّة عناصر، الضمير يقابله اللسان، والليل يقابله الصبح، والكتمان يقابله الإفشاء.

إنّ تركيز الشاعر على المقابلة بين الزمنين، يتمثل بصورة أخرى وهي كثرة ذكره لألفاظ الدهر والزمن والعهد وما شاكلها، وقد وقعت هذه المفردات في القصيدة أربع عشرة مرّة.

وأمّا المفارقة المكانية في هذه القصيدة فتتجلى في الأبيات التي يصف فيها الأماكن التي كانت مسرح عشقه لولاّدة واجتماعهما، والأبيات التي يركز فيها على البعد المكاني بينه وبينها، وتظهر هذه المفارقة المكانية جليّة في البيت الأول:

اضحى التنائي بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا

فالمقابلة واضحة في التنائي والتداني، اذ حلّ التنائي محلّ التداني، وهي حالةٌ لها صلة بالمكان قبل كلّ شيء، فبينما كانا قبل ذلك معاً في مكان واحد (التداني) أصبحا في مكانين (التنائي)، واستتبع ذلك حدوث ثنائية أخرى هي حلول التجافي محلّ طيب اللقيا.

وفي قوله:

انّ الزمان الذي ما زال يضحكنا . انساً بقربهم قد عاد يبكينا

تؤرقه ثنائية البعد والقرب وهي ثنائية مكانيّة، لأن الأنس والضحك لم يكونا يتحققان إلاّ بالقرب، وإذا غاب القرب المكاني فمن الطبيعي أن يحلّ البكاء محلّ الضحك والأنس.

وفي قوله:

فانحلّ ما كان معقوداً بأنفسنا وانبتّ ما كان موصولاً بأيدينا

فكلمتا (معقوداً) و (موصولاً) لهما دلالة إزاء إلغاء المسافات المكانية، فقد حلّ محلّهما انحلال المعقود وانقطاع الموصول، فاتّسعت المسافة المكانية بين ابن زيدون وولاّدة.

وفي قوله:

بنتم وبنّا فما ابتلّت جوانحنا شوقاً إليكم ولا جفّت مآقينا

ثنائية مكانية تدلّ عليها كلمتا (بنتم وبنّا) وتعنيان الفراق أي التباعد المكاني، وفيه ثنائية

أخرى بين (ابتلت) و (جَفّت)، فالاولى علامة على الراحة والاستقرار بسبب القرب والثانية علامة على اليباب واليأس بسبب الفراق.

ومن الثنائيات المكانية قوله:

إنْ كان قد عزّ في الدنيا اللقاء ففي   مواقف الحشر نلقاكم ويكفينا

ولئن كانت الدنيا والآخرة تمثلان ثنائية زمانية فإنهما كذلك تمثلان ثنائية مكانية، لأنّها تدلّ على يأس الشاعر من لقاء محبوبته في أي مكان على الأرض.

ولمّا كانت المفارقة المكانية بين الشاعر ومحبوبته إحدى القضايا الرئيسية التي تؤرقه فقد أكثر من الكلمات التي تتصل بها كالبين والفراق والبعد واللقاء والنأي والجفاء والدنو والانتزاح والقرب والفقد وألفة، حتى بلغت ثلاثاً وعشرين مرّة في هذه القصيدة.

أمّا المفارقات المتصلة بولاّدة نفسها فتقوم على المقارنة بين ما كانت عليه ولاّدة قبل الافتراق وما أصبحت عليه، فقد كانت ولاّدة جنّة أيام الوصل وأصبحت الحياة بدونها جحيماً، فيقول مخاطباً ولاّدة:

يا جنّة الخُلْدِ أُبْدِلنا بسدرتها   والكوثر العذبِ زقّوماً وغسلينا

أمّا المفارقات المتصلة بابن زيدون نفسه فترتكز على مقارنة ابن زيدون بين حاله قبل الافتراق عن ولاّدة وحاله بعد الافتراق، ومن أكثرها وضوحاً ثنائية الحياة والموت، فقد عدّ وجود لاّدة بجانبه حياةً له، وعدّ فقدانها من حياته موتاً له:

الاّ وقد حان صبح البين صبّحنا   بينٌ فقام بنا للحيْنِ ناعينا

وقوله:

مَنْ لو على البُعْدِ   حيّاً كان يحيينا

ومن الثنائيات المتصلة بحال ابن زيدون ثنائية الضحك والبكاء فقد انتقل من الضحك أيام الوصال مع ولاّدة إلى البكاء بعد فراقها:

انّ الزمان الذي ما زال يضحكنا   انساً بقربهم قد عاد يبكينا

واسودّت الأيام في نظره بعد أن كانت الليالي مبيضّة:

حالت لفقدكم ايامنا فغدت   سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا

والحزن حلّ محلّ الفرح، والقنوط حلّ محلّ الصبر:

لا غـرو في ان ذكـرنا الحـزن حين نهت عنه النهى وتركنا الصـبـر ناسـينا

وما هذه الصور إلاّ وسيلة واحدة من وسائل التعبير عن عمق الإحساس بالمفارقة لدى ابن زيدون، وثمة وسائل أخرى لم يعتمد فيها ابن زيدون على عنصري الطباق والمقابلة، بل إنّ مجرّد طرح جانب من مأساته في الحاضر يوحي بأنّ هناك جانباً نقيضاً كان سائداً قبل حلول المأساة، فعندما يقول – مثلاً – في وصف حاله:

نأسى عليك إذا حـثّت مـشـعـشـعـةً فـينا الشـمـول وغنّانا مـغنّينا

لا اكـؤس الراح تبـدي من شـمـائلنا سـيـمـا ارتيـاح ولا الأوتار تلهـينَا

فإنّ سياق البيتين يوحي بأن الشاعر يعيش حالة غير ما كان عليه قبل مأساته، فقد كان يرى في الخمر والغناء سبيلاً إلى ذهاب الحزن أمّا الآن فهي مصدر لإثارة الأحزان.

وفي قوله:

يا سـاري البـرق غـادِ القَـصْـرَ واسقِ به من كـان صـرفَ الهـوى والودَ يسـقـينا

إشارة واضحة في كلمة (كان) بأنّ الذي كان لم يعد قائماً، فقد كانت ولاّدة، تسقيه صرف الهوى والودّ وأمّا الآن فلم تعد كما كانت.

وثمة صورة من المفارقة تقوم على عقد المقارنات، كالمقارنة بينه وبين ولاّدة، عندما يصفها بأنها أقرّت أعين الحسّاد والمبغضين بينما هو لم يفعل شيئاً من ذلك:

يا ليت شـعـري – ولم نعتب – أعـاديكم- هل نال حظّاً من العـتـبى أعـادينا

...

مـا حـقّنا ان تقـرّوا عين ذي حـسـدٍ بنا ولا أن تسـرّوا كـاشـحـاً فـينا

وعندما يطالبها بالوفاء والدوام على العهد كما هو فاعل – فكأنما يتهمها بعدم الوفاء بينما هو باقٍ على عهده:

دومي على العهـد – مـا دمنا – مـحـافِظةً فـالحـرُّ مَنْ دان إنصـافـاً كـمـا دينا

...

اولي وفـــاءً – وإن لم تبــذلي صلةً – فـالطيف يقنعنا والذكـر يكفـينا

ويقارن بينه وبينها من جانب آخر، وهو جانب المكانة الاجتماعية، فهي أميرة وابنة خليفة بينما ابن زيدون وزير من وزراء بني جهور، فيتحدث عن ولاّدة قائلاً:

مـــا ضـــرّ أنْ لم نكن أكـــفـــاءه شـــرفــاً وفي المودّة كــافٍ من تكافــينا

ومن المقارنات التي عقدها ابن زيدون في قصيدته، مقارنته بين نفسه وبين الآخرين عندما يقع الفراق بينهم وبين محبوباتهم، فيقول:

لا تحـــســـبـــوا نايكم عنّا يغـــيّـــرنا إن طالما غـــيّـــر النايُ المحـــبّـــينا
واللـه مـــــا طـلـبـت أهـواؤنـا بـدلاً مـنكم ولا انصـــرفت عنكم أمـــانينا
ولا اســتــفــدنا خليــلاً عنك يشـغلنا ولا اتـخـــــذنا بديلاً مـنك يُسْلـينـا

ولعلّ ابن زيدون قصد من ذلك أن يسهل رجوع ولاّدة إليه متى راجعت حساباتها فلا تجد عائقاً يحول دون ذلك.

وما دام ابن زيدون قد ميّز نفسه عن سائر العاشقين بخروجه على قاعدتهم بالتغيّر بسبب البعد، فإنّه كذلك ميّز ولاّدة عن سائر البشر عندما خيّل إليه أن الله تعالى أنشأها من المسك بينما أنشأ جميع البشر من الطين:

ربيـب مـلـك كـــأنّ اللـه أنشـــأه مـــسكاً وقـــدّر إنشـــاء الورى طينا

ولعلّ مثل هذا التمييز لولاّدة عن سائر البشر هو الذي يجعلها تستحق منه أن يميّز نفسه عن سائر العاشقين فلا يتغيّر ببعده عنها.

التجانس الصوتي

حفلت قصيدة ابن زيدون بالتجانس الصوتي، الذي جاء، كالمفارقة، تلقائياً وقد غاب عنه أثر الصنعة، وكانت له وظائف أساسية في تعزيز مقاصد الشاعر والتعبير عن أحاسيسه وتعميق معانيه، ولم يكن القصد منه تزيين القصيدة وحسب، فالشاعر كان في حالة بالغة من الحزن لا تحتمل المبالغة في الزينة اللفظية للقصيدة وحسب، بل كان يريد أن يستعين بإيقاع هذا التجانس الصوتي على التعبير عن عمق أحزانه ومبلغ مأساته، فقد أضفت هذه التجانسات كما أضاف الوزن والقافية إيقاعات حزينة على القصيدة.

وقد استخدم ابن زيدون صوراً مختلفة من التجانس الصوتي، ومن هذه الصور:

1- تكرار بعض الكلمات في البيت الواحد أو في بيتين متجاورين، مثل كلمة (أعادي) في قوله: يا ليت شعري ولم نعتب اعاديكم هل نال حظاً من العتبى أعادينا

ومثل كلمتي (ما كان) في قوله:

فانحلّ مـــا كـــان مـــعـــقـــوداً بأنفـــسنا وانبتّ مـــا كـــان مـــوصـــولاً بأيدينا

وكلمة (اليأس) في قوله:

كنّا نرى اليأس تسلينا عوارضه ... وقد يئسنا فما لليأس يغرينا

وكلمة (عهد) في قوله:

ليسق عهدكم عهد السرور فما ... كنتم لأرواحنا إلاّ رياحينا

وكلمة (نأي) في قوله:

لا تحسبوا نايكم عنّا يغيّرنا ... إنْ طالما غيّر النأي المحبّينا

وأمثلة أخرى كثيرة

2- اشتمال البيت الواحد على كلمات تربط بينها علاقة اشتقاقية مع المحافظة على معنى مشترك بينها، ومن أمثلة ذلك كلمة (صبح) و (صبّحنا) وكلمات (حان - حيْن - حين) في قول ابن زيدون:

الاّ وقد حان صبحُ البين صبّحنا ... حَيْنٌ فقام بنا للحَيْن ناعينا

وكلمتي (يبلى ويبلينا) في قوله:

من مبلغ الملبسينا بانتزاحهم ... حزناً مع الدهر لا يبلى ويبلينا

وكلمي (بنتم وبنّا) في قوله:

بنتم وبنّا، فما ابتلّت جوانحنا ... شوقاً إليكم، ولا جفّت مآقينا

وكلمتي (اسق ويسقينا) في قوله:

يا ساري البرق غادِ القصر واسقِ به ... من كان صِرْفَ الهوى والودّ يسقينا

وكلمتي (عنّى ويعنّينا) في قوله:

واسأل هنالك هل عنّى تذكّرنا ... إلفاً تذكّره أمسى يعنّينا

وكلمات (تحيّتنا - حيّا - يحيينا) في قوله:

ويا نسيم الصّبا بلّغ تحيّتنا ... من لو على البعد حيّا كان يُحيينا

وكلمتي (يقضينا وتقاضينا) في قوله:

فهل أرى الدهر يقضينا مساعفةً ... فيه وإنْ لم يكن غبّاً تقاضينا

وكلمتي (أنشأه وإنشاء) في قوله:

ربيبُ مُلْكٍ كأنَّ الله أنشأه — مسكاً وقدّر إنشاء الورى طينا

وكلمتي (تأوّد وآدته) في قوله:

إذا تأوّد آدته رفاهية — تومُ العقودِ وأدمته البُرى لِينا

وكلمات (أكفاءه - كافٍ - تكافينا) في قوله:

ما ضرّ أنْ لم نكن أكفاءه شرفاً — وفي المودّة كافٍ من تكافينا

وكلمتي (نعيماً ونعمى) في قوله:

ويا نعيما خطرنا من غضارته — في وشي نعمى سحبنا ذيله حينا

وكلمتي (صفة ووصف) في قوله:

إذا انفردت وما شوركت في صفةٍ — فحسبنا الوصف إيضاحاً وتبيينا

وكلمتي (اللقاء ونلقاكم) في قوله:

إن كان قد عزّ في الدنيا اللقاء ففي — مواقف الحشر نلقاكم ويكفينا

وكلمتي (عدتنا وعوادينا) في قوله:

ولا اختياراً تجنّبناه عن كثبٍ — لكنْ عدتنا - على كره - عوادينا

وكلمتي (غنانا ومغنينا) في قوله:

نأسى عليك إذا حثّت مشعشعةً — فينا الشمول وغنّانا مغنّينا

وكلمتي (دومي - دمنا) وكلمتي (دان - دينا) في قوله:

دومي على العهد ما دمنا محافظةً — فالحرّ من دان إنصافاً كما دينا

وكلمتي (صبا ويصيبنا) في قوله:

ولو صبا نحونا من علو مطلعه — بدر الدجى لم يكن حاشاك يصيبنا

وكلمتي (نخفيها وتخفينا) في قوله:

عليك منّا سلامُ الله ما بقيتْ — صبابةٌ بك نخفيها فتخفينا

ويلاحظ من خلال هذه الحالات كثرة انتشار هذه الصور من صور التجانس الصوتي في القصيدة، حتى كانت آخر كلمتين في القصيدة تمثلان هذه الظاهرة:

عليك منّا سلامُ الله ما بقيت — صبابةٌ بك نخفيها فتخفينا

مما أضفى على هذا البيت إيقاعاً بديعاً منبثقاً من العلاقة الاشتقاقية بين الكلمتين ومن العلاقة المعنوية العميقة التي تكشفان عنها، إذ يحاول ابن زيدون بذكاء بارع أن ينشئ علاقة توافقية بينه وبين الصبابة، فهو يخفي صبابته بولاّدة، ولا يظهرها، وفي مقابل ذلك فإنّ الصبابة تخفي ابن زيدون، أي تزيله بالموت شوقاً إلى محبوبته وصبابةً بها. إنّ هذا اللون من التجانس الصوتي في البيت الأخير في القصيدة بالإضافة الى ما يحمله هذا البيت من معانٍ عميقة وإيقاعات بديعة، جعلت من هذا البيت خير خاتمة لهذه القصيدة.

إن كثرة انتشار هذا اللون من التجانس الصوتي القائم على إيراد كلمات تشترك في الأصل الاشتقاقي وتشترك في المعنى، له دلالة خاصة في نفس الشاعر، إذ إنها تدلّ على أن المعاني التي تدور في خلد الشاعر ليست معاني جامدة بل معانٍ حيّة ونامية ومتوالدة كما تتوالد الاشتقاقات من أصل واحد، فمعظم الكلمات المتشابهة في معانيها وأصولها الاشتقاقية كلمات تعبّر عن حالات نامية في نفس الشاعر أو في خياله أو في أمنياته، وهي كلّها تتضخّم لديه بسبب شدّة معاناته، ولعلّ اشتقاق كلمات جديدة من الكلمات المعبّرة عن تلك الحالات هي أفضل آلية للتعبير عن هذا التضخُّم للمعاني ونموّها.

وهذا ما يفسّر أن بعض الأبيات - كما تدلّ عليه الأمثلة - تشتمل على ثلاث كلمات تشترك في الاشتقاق والمعنى.

3- والصورة الثالثة من صور التجانس الصوتي في القصيدة هي الجناس الناقص، مثل الجناس في كلمتي (حين وبين) في قوله:

الاَ وقد حان صبح البَيْن صبّحنا ... حَيْنٌ فقَام بنا للحين ناعينا

وكلمتي (تقرّوا وتسرّوا) في قوله:

ما حقّنا ان تقرّوا عين ذي حَسَدٍ ... بنا ولا أن تسرّوا كاشحاً فِينا

وكلمتي (سالين وقالينا) في قوله:

لم نجفُ أُفُقَ جمالٍ انت كوكبه ... سالينَ عنه، ولم نهجره قالينا

4- أما الصورة الرابعة للتجانس الصوتي فهو وجود كلمات في البيت الواحد تشترك في الأصل الاشتقاقي الصرفي لكنها تختلف في المعنى، وكان هذا النوع من أكثر الأنواع بلاغة وتأثيراً، وأكثرها تعبيراً عن قدرة ابن زيدون على توظيف التجانس الصوتي في تعميق معانيه وفي الوقت ذاته تزيين قصيدته، ومن أمثلة هذا اللون الجناس في كلمتي

(الأسى وتأسينا) في قوله:

نكاد حين تناجيكم ضمائرنا   يقضي علينا الأسى لولا تأسّينا

فالأسى تعني الحزن، والتأسّي يعني التصبُّر، والعلاقة بينهما ليست علاقة تشابه في المعنى بل إن وجود الأسى يقتضي التأسّي لمواجهة الأسى، فالمعنيان يحتاج أحدهما إلى الآخر، لكن تزداد العلاقة بين هذين المعنيين اذا كان بينهما تجانس لفظي. ويشبه ذلك قول ابن زيدون:

ليُسقَ عهدكم عهد السرور فما كنتم   لأرواحنا إلاّ رياحينا

فالعلاقة بين (أرواحنا) و (رياحينا) ليست علاقة اشتراك في المعنى، بل باللفظ فقط. أمّا العلاقة المعنوية بينهما فتتمثل في حاجة أحدهما إلى الآخر.

ويلاحظ القارئ للقصيدة أن بعض الأبيات اشتملت على صورتين أو أكثر من صور هذا التجانس الصوتي، وهذا تعبير عن إجادة ابن زيدون في استخدام أدواته الفنية بمهارة.

أمّا الأسباب التي تقف وراء الإكثار من استخدام التجانس الصوتي في القصيدة، فمنها، أن هذا التجانس تعبيرٌ على رغبة عميقة لدى ابن زيدون بتحقيق التقارب مع ولاّدة، فالتجانس الصوتي هو تقارب صوتي يبحث عن تقارب مع ما يفتقده الشاعر، وهو التقارب مع ولاّدة والتماهي معها بعودة ما كان بينهما من الحبّ والوفاء وإن كان من بعيد.

ومن الأسباب أيضاً لشيوع هذا التجانس في القصيدة أن ابن زيدون شاعرٌ من شعراء البلاط ووزير وكاتب سلطاني ألف التقيّد بأصول مخاطبة الأمراء ومن هم أعلى منه مكانة، أو من هو في حاجة إليهم، فيقدم لهم القصائد مرصعة بألوان الزينة المختلفة وما يتطلبه ذلك من زخارف بديعية ومحسنات بيانية، كما أنه - في هذه القصيدة - ينظر إلى ولاّدة بوصفها مطلباً بعيد المنال، ويستشعر ارتفاع مكانتها عن مكانته عندما يقول:

ما ضرّ أنْ لم نكن أكفاءه شرفاً   وفي المودّة كافٍ من تكافينا

وهذا ما دعاه إلى مخاطبتها - أحياناً - كما يخاطب الملوك فراعى أصول الزينة اللفظية في مخاطبتها، فضلاً عن أنّ مذهب ابن زيدون في الشعر والنثر هو مذهب التزويق اللفظي، وهو أيضاً مذهب الأدباء الأندلسيين في عصر ملوك الطوائف.

المماثلة:

من الأساليب التي لجأ إليها ابن زيدون في هذه القصيدة، ما أطلق عليه النقاد المماثلة.

حيث تأتي كل كلمة في عجز البيت من وزن الكلمة المقابلة لها ونوعها وإعرابها في صدره كما في قوله:

فانحلّ ما كان معقوداً بأنفسنا وانبتّ ما كان موصولاً بأيدينا

وقد تكون الغاية من هذا الأسلوب الإتيان على التفاصيل، ولعلّه من أكثر الأساليب مناسبة لرصد التحوّلات، لأنّ التحوّلات لا يقف تأثيرها على أمر واحد، بل كلّ أمرٍ من الأمور التي أصابتها التحوّلات لا بدّ أن تتبعها تداعيات أخرى، كما في قوله:

إذْ جانبُ العيش طلْق من تألّفنا ومربعُ اللهو صافٍ من تصافينا

فالتغير لم يقتصر على ولّادة وابن زيدون بل أصاب العيش ومرابع اللهو أيضاً.

وقوله:

ولا استفدنا خليلاً عنك يشغلنا ولا اتخذنا بديلاً منك يسلينا

وقوله:

فما استعضنا خليلاً منك يحبسنا ولا استفدنا حبيباً عنك يثنينا

ولعلّ مما يفسّر انتشار هذا الأسلوب أنه يمثل حالة من التكرار الإيقاعي يتناسب مع الموجات الشعورية الحزينة المتكررة عند الشاعر.

التناصّ:

ورد في الذخيرة لابن بسّام« ويقول بعض أدبائنا إنّ ابن زيدون بحتريّ زماننا، وصدقوا لأنه حذا حذو الوليد»(9)

ولقّب صلاح الدين الصفدي ابن زيدون بلقب "بحتريّ الغرب" «لحسن ديباجة نظمه وسهولة معانيه»(9) كما أن الشاعرين يجريان في شعرهما على الطبْع، فبينما عرف البحتري بأنه زعيم مدرسة الطبع في الشعر العربي، فكذلك كان ابن زيدون مطبوعاً في شعره، وفي ذلك يقول ابن بسّام الشنتريني عن ابن زيدون «فأما سعة عذره، وتدفق طبعه، وغزارة بيانه، ورقة حاشية لسانه فالصبحُ الذي لا ينكر ولا يردّ، والرمل الذي لا يحصر ولا يُعَدّ»(10)، وهذا ما يفسر تلقائية ما وقع في قصيدته من زينة لفظية، إذ لم يأت ذلك من قبيل الصنعة بل من باب الطبع والتلقائية. لكنّ إضفاء اسم «بحتريّ الغرب» على ابن زيدون ليس مصدره في ظنّي هذا التشابه بينهما فقط، بل إنّ الباحث في شعر الشاعرين يستطيع أن يقف على بعض التناصّ، وقد وقع مثل هذا التناصّ في قصيدة ابن زيدون: (أضحى التنائي)

لقد سبق البحتريُّ ابنَ زيدون في قصيدتين تجريان على وزن قصيدة ابن زيدون وقافيتها، الأولى في رثاء الخليفة العبّاسي الموفّق (أبي أحمد طلحة بن المتوكل ت 278 هـ) ومدح خليفته أبي العبّاس المعتضد بن الموفق، ومطلعها:

نسعى وأيْسَرُ هذا السعي يكفينا لولا تكلُّفنا ما ليس يعنينا(11)

وأما الثانية فهي في مدح أبي الجيش خُمارَوَيْه بن أحمد بن طولون، نظمها سنة 281 هـ، ومطلعها:

يكادُ عاذلنا في الحبّ يغرينا فما لجاجُكَ في لوم المحبّينا(12)

والقارئ لقصيدتي البحتري هاتين ومقارنتهما بقصيدة ابن زيدون يستطيع الوقوف على بعض صور تأثر ابن زيدون بالبحتري، رغم اختلاف موضوع قصيدتي البحتري عن موضوع قصيدة ابن زيدون، لكنّ الذي لا مشاحّة فيه أنه لا يمكن أن يبلغ شاعرٌ ما بلغه ابن زيدون من مكانة في نظم الشعر والعمل في الكتابة والوزارة والسفارة لدى الملوك ما لم يكن قد بلغ شأواً كبيراً في مطالعة أشعار السابقين والمشاهير بصورة خاصة، ولا يمكن لابن زيدون أن يكون أغفل الاطلاع على تجربة شعرية فذّة تمثّل منارة في مسيرة الشعر العربي مثل تجربة البحتري، ولا بدّ له كذلك من أن يكون قد أحاط بعيون قصائد البحتري ومنها هاتان القصيدتان الرائعتان.

وما دام الأمر على هذا النحو، فليس غريباً أن نجد تشابهاً بين قصيدة ابن زيدون وقصيدتي البحتري، فبالإضافة الى التشابه في الوزن والقافية، فإننا نجد بين قصيدة ابن زيدون والقصيدة الأولى للبحتري عدداً من الألفاظ المشتركة، وعدداً من المعاني المشتركة وخاصة في موقف الشاعرين من الدهر، فالبحتري يقول:

نروضُ أنفسنا أقصى رياضتها على مواتاةِ دهر لا يواتينا

وابن زيدون يقول:

غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا بأنْ نغصَّ فقال الدهر: آمينا

فموقف الشاعرين من الدهر واحد، وموقف الدهر من الشاعرين في القصيدتين واحد أيضاً.

وتشابهت عددٌ من كلمات القوافي في القصيدتين مثل: (يكفينا) و (تقاضينا) و (دينا) و (فينا) و (أيدينا) و (ماشينا) على قلة عدد أبيات قصيدة البحتري المؤلفة من ستة عشر بيتاً مقارنة بقصيدة ابن زيدون الواقعة في اثنين وخمسين بيتاً، ممّا يعني أن قصيدة ابن

زيدون تشترك مع قصيدة البحتري في أكثر من ثلث كلمات قوافي قصيدة البحتري. وقد نلمح تأثر ابن زيدون بقول البحتري:

ولو نشاء شرعنا في تطوّله   شروعنا، فأخذنا منه ما شينا

حيث ورد في قصيدة ابن زيدون:

وإذ هصرنا فنون الوصل دانيةً   قطافها، فجنينا منه ما شينا

وربّما كان قول ابن زيدون:

لسنا نسمّيك إجلالاً وتكرمةً ...

متأثراً بقول البحتري:

أمُوجهي انتَ إيضاءً وتقدمةً ...

وكذلك قول ابن زيدون:

فهل ارى الدهر يقضينا مساعفةً   فيهِ، وإن لم يكن غباً تقاضينا

قد يكون متأثراً بقول البحتري:

فليتَ مُسْلِفَنا الأعمارَ أنْظرَنا   مجاملاً فتأنّى في تقاضينا

فالبيتان متشابهان في كثير من المعنى وفي كلمتي القافية.

أما قصيدة البحتري التي مطلعها:

يكاد عاذلنا في الحبّ يغرينا   فما لجاجُك في لومِ المحبّينا؟!

الواقعة في تسعة وثلاثين بيتاً، فإننا كذلك نلمح بعض أثرٍ لها في قصيدة ابن زيدون؛ فبالإضافة إلى الوزن والقافية نجد بين القصيدتين عدة ألفاظ مشتركة، واشتراكاً في كلمات القوافي مثل (يغرينا) و (يعنّينا) و (فينا) و (ليالينا) و (ماشينا) و (يكفينا) و (حينا) و (تزيينا)، وهي تقرب من ربع كلمات قوافي قصيدة البحتري.

وفي قول ابن زيدون:

حالت لفقدكم أيامنا فغدت   سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا

تشابه مع قول البحتري:

تجرّمت عنده ايّامنُا حججاً   معدودةً وخَلَتْ فيها ليالينا

وكذلك قول ابن زيدون:

إذا تـأوّد آدتـه رفــــــاهـيــــــــةَ ... تـومُ العــقــودِ وأدمــتــه البُــرى لينا

يشبه قول البحتري:

إذا قَـسَتْ غلظةً أكـبــادُها جَــعَلَتْ ... تـزداد أعطافُــهــا من نعــمــةٍ لينا

وكذلك قول البحتري:

نَيْلٌ يحكّم فــيــه المجــتــدون إذا ... شِئنا أخَذْنا احتكاماً فيه ما شينا

يشبه قول ابن زيدون:

وإذ هصــرنا فنون الوصل دانيــةً ... قطافــهــا، فــجنينا منه مــا شينا

كما أنّ قول ابن زيدون:

كــأنّمــا اثبــتت في صــحن وجنتــه ... زُهْـرُ الكـواكب تعــويذاً وتـزيـينـا

يشبه قول البحتري: اما الحسين فما آلاك مجتهداً ... وليس تألوه تفخيماً وتزيينا

أما قول ابن زيدون:

أو صــاغــه وَرِقــاً مــحـضــاً وتوجّــه ... من ناصــر التـبـر إبداعــاً وتحـسـينا

فيشبه قول البحتري:

عــمّــرك اللّه للعليــاء تعــمــرها ... وزادك اللــه إعــــزازاً وتمـكـيـنـا

ولو تتبّعنا أوجه التشابه بين قصيدة ابن زيدون وقصيدتي البحتري لربما وقفنا على مزيد من هذه الأوجه.

ولم يقتصر تأثر ابن زيدون في هذه القصيدة بقصيدتي البحتري، بل يستطيع الباحث أن يقف على صور من التشابه بين بعض معاني القصيدة ومعانٍ وقعت لشعراء سابقين، وخاصة شعراء العشق مثل مجنون ليلى وجميل بثينة وكثير عزّة وغيرهم.

ومن أمثلة ذلك قول ابن زيدون:

وقد نكون وما يخشى تفرّقنا ... فاليوم نحن وما يرجى تلاقينا

فإنه يشبه قول مجنون ليلى:

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما ... يظنان كلّ الظنّ ان لا تلاقيا(13)

وقوله:

لم نعتقد بعدكم إلاّ الوفاء لكم رأياً ولم نتقلّد غيره دينا

يشبه قول جميل بثينة:

وقلتُ لها بيْني وبَيْنَكِ فاعلمي من الله ميثاقٌ لنا وعهودُ[14]

وقوله:

ما حقُّنا ان تقرّوا عين ذي حَسَدٍ بنا ولا أن تسرّوا كاشحاً فينا

يشبه قول جميل بثينة:

وصدّقت بيَ اقوالاً تقوّلها واشٍ وما أنا للواشي بمطواع[15]

ويشبه قول جميل بثينة أيضاً:

وانّي لأرضى من بثينة بالذي لو ادركه الواشي لقرّت بلابله[16]

وقول ابن زيدون:

حالت لفقدكم ايّامنا فغدت سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا

يشبه في بعض معانيه قول المتنبي:

يا مَنْ يعزّ علينا ان نفارقهم وجداننا كلّ شيءٍ بعدكم عَدَمُ[17]

وقوله:

ليُسْقَ عهدكم عهد السرور فما كنتم لأرواحنا إلاّ رياحينا

متأثرٌ بقوله تعالى ﴿فَرَوْحٌ ورَيْحانٌ وجنّةُ نعيم﴾ (الواقعة 89).

وقول ابن زيدون :

وإذْ هصرنا فنون الوصلِ دانيةً قطافُها، فجنيْنا منه ما شينا

متأثر بقوله تعالى: ﴿في جنّة عالية. قطوفُها دانية. كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفْتم في الأيّام الخالية﴾ (الحاقة 22-24).

وقول ابن زيدون:

لا تحسبوا نايكم عنّا يغيّرنا إنْ طالما غيّر النّأيُ المحبينا

يشبه قول زهير بن أبي سلمى في مدح هرم بن سنان:

وكلُّ محبٍّ احدثَ النايُ لُبَّهُ سُلُوّ فؤادٍ غير لبّكَ ما يسلو[18]

وقوله:

يا ساريَ البرْقِ غادِ القَصْرَ واسقِ به ... من كان صرفَ الهوى والودّ يسقينا

ويا نسيم الصبا بلّغ تحيّتنا ... من لو على البعد حيّا كان يحيينا

يشبه قول العبّاس بن الأحنف:

فسائلها حمْلَ السلام إليكم ... فإنْ هي يوماً بلّغَتْ فأجيبي

وانّي لأستهدي الرياح سلامكم ... إذا اقبلت من نحوكم بهبوب[19]

وقوله:

ربيبُ مُلْكٍ كأنّ الله انشاه ... مسكاً وقدّرَ إنشاء الورى طينا

مستمدٌّ من قوله تعالى ﴿ولقد خلقناكم ثم صوّرناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليسَ لم يكن من الساجدين. قال ما منعك ألاّ تسْجُدَ إذْ أمَرْتُكَ قال أنا خيرٌ مِنْهُ خلقتني من نّارٍ وخلقْتَهُ من طين﴾ (الأعراف 11-12). ومتأثّر كذلك بقول عبّاس بن الأحنف:

لم يخلق اللهُ في الدنيا لها شبهاً ... إني لأحسبُها لَيْست من البَشَرِ[20]

وقوله:

إن كان قد عزّ في الدنيا اللقاء ففي ... مواقف الحشر نلقاكم ويكفينا

يشبه قول عروة بن حزام:

وإني كما قد يزعم الناسُ بيننا ... وعفراء يومَ الحشرِ ملتقيان

وفي رواية أخرى للبيت:

وإني لأهوى الحشر إذ قيل إنني ... وعفراء يومَ الحشرِ ملتقيان

وقول مجنون ليلى:

خليليّ إن ضنّوا بليلى فقرّبا ... لي النعشَ والأكفانَ واستغفرا ليا[21]

وأما قوله:

كأننا لم نبت والوصل ثالثنا ... والسعدُ قد غضّ من أجفان واشينا

سرّان في خاطر الظلماء يكتمنا ... حتّى يكاد لسانُ الصبح يفشينا

فيرى ابن بسّام أنه مما زاد فيه لمليح الاستعارة على قول أبي الطيب:

ازورهم وسوادُ الليل يشفع لي وانثني وبياضُ الصُبح يغري بي[22]

وأمّا قوله:

أمّا هواك فلم نعدل بمنهله شرْباً وإن كان يروينا فيظمينا

فيرى ابن بسّام أنه معنى متداول، ومن أشهره قول ابن الرومي[23]:

ريقٌ إذا ما ازددْتُ من شربه ريّاً ثناني الريّ ظمآناً

كالخمر أروى ما يكون الفتى من شربها أعطش ما كانا

وقوله:

لا اكؤس الراح تبدي من شمائلنا سيما ارتياحٍ، ولا الأوتار تلهينا

يشبه قول المتنبي:

أصخرةٌ أنا؟ ما لي لا تغيّرني هذي المدامُ ولا هذي الأغاريد[24]

وقوله:

دومي على العهد ما دمنا محافظةً فالحرُّ مَنْ دانَ إنصافاً كما دينا

مأخوذٌ في بعض معانيه من المثل العربي: «كما تدين تُدان» والمثل العربي «وعدُ الكريم ألزم من دَيْن الغريم»[26].

وأمّا قوله في آخر بيتٍ من القصيدة:

عليك منّا سلامُ الله ما بقِيَتْ صبابةٌ بك نُخفيها فتُخفينا

فهو يشبه قول مجنون ليلى:

عليكِ سلامُ الله منّي تحيّةً إلى أن تغيب الشمسُ من حيثُ تطلعُ[27]

وقول جميل بثينة:

عليها سلامُ الله من ذي صبابةٍ وصبٍّ معنىً بالوساوس والفكر[28]

إنّ هذا التناصّ والتقاطع مع نصوص التراث العربي السابقة من أمثالٍ وأشعار ومع القرآن الكريم ليس وقفاً على ابن زيدون دون غيره من كبار الشعراء، بل نجدُ هذه السمة ماثلة عند الشعراء كافّة، عن قصد أحياناً وعن غير قصد في أحيان كثيرة، غير أنّ سعة ثقافة ابن زيدون واطّلاعه وتشعّب معرفته قد تجلّت في كثير من نصوصه النثرية والشعرية كالذي نجده في رسالتيه الجدّية والهزليّة على وجه الخصوص. ولذلك وصف أبو مروان ابن حيّان أبا الوليد ابن زيدون بقوة العارضة والافتنان في المعرفة[29].

براعة التصوير:

لعلّ من أسباب خلود قصيدة ابن زيدون قدرة الشاعر الفائقة على التصوير البارع الذي استطاع عن طريقه التأثير في القارئ وتمكينه من تمثّل تجربة ابن زيدون بشقيها أيام الوصال وأيام الهجر. وقد جعل ابن زيدون معظم صوره نابضة بالحياة وحافلة بالحركة، معتمداً على ألوانٍ شتّى من الأدوات البيانية من تشبيهات واستعارات وتشخيص وتلوين وكنايات وسواها.

وقد سلّط الشاعر الأضواء على ثلاثة جوانب رئيسية تشكّل العمود الفقري لقصيدته وهي: ولاّدة بنت المستكفي، وأيام الوصال التي جمعت بين الشاعر ومحبوبته وحسّادهما، وصورة ابن زيدون وحده بعد القطيعة والهجران. واستطاع الشاعر أن يبرز ملامح كلّ عنصر من هذه العناصر على نحو من الدّقة والبراعة مظهراً تمايزاً واضحاً بين هذه المصوّرات يخدم القضيّة التي تدور فيها هذه القصيدة. وعلى الرغم من وضوح هذا التمايز إلاّ أن ابن زيدون حافظ على العلاقة بين هذه الصور الثلاث الرئيسية؛ فصورة ولاّدة بألقها ورقّتها وجمالها وتميّزها عن سائر الناس هي السبب في اندفاع ابن زيدون نحوها لتتشكل صورة الوصال الذي جمع بينه وبينها واستقطب الأعداء والحسّاد، وصورة هذا الوصال بما فيه من روعة وبهاء وسعادة هي التي أدّت بعد فقدانها إلى تشكّل صورة ابن زيدون وهو منطوٍ على نفسه حزيناً باكياً يائساً متوسّلاً.

أمّا التمايز بين هذه الصور الثلاث فهم منبثقٌ من خصوصيّة كلّ صورة؛ فصورةُ ولاّدة ملوّنة وفيها قدْرٌ كبير من السكون، فولاّدة بيضاء بياضَ الفضّة الخالصة وشعرها أشقر كالتبر وقليلة الحركة بسبب رفاهيتها ونعومتها.

وأمّا صورة الوصال فتعجّ بالحركة والضوضاء وكثرة الشخوص حيناً وقلّتها حيناً آخر. وأمّا صورة ابن زيدون ففيها سكونٌ يصل حدّ الموت، وانحسار للألوان لتقتصر على اللونين الأبيض والأسود مع غلبة اللون الأسود بسبب حزنه وتشاؤمه ويأسه وتحوّل أيامه إلى أيام سوداء. وممّا يزيد من سكونيّة صورة ابن زيدون في هذه القصيدة عدم تحرّكه باتجاه أيّ حبيبةٍ أخرى أو أي امرأة:

لا تحسبوا نأيكم عنّا يغيّرنا — إن طالما غيّرَ النأيُ المحبّينا
واللّه ما طلبت اهواؤنا بدلاً — منكم ولا انصرفت عنكم امانينا
ولا استفدنا خليلاً عنكِ يشغلنا — ولا اتّخذنا بديلاً مِنْكِ يُسْلينا

...

فما استعضنا خليلاً منك يحبسنا ولا استفدنا حبيباً عنك يثنينا

ولو صبا نحونا من علْو مطلعه بدرُ الدجى لم يكن حاشاك يصبينا

وعدم استجابته لتأثير الخمر والموسيقى والغناء:

ناسى عليك إذا حُثُتْ مشعشعةً فينا الشَّمولُ وغنَّانا مغنّينا

لا اكؤسُ الراحِ تبدي من شمائلنا سيما ارتياحٍ ولا الأوتار تلهينا

وقد أجاد ابن زيدون في استخدام أدوات التصوير المختلفة لتقديم هذه الصور الثلاث على النحو الذي يريد، فأكثر من التشبيهات بأنواعها:

يا جنّة الخُلْدِ أُبْدلنا بسدرتها والكوثر العذب زقّوماً وغسلينا

والتشبيهات في هذا البيت مستمدّة من القرآن الكريم، فقد شبّه ولاّدة في هذا البيت بجنّة الخُلْد بسدرتها وكوثرها العذب وشبّه حياته بعدها بالجحيم كما أكثر من الاستعارات في نحو قوله:

غِيظَ العدا من تساقينا الهوى فدعوا بأنْ نغصَّ فقال الدهر: آمينا

وهذا البيت يلخص قصّة ابن زيدون مع ولاّدة من خلال عرض مشاهد متلاحقة، وقدرة فائقة على التكثيف وبراعة في استخدام الاستعارات، فقد شبّه تبادل الهوى مع ولاّدة بتبادل كؤوس الشرب، وشبّه الدهر بإنسان يؤمّن على دعاء الأعداء على المحبوبين. والمتأمّل للشخوص وحركتهم في هذا البيت يجد نفسه أمام مشهد تمثيلي متكامل فيه ثلاث مجموعات من الشخوص تؤدي كلّ مجموعة منها دوراً خاصّاً بها: المجموعة الأولى: ولاّدة وابن زيدون، وهما يتبادلان كؤوس الهوى ويتناجيان وتظهر عليهما أمارات السعادة والهناء. والمجموعة الثانية: الحسّاد والأعداء وهم يقومون بمراقبة ابن زيدون وولاّدة ويتغامزون عليهما ويظهر على وجوههم وحركاتهم الغيظ والكمد فيرفعون أيديهم بالدعاء بأن يصاب العاشقان بغصّة في شربهما كؤوس الهوى. والمجموعة الثالثة: صورة الدهر، وحوله الأعداء، وهو يؤمّن على دعائهم، ويتحقق دعاؤهم ويصاب العاشقان بالغصّة. وفي الصورة مشهدٌ يخالف المشاهد المعهودة، فمن عادة الذين يتوجهون إلى الله تعالى بالدعاء، أن يقوم الإمام بالدعاء ويردّ عليه المصلّون بالتأمين، لكنّ المشهد في هذا البيت مقلوب، إذ يقوم الناس بالدعاء ويقوم الدهر بالتأمين. وفي البيت تشخيص للدهر والهوى.

ومن الاستعارات البديعة في هذه القصيدة قول ابن زيدون:

كـأنّنـا لـم نـبـت والوصـلُ ثـالـثـنـا　　　والسـعـدُ قـد غضّ من أجـفـان واشـينـا

سـرّان في خـاطر الظلمـاء يكتـمنـا　　　حـتى يكادَ لسـانُ الصـبح يـفـشـينـا

ففي البيتين عدّة استعارات مكنيّة، فالوَصْلُ يشارك ابن زيدون وولاّدة سهرهما، والسعْدُ يأمر الواشين وينهاهم ويغضّ من جفونهم، ولليل خاطرٌ يكتم الأسرار، وللصبح لسانٌ يفشيها. وقد تضافرت في هذين البيتين ألوانٌ من التزويق البديعي والبياني، فإلى جانب الاستعارات الكثيرة نجد الطباق بين الخاطر واللسان وبين الظلماء والصبح وبين يكتمنا ويفشينا.

وقد استلهم ابن زيدون في صوره الطبيعة الأندلسية:

يـا روضـةً طالما اجـنـت لـواحـظـنـا　　　ورداً جـلاه الصِّـبـا غـضّـاً ونسـرينـا

... وإذْ هصـرْنـا فنونَ الوصـل دانيـةً　　　قطافـهـا فـجـنـينـا منه مـا شـيـنـا

كما استلهم البيئة الاجتماعية الأندلسية في وصف القصور وصور الترف والنعيم واستعمال الذهب والفضّة ووصف مجالس الخمر والموسيقى والغناء.

ومن أدوات التصوير عند ابن زيدون الكنايات، فمنها قوله:

حالت لفقدكم أيامنا فغدت　　　سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا

فالأيام السود كناية عن الشقاء، والليالي البيض كناية عن الهناء والسرور والسعادة.

الحواشي والتعليقات

(1) وردت القصيدة في ديوان ابن زيدون 167-173، والذخيرة لابن بسّام ق1 م1 ص360-362، وقلائد العقيان 1-245/2-248، والمعجب 156-161، والمطرب 164، والوافي بالوفيات 7/90-92.

(2) الذخيرة ق1 م1 ص362

(3) تمام المتون 13

(4) قلائد العقيان 245/1 ، المطرب 164

(5) المعجب 156

(6) تمام المتون 12-13

(7) انظر القصيدة في الذخيرة ق1 م1 ص362-363

(8) انظر: معارضات قصائد ابن زيدون، الدكتور عدنان محمد غزال، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، 2004، ص33-265

(9)الذخيرة ق1 م1 ص 379 الوافي بالوفيات 91/7، نفح الطيب 566/3

(10) الذخيرة ق1 م1 ص339

(11) ديوان البحتري 2187/4-2189

(12) نفسه 2200/4-2206

(13) ديوان مجنون ليلى 203

(14) ديوان جميل بثينة 26

(15) نفسه 46

(16) نفسه 61

(17) ديوان أبي الطيب المتنبي 370/3

(18) ديوان زهير بن أبي سلمى 84

(19) ديوان العباس بن الأحنف 22

(20) نفسه 166

(21) ديوان مجنون ليلى 208

(22) ديوان أبي الطيب المتنبي 161/1 ، الذخيرة ق1 م1 ص363-364

(23) الذخيرة ق1 م1 ص363

(24) ديوان أبي الطيب المتنبي 40/2

(25) مجمع الأمثال للميداني 155/2

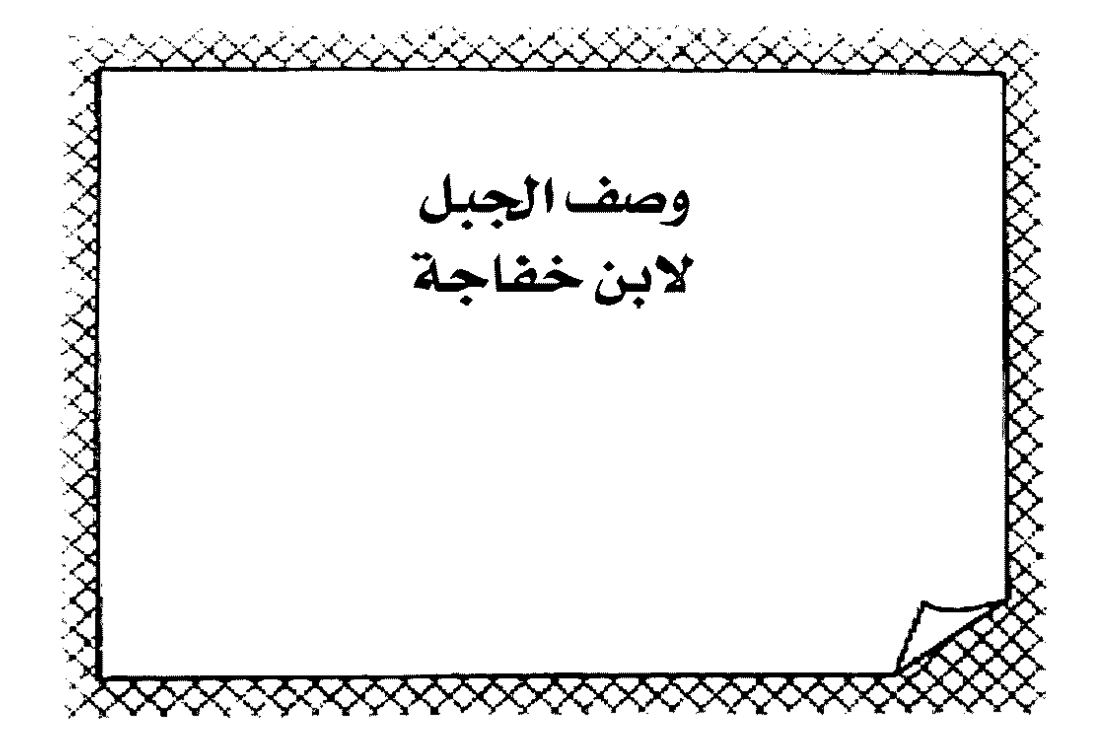
(26) نفسه 382/2

(27) ديوان مجنون ليلى، ص129

(28) ديوان جميل بثينة 41

(29) الذخيرة ق1 م1 ص337

الفصل الثالث



وصف الجبل
لابن خفاجة

وصف الجبل

لابن خفاجة (1)

بِعَيْشِكَ هَلْ تَدْرِي اهُوجُ الْجَنَائِبِ ... تخبُ بِرَحْلي امْ ظُهُورُ النَّجَائِبِ

فَمَا لُحْتُ في أُوْلى الْمَشَارِقِ كَوْكَباً ... فَأشْرَقْتُ حَتّى جِبْتُ أُخْرَىٰ الْمَغَارِبِ

وَحِيداً تَهَاداني الْفَيَافي فَأجْتَلي ... وُجُوهَ الْمنَايَا في قِنَاعِ الْغَيَاهِبِ

وَلاَ جَارَ إلاّ مِنْ حُسَامٍ مُصَمَّمٍ ... وَلاَ دَارَ إلاَّ فِيْ قُتُودِ الرَّكَائِبِ

ولا أُنْسَ إلاَّ أنْ أُضَاحِكَ سَاعَةً ... ثُغُورَ الأمَانِي فِي وُجُوهِ الْمَطَالِبِ

بِلَيْلٍ إذَا مَا قُلْتُ قَدْ بَادَ فَانْقَضَىْ ... تَكَشَّفَ عَنْ وَعْدٍ مِنَ الْظَّنِّ كَاذِبِ

سَحَبْتُ الدَّيَاجِي فِيهِ سُودَ ذَوائِبٍ ... لأعْتَنِقَ الآمَالَ بِيضَ تَرَائِبِ

فَمَزَّقْتُ جَيبَ اللَّيلِ عَنْ شَخْصِ اطلَسٍ ... تَطَلَّعَ وضَّاحَ المَضَاحِكِ قَاطِبِ

رَأيْتُ بِهِ قِطْعاً مِنَ الْفَجْرِ أغْبَشَاً ... تَأمَّلَ عَنْ نَجْمٍ تَوقَّدَ ثَاقِبِ

وَأَرْعَنَ طَمَّاحِ الذُّؤَابَةِ بَاذخٍ ... يُطَاوِلُ أعْنَانَ السَّمَاءِ بِغَارِبِ

يَسُدُّ مَهبَّ الرِّيحِ عنْ كلِّ وِجْهَةٍ ... وَيزْحَمُ لَيْلاً شُهْبَهُ بالمناكِبِ

وَقُورٍ على ظَهْرِ الْفَلاةِ كَأنَّهُ ... طِوالَ اللَّيالي مُطْرِقٌ فِي العَواقِبِ

يَلُوثُ عَلَيْهِ الْغَيْمُ سُودَ عَمَائِمٍ ... لَهَا مِنْ وَمِيضِ البَرْقِ حُمْرُ ذَوائِبِ

اصَخْتُ إليهِ وَهوَ أخْرسُ صَامِتٌ ... فَحدَّثني لَيلَ السُّرَى بالعجائِبِ

وقَالَ: ألاَ كَمْ كُنتُ مَلجأَ فَاتِكٍ ... ومَوْطِنَ اوّاهٍ تَبَتَّلَ تَائِبِ

وكمْ مَرَّ بِي مِنْ مُدلِجٍ وَمُؤَوِّبٍ ... وقَالَ بِظِلِّي مِنْ مَطِيٍّ وراكِبِ

ولاطمَ مِنْ نُكْبِ الرِّيَاحِ مَعَاطِفي ... وَزَاحمَ مِنْ خُضْرِ البِحَارِ جَوَانِبي

فَما كَانَ إلاّ أنْ طَوتْهُمْ يدُ الرّدَى ... وطَارَتْ بِهِمْ رِيحُ النَّوى والنَّوائِبِ

فَما خَفْقُ أيكِي غَيْرَ رَجْفَةِ اضْلُعٍ ... ولا نَوْحُ وُرْقي غَيْرَ صَرْخَةِ نَادِبِ

ومَا غَيَّضَ السُّلْوانُ دَمْعي وإنّما ... نَزَفْتُ دُمُوعي في فِراقِ الأصَاحِبِ

فحتّى متى أبْقى ويظْعَنُ صَاحِبٌ ... أُوَدِّعُ مِنْهُ رَاحِلاً غَيْرَ آيبِ؟!

وحتّى متَى أرْعى الكَواكِبَ سَاهِراً ... فَمِنْ طَالِعٍ أُخْرى اللّيالي وغَارِبِ؟!

فَرُحْماكَ يَا مولايَ دَعْوةَ ضَارعٍ يَمُدُّ إلى نُعماكَ راحةَ رَاغِبِ
فاسْمَعني منْ وعْظِهِ كلَّ عِبْرةٍ يُتَرْجِمها عنهُ لِسانُ التّجارِبِ
فسلّى بِما أبْكى وسرّى بِما شَجا وكَانَ على لَيْلِ السُّرَى خَيْرَ صَاحِبِ
وقُلتُ وقدْ نكَبْتُ عنهُ لطيّةٍ: سَلامٌ فَإنّا مِنْ مُقيمٍ وذَاهِبِ

قصيدة الجبل
لابن خفاجة

مقدّمة

عُرف الأندلسيون بشغفهم في وصف الطبيعة، وذلك لجمال طبيعة الأندلس، حتى إننا لا نكاد نجد شاعراً من الأندلسيين إلاّ وله مشاركة قلّت أو كثرت في هذا الغرض، حتى إنّهم ألّفوا كتباً في ذلك مثل كتاب البديع في وصف الربيع لأبي الوليد الحميري، وكاد بعض الشعراء أن يقصر شعره على وصف الطبيعة، كما فعل ابن خفاجة، أبو اسحق إبراهيم بن أبي الفتح (450-533 هـ) الذي عرف بصنوبريّ الأندلس وجنّان الأندلس، لأنه خصّص معظم شعره لوصف الطبيعة الأندلسية: أنهارها وأزهارها وأشجارها وطيورها ومتنزهاتها ورياضها وجبالها ونجومها وسمائها. وهو القائل في أهل الأندلس:

يا اهل اندلس لله درّكم ... ماءٌ وظلٌ وانهارٌ واشجارُ
ما جنّةُ الخُلْدِ إلاّ في دياركم ... ولو تخيّرتُ هذي كنت اختارُ
لا تحسبوا بعدها ان تدخلوا سقرا ... فليس تُدْخَلُ بعد الجنّةِ النارُ

والقائل أيضاً في الحنين إلى الأندلس:

إنّ للجنّةِ بالأندلس ... مجتلى حُسنٍ وريّا نَفَسِ
فَسنا صبحتها من شنَبٍ ... ودُجى ليلتها من لعَسِ
وإذا ما هبّت الريح صباً ... صحتُ واشوقي إلى الأندلس

وقد ولد ابن خفاجة ونشأ وتوفي في جزيرة شُقْر من أعمال بلنسية، وهي جزيرة نهرية مشهورةٌ بجمالها الأخّاذ. وقد كان ابن خفاجة موسراً ولم يتزوج وتعلّق ببلده ولم يخرج منها إلاّ مرّات قليلة وكان سرعان ما يعود إليها، ومع أنه عاش أوّل أمره في زمن ملوك الطوائف إلاّ أنه لم يمدحهم، وفي ذلك يقول ابن بسّام: «ولا أعرفه تعرّض للملوك الطوائف بوقتنا، على أنه نشأ في أيّامهم، ونظر إلى تهافتهم في الأدب وازدحامهم»[2].

وكان ابن خفاجة في شبابه مقبلاً على اللهو والمجون، ولمّا تقدّمت به السنّ أقلع عن ذلك وارعوى، وفي ذلك يقول الفتح بن خاقان: «وكان في شبيبته مخلوع الرسن، في ميدان مجونه»[3].

ثم يسوق الفتح بن خاقان بعض الأسباب التي دعت ابن خفاجة للتوبة قائلاً:

«أخبرني أنه لمّا أقلع عن صبوته، وطلع ثنية سلوتِهِ، والكهولة قد حنّكتْهُ وأسلكته من الارعواء حيث أسلكته، نام فرأى أنه مستيقظ، وجعل يفكر بما مرّ من شبابه، وفيمن ذهب من أحبابه، ويبكي على أيام لهوه، وأوان غفلته وسهوه، ويتوجّع لسالف ذلك الزمان، ويُتبع الذكر دمعاً كواهي الجمان، ثم استيقظ وهو يقول:

الا ساجلْ دموعي يا غمامُ | وطارِحْني بشجوك يا حمامُ
فقد وفّيتُها ستّين حَولاً | ونادتْني ورائي: هل أمامُ؟
وكنتُ ومن لُباناتي لُبينى | هناك ومن مراضعيَ المُدام
يطالعنا الصباحُ ببطنِ حُزْوى | فيعرفنا وينكرنا الظلامُ
وكان به البشامُ مراحَ أُنْسٍ | فماذا بعدنا فَعل البشامُ؟
فيا شرخَ الشباب الا لقاءٌ | يُبَلُّ به على برحٍ أُوامُ
ويا ظلَّ الشبابِ وكنت تَنْدى | على افياءِ سرحتك السلام[4]

وتحدثت المصادر عن مقتل صديقه الشاعر عبد الجليل بن وهبون بين لورقة والمريّة على يد العدو أمام ناظريه[5].

ولابن خفاجة ديوان شعر مطبوع[6].

بناء القصيدة

تتألف قصيدة الجبل لابن خفاجة من مجموعة من الأقسام المترابطة ترابطاً سردياً، حيث ينزع فيها الشاعر نزعة القاصّ، فيبدأ القصيدة بمطلع ينبئ عن انشغاله بقضية مركزية تؤرقه، حين يجعل مطلع القصيدة على صورة تساؤل:

بعيشك هل تدري أهوج الجنائب | تخبّ برحلي أم ظهورُ النجائب؟!

وابنُ خفاجة في هذا المطلع ينحو منحى الشعراء القدامى الذين يضمنون مقدمات قصائدهم إشارات خفية الى القضايا التي شدّوا من أجلها الرحال. وقضية ابن خفاجة هي سؤال الموت والحياة، لكنّه لا يشير إليه في مطلع القصيدة بصورة صريحة بل بصورة مواربة، فعندما يقسم بالعيش فهو يدرك أن المرء يقسم عادة بأعزّ ما لديه، فعندما بدأ المطلع - وبالتالي القصيدة - بكلمة (بعيشك)، فكأنما يريد القول إن سؤاله المركزي في القصيدة يدور حول موضوع الحياة والموت. وعندما يتساءل اذا كانت الرياح الجنوبية

الهوجاء أو ظهور الإبل النجيبة الأصيلة هي التي تسيّر رحله، فإنه لا يمكن أن يقصد هذين الاختيارين بعينيهما وإنما يرمز بهما الى أمور أخرى، فإذا كانت الرياح الجنوبية عاتية إلى درجة أنها هي التي توجه سير الراحلة، فإن ذلك يعني أن لا خيار للشاعر في اختيار وجهة رحلته، وإذا كانت الإبل النجيبة الأصيلة العتيقة هي التي تحدد وجهة سيرها، فإنّ ذلك يعني أن للشاعر قراره وخياره في وجهة سير الرحلة لأن الإبل النجيبة لا تعصي أمر راكبها. وعلى ذلك فإن سؤال ابن خفاجة في هذا المطلع يدور حول إن كانت وجهة سير رحلته تجري باختياره هو أو رغماً عنه، وبمعنى آخر فإنه يتساءل إن كانت رحلة حياة المرء تجرى وفق هواه وإرادته واختياره أم أنه مسيّر فيها، وهو بذلك يطرح على نفسه سؤال الجبر والاختيار وهل الإنسان مُسَيَّر أم مخيّر في هذه الحياة، ومما يؤكد أنه يقصد سؤال الحياة أنه بدأ بالقسم بالعيش.

ولئن كانت الأجواء التي افتعلتها الشاعر في هذا المطلع هي أجواء القصيدة الجاهلية (هوج الجنائب، وظهور النجائب، والرحل، والخبب وهو نوع من مشي الإبل)، فإنه عمد إلى كسر الوهم لدى القارئ بجاهلية النصّ، باستخدامه للصنعة البديعية في كلمتيْ الجنائب والنجائب.

ويمضي ابن خفاجة بعد هذا المطلع (المقدمة) ليصف لنا الرحلة على نحو ما يفعل الشاعر الجاهلي محافظاً في وصفه على مستويين دلاليين: المستوى الخارجي الظاهري (الذي يتوهم القارئ من خلاله أن الشاعر يصف رحلة حقيقية عبر الصحراء في ظلمات الليل)، والمستوى الداخلي الرمزي (الذي يرمي به الشاعر الى مقاصد رمزية خاصة به تقوم على وصف رحلة الإنسان من الميلاد الى الموت)، ولذلك تأتي وظيفة التناصّ مع تقاليد القصيدة الجاهلية وظيفة تمويهية ذكية، لكن ابن خفاجة لا يكاد يخطو خطوة في قصيدته إلاّ ويترك لقارئ القصيدة بعض المفاتيح كي يستعين بها على فهم المقاصد الحقيقية للشاعر، فابن خفاجة في غنى عن محاكاة قصيدة جاهلية لأجل المحاكاة فقط، إذ إن تجربته الشعرية تجاوزت المحاكاة إلى الإبداع والتميز، وما استفادتُهُ من شعر السابقين إلاّ لوظيفة إبداعية.

ويبدأ ابن خفاجة في وصف رحلته ببيت يوهم فيه القارئ أنّه يتحدث عن رحلة له بدأها من المشرق وجاب بها أقاصي المغرب، وهو قوله:

فما لحتُ في اولى المشارق كوكباً — فاشرقت حتى جبتُ اخرى المغارب

لكنّ المتأمل للبيت يجد فيه مفاتيح توحي بغير المعنى الظاهر، فقوله (فما لحت في أولى المشارق) يوحي منطقياً بأن هناك (أخرى المشارق)، والمشرقان اللذان قصدهما هما: المشرق العربي، الذي ينتمي اليه كلّ عرب الأندلس، ومشرق الأندلس (وهو بلنسية التي منها جزيرة شقر مسقط رأس الشاعر)، وبما أنّ ابن خفاجة كان شديد التعلّق بجزيرة شقر حتى إنه شبهها بالجنة، فمعنى ذلك أن أولى المشارق عنده هي جزيرة شقر التي ولد ونشأ بها. وأما عبارة (أخرى المغارب) فإنها توحي كذلك بأنّ هناك أولى المغارب، وأولى المغارب هي المغرب العربي الذي كان يحكمه المرابطون وهم أصدقاء ابن خفاجة لأنهم أنقذوا بلنسية من الاحتلال الإسباني سنة495 هـ، أما أخرى المغارب فهي نهاية العمر، وعلى ذلك ما قصده ابن خفاجة بالرحلة من أولى المشارق إلى أخرى المغارب هي رحلة الحياة منذ ولادته في جزيرة شقر إلى مشارفته نهاية العمر. وفي قوله في هذا البيت إنه لاح في أولى المشارق كوكباً وأشرق.. إنما يشير إلى الشهرة التي حققها في مجال الشعر والإبداع والمكانة الاجتماعية، فكأنه يقول إنه ما كاد يلمع نجمه في مسقط رأسه حتى داهمته الشيخوخة التي تؤذن بدنوّ الأجل.

وكان من عادة الشاعر الجاهلي أن يتحدّث عمّا يصادفه من مخاطر ومصاعب وأهوال في رحلته إلى ممدوحه، ملمحاً إلى أنه لولا القدر العظيم للممدوح لما تجشّم الشاعر هذه المخاطر، ومتأملاً في الوقت ذاته أن يقدّر الممدوح له هذه المخاطرة وأن يجزل له الرفد والعطاء ولا يردّه خائباً، لكنّ ابن خفاجة في وصفه لرحلته لم يقصد شيئاً من ذلك، لأنه كان أصلاً ميسور الحال ولم يكن متكسّباً، ولأنه لم لم يكن يصف سوى رحلة الحياة، وما المصاعب التي أشار إليها إلاّ مصاعب الحياة نفسها، ففي قوله:

وحيداً تهاداني الفيافي فأجتلي وجوه المنايا في قناع الغياهب

كثّف ابن خفاجة معظم مصاعب الرحلة ومخاطرها، فالبقاع المقفرة تتهاداه وتسلمه كلّ واحدة منها إلى الأخرى، فيخيّل له في كل مرّة ضروب من الموت مخبأة له في علم الغيب. وفي هذا البيت ما ينطبق تماماً على رحلة الحياة، فهو يرمز بالفيافي التي تتهاداه إلى مراحل العمر من الطفولة إلى الصبا إلى الشباب إلى الكهولة إلى الشيخوخة، ويرمز بوجوه المنايا إلى أسباب الموت التي قد تصيب المرء في أي مرحلة من هذه المراحل، وأنّ ذلك كلّه مخبوء في علم الغيب. ويستشفّ من هذا البيت شدّة الخوف الذي كان يعاني منه ابن خفاجة من الموت.

ومن مصاعب الرحلة التي قام بها ابن خفاجة عدم وجود الرفيق وعدم توافر المأوى وعدم وجود الأنيس:

ولا جارَ إلاّ من حُسام مصمّم ... ولا دار إلاّ في قتود الركائبِ

ولا أُنسَ إلاّ ان اضاحك ساعةً ... ثغور الأماني في وجوه المطالب

فظاهر البيتين - كما هو في جميع أبيات وصف الرحلة - أنهما يصفان المصاعب التي يواجهها الشاعر الجاهلي في رحلته، وفيهما ما ينطبق تماماً على الشعراء الجاهليين من حيث المعاني والصور والمفردات، إذ كثيراً ما كان يشكو الشاعر الجاهليّ من وحدته في السفر وأنه ليس له رفيق إلاّ سيفه، وأنه لطول أسفاره كأنه مقيم على ظهر دابّته، وأنه لا يؤنسه في رحلته ولا يخفّف من قسوتها ومخاطرها إلاّ الأمل بتحقيق الغايات منها لدى الممدوح. لكنّ ابن خفاجة لم يقصد هذا المعنى الظاهر، بل قصد المعاني المتصلة برحلته عبر الحياة، فقوله (ولا جارَ) (ولا أنس) وقبل ذلك (وحيداً) هو وصف حقيقي لحالته الاجتماعية حيث إنّه لم يتزوج ولم ينجب، وأمّا سلاحه (الحسام المصمّم) فهو لسانه وقلمه وشعره وإبداعه. وأما قوله (ولا دار إلاّ في قتود الركائب) فهو تعبير رمزي عن رحلة دائمة فكأنه مقيم في قتود الركائب، أي على ظهر الراحلة، وبطبيعة الحال لا يمكن أن يشكو ابن خفاجة العوز والافتقار إلى مأوى فقد كان ميسور الحال غنيّاً حتى إنه لم يكن يحتاج الى التكسب ومدح الأمراء أبداً، إلاّ من أحبّهم كالمرابطين.

وقوله: **ولا انس إلاّ ان اضاحك ساعةً ... ثغور الأماني في وجوه المطالب**

فإنه يقصد بذلك أنه لا شيء يؤنسه في هذه الرحلة السريعة سوى الأمل بتحقيق مطالبه، وما مطالبه في هذه الحال سوى رضا الله تعالى وقبول التوبة والمغفرة ونيْلِ الجنة.

ومما يشكو منه الشاعر الجاهلي في رحلة في العادة، وشكا منه ابن خفاجة في هذه القصيدة، تطاول الليل، فالليل عند الشاعر الجاهلي هو مصدر قلق للشاعر المرتحل لأنّه قد يضلّ طريقه أو قد تداهمه وحوش الصحراء أو غير ذلك، أما ابن خفاجة فإنه لا يشكو من ليلٍ حقيقي، إذ الليل عند رمزٌ للهموم التي يعاني منها في حياته:

بليلٍ إذا ما قلتُ قد باد فانقضى ... تكشّف عن وعدٍ من الظنّ كاذب

سحبت الدياجي فيه سودَ ذوائبٍ ... لأعتنقَ الآمال بيضَ ترائبِ

وليلُ ابن خفاجة هاهنا شبيه بليل كثير من الشعراء الأقدمين وشبيه بليل امرئ القيس

في معلقته حيث يقول:

وليل كموج البحر أرخى سدوله   عليَّ بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لمّا تمطّى بصلبه   وأردف أعجازاً وناءَ بكلكلِ
الا أيّها الليل الطويلُ الا انجلي   بصبحٍ وما الإصباح عنك بأمثل
فيا لك من ليلٍ كأنّ نجومه   بكلّ مغار الفتل شدّت بيذبل

ولئن كان الشعِران يشتركان في الوزن والمعنى وروعة التصوير وصدق الشكوى من طول الليل إلاّ أنهما يختلفان قليلاً، لأنّ ابن خفاجة قصد بانقضاء الليل زوال مخاوفه وهمومه، وقد أبدع في تصوير الليل حين شبّه دياجي الليل بذوائب من الشعر الأسود يجرّها الشاعر خلفه وهو ماضٍ لاعتناق آمالٍ بيض الترائب، إن تشبيه دياجي الليل بضفائر الشعر الأسود تعني اقتران الهموم (التي رمز لها بالليل) بعقله (الذي رمز إليه بالذوائب لأن الذوائب مقترنة بالرأس الذي فيه العقل وهو مستودع الهموم).

وبعد المطلع ووصف الرحلة ومصاعبها يصل ابن خفاجة الى وصف الجبل، ولكن من أين يأتي هذا الجبل؟ إنه ممّا جرّده الشاعر من خياله وعقله، أي من مستودع الهموم (جيب الليل):

فمزّقت جيب الليل عن شخص أطلسٍ   تطلّع وضّاح المضاحك قاطب
رأيت به قطعاً من الفجر اغبشاً   تأمّل عن نجمٍ توقّد ثاقب

إنّ ابن خفاجة هنا أشبه بالمصوّر الحقيقي الذي لا تخرج معه الصورة صافية شديدة الوضوح مرّة واحدة، بل لا بدّ أن تمرّ بمراحل من غبش الرؤية، ولذلك فإنه عندما جرّد صورة الجبل من خياله كان لا بدّ أن تتضح الصورة تدريجياً؛ ففي البداية لم يكن شيء من ملامح الصورة واضحاً (شخص أطلس)، ثمّ زاد الشاعر من الإضاءة على هذا الشيء المبهم فجعله (وضاح المضاحك قاطب)، ثم ازدادت ملامحه وضوحاً عندما جعل رأسه مضاء بنور الشمس، لأنّ أشعة الشمس تصل أول ما تصل عند الفجر والشروق الى القمم الشاهقة. ثم يمضي ابن خفاجة بتشخيص الجبل، ويمنحه صفات إنسانية، والغاية من هذه الأنسنة للجبل هي أن يؤهله لكي يصبح قادراً على المحاورة معه، ولذلك أضفى عليه صفات إنسانية مادية وصفات إنسانية معنوية، فجعل له ذوائب وأكتافاً وألبسه عمامة، ثم منحه صفات معنوية كالرعونة والوقار والتفكير وغيرها:

وارعن طماح الذؤابة باذخ يطاول اعنان السماء بغارب
يسدّ مهبَّ الريح عن كل وجهةٍ ويزحم ليلاً شهبه بالمناكب
وقورٍ على ظهر الفلاة كأنه طوال الليالي مطرق في العواقبِ
يلوث عليه الغيم سودَ عمائم لها من وميض البرق حمر ذوائبِ

ومن الواضح براعة ابن خفاجة في تصوير الجبل وتشخيصه، حين جعل منه شخصاً له عمامة سوداء على رأسه وذوائب حمراء تتدلى من تحت تلك العمامة. ولهذين اللونين دلالات خاصّة في القصيدة، فالعمامة السوداء ربّما تكون دليلاً على الهموم التي تشغل بال الشاعر ولذلك جعلها على الرأس لأنّ الرأس هو مستودع الهموم، والذوائب الحمر التي تنقدح من البرق رمزٌ لنور المعرفة الذي مصدره الرأس أيضاً (من تحت العمامة)، وبما أنّ الجبل هو رمزٌ لابن خفاجة، فإن ابن خفاجة في هذا الوصف للجبل إنّما يسقط صفاته الخاصة على الجبل، فهو مثقل بالهموم بعد أن تقدّمت به السنّ وأصبحت فلسفة الحياة والموت والوجود تشغل فكره، وأخذت المعرفة تنقدح من ذهنه نتيجة هذا الاستغراق في التفكير.

وبعد أن هيّأ ابن خفاجة الجبل على هذه الصورة ليكون أهلاً للحوار شرع في إقامة حوارٍ معه، إلاّ أن هذا الحوار الذي أوهمنا ابن خفاجة بأنه حوار متكافئ لم يكن كذلك؛ فالأصل فيه أن يكون من يملك اللسان، وهو ابن خفاجة، هو المتحدث، ومن لا يملك اللسان، وهو الجبل، هو المنصت او المصيخ، إلاّ أنّ ابن خفاجة قلب الصورة هنا وجعل من لا يملك اللسان متحدثاً ومن يملكه منصتاً؛ وهنا تجلّى إبداع ابن خفاجة في فنّه، إذ أراد من ترتيب وضع الحوار على هذا النحو بعداً آخر، وهو أن يجعل صاحب السمع والإدراك (ابن خفاجة) مصيخاً إلى صاحب التجربة (الجبل)، إذ يقول:

اصختُ إليه وهو اخرسُ صامتٌ فحدّثني ليلَ السُّرى بالعجائب

والمتأمّل في الحديث الذي أفضى به الجبل إلى ابن خفاجة يلحظ أنّ الجبلَ لم يكن إلاّ ابنَ خفاجة نفسه، وأنّ ابن خفاجة اتخذه قناعاً، وانّه ليس أكثر من حديث النفس الى النفس:

وقال الا كم كنتُ ملجأ فاتكٍ وموطنَ أوّاهٍ تبتّل تائبِ
وكم مرّ بي من مدلجٍ ومؤوّبٍ وقالَ بظلّي من مطيٍّ وراكب

ولاطمَ من نكبِ الرياح معاطفي وزاحم من خُضْر البحار جوانبي

فما كان إلاّ أن طوتهم يد الردى وطارت بهم ريح النوى والنوائب

وقد تدرّج ابن خفاجة في حواره مع الجبل من إيهامنا بأنه يحاور جبلاً حقيقياً إلى إزالة القناع عن مقصده الحقيقي، وكانت الأبيات الأربعة السابقة معبّرة عن الجبل أكثر من تعبيرها عن ابن خفاجة؛ فالقتلة يفرّون إلى الجبال عندما يرتكبون جرائمهم وكذلك نقيضهم التوّابون يلوذون بالجبل للعزلة والتبتّل والعبادة، وقد قصد ابن خفاجة أن يجمع بين الفتّاك والعبّاد في الجبل ليقول إنّ الإنسان يجتمع فيه عنصرا الخير والشرّ في وقت واحد، وكأنّه يشير إلى نفسه، إذ كان في بداية حياته ماجناً لاهياً وأصبح في آخر عمره زاهداً متعبّداً. ثم يمضي في إيراد متناقضات أخرى اجتمعت في تجربة الجبل (المدلجون والمؤوّبون، والمطايا وراكبوها)، وكانوا كلهم يأوون الى الجبل في سفرهم وعودتهم من السفر، مما دفع ابن خفاجة إلى استخدام الطباق والثنائيات الضّدية - عن قصد - في هذه الأبيات، كما استخدم ابن خفاجة المماثلة وهو تساوي كلمات الشطر الثاني من البيت مع كلمات الشطر الأوّل منه وزناً ونوعاً وإعراباً نحو قوله:

ولاطَمَ من نُكُبِ الرياح معاطفي وزاحم من خضر البحار جوانبي

وقوله:

فما خفقُ ايكي غير رجفةِ اضلُعِ ولا نوْح وُرْقي غير صرخة نادب

وقد اتخذ ابن خفاجة من المصير الذي آل إليه جميع هؤلاء الذين أووا الى الجبل أو لاذوا به أو قالوا واستراحوا بظله أو تعبّدوا فيه،وهو الموت، مدخلاً للبدء في كشف القناع عن مقصده من الجبل، ولكن لا بدّ من الإشارة إلى براعة التصوير الممزوج ببعض التجانس الصوتي في هذا البيت:

فما كان إلاّ أن طوتهم يدُ الردى وطارت بهم ريح النوى والنوائب

فقد صوّر الردى على هيئة مخلوق هائل له يدٌ تطوي الناس والمخلوقات جميعاً، وصوّر النوى والنوائب على صورة طيور ضخمة تحمل الخلق وتطير بهم، وهي صورٌ تنسجم مع ما يؤول إليه الخلق من فناء لا عودة بعده، وتدلّ على حتمية الموت والفناء.

وفي قوله (النوى والنوائب) أيضاً جناسٌ ناقص لا تظهر فيه الصنعة، بل يخدم قضية الشاعر في هذا البيت، إذ ليس أنسب إلى الفناء والزوال والتشتت أكثر من النوى والنوائب، إذ هما سببان من أسباب الفناء.

ثم يأخذ ابن خفاجة في كشف القناع عن الجبل لنجد تحت القناع وجه ابن خفاجة نفسه، حين يقول على لسان الجبل:

فما خَفقَ ايكِي غير رجفة اضلع ... ولا نوْح وُرْقي غير صرخة نادب

وما غيّض السلوانُ دمعي وإنّما ... نزفتُ دموعي في فراق الأصاحب

فحتّى متى ابقى ويظعن صاحبٌ ... اودّع منه راحلاً غير آيبِ

وحتّى متى ارعى الكواكب ساهراً ... فمن طالع اخرى الليالي وغارب

فرحماك يا مولاي دعوةَ ضارعٍ ... يمدّ إلى نعماك راحة راغب

إنّ هذه الأبيات تنطق عن ابن خفاجة وتصف حاله أكثر ممّا تنطق عن الجبل، على عكس الأبيات الأربعة التي سبقتها؛ فابن خفاجة عندما قال هذه القصيدة كان قد تقدّم في السنّ وقد فقد الكثير من أصحابه وأقرانه وبدأ يشعر بالغربة والوحدة والخوف من الموت، وبكى كثيراً على أصحابه الذين فقدهم، وظلّ يرعى الكواكب، أي الأجيال الجديدة، ويودّع أجيالاً ذاهبة، وبسبب ذلك فإنّه يضرع إلى الله أن يمنّ عليه بالخلاص من هذه الحال.

ثم يعقّب ابن خفاجة على ما سمع من الجبل قائلاً:

فاسمعني من وعظه كلّ عبرةٍ ... يترجمها عنه لسانُ التجارب

فسلّى بما ابكى وسرّى بما شجى ... وكان على ليل السُرى خير صاحب

وكأنّ ابن خفاجة يكاد يعترف في هذين البيتين بأنّه إنّما اتخذ من الجبل وسيلة للتفكير في تجارب الحياة ووسيلة للتسلية والتسرية في أثناء رحلته في هذه الحياة.

وفي البيت الأخير ينزع ابن خفاجة القناع تماماً وينفصل عن الجبل كما انفصلت كل المخلوقات التي مرّت به سابقاً وطوتها يد الردى، وكأن ابن خفاجة ينعى نفسه في هذا البيت:

وقلت وقد نكّبتُ عنه لطيّةٍ ... سلامٌ فإنّا من مقيم وذاهب

فالمقيم هو الجبل، والذاهب هو ابن خفاجة.

لقد كانت القضية المركزية في قصيدة ابن خفاجة هي قضية الحياة والموت فكانت الكلمة الأولى في القصيدة: (بعيشك)، وكانت الكلمة الأخيرة: (وذاهب)، ولو جمعناهما لوصلنا إلى عبارة: العيش ذاهب؛ وهي خلاصة ما كان يؤرّق الشاعر وهو ينظم هذه القصيدة.

التناص في القصيدة:

تأثّر ابن خفاجة في قصيدة (الجبل) بغير شاعر من الشعراء السابقين، ومن الذين تأثر بهم امرؤ القيس في معلقته المشهورة: قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل[7].

ففي وصفه لليل الذي شدّ فيه الرحلة يقول ابن خفاجة:

بليلٍ إذا ما قلْتُ قد باد فانقضى ... تكشّفَ عن وعدٍ من الظنّ كاذبِ

سحبتُ الدياجي فيه سودَ ذوائبٍ ... لأعتنق الآمال بيضَ ترائبِ

فهذا القول قريب الشبه بقول امرئ القيس في معلّقته:

وليلٍ كموج البحر أرخى سدوله ... عليَّ بأنواع الهموم ليبتلي

فقلت له لمّا تمطّى بصلبه ... وأردَفَ أعجازاً وناءَ بكلكل

الا أيّها الليل الطويلُ الا انجلي ... بصبحٍ وما الإصباحُ منك بأمثلِ

فيا لك من ليلٍ كأنّ نجومه ... بكلّ مغار الفتل شُدَّتْ بيذبلِ[8]

فالقصيدتان تجريان على وزن البحر الطويل، وفي القصيدتين وصف لليل وشكوى من طوله وانتظار لانبلاج الصبح، وكلا الشاعرين يرمز بالليل إلى الهموم التي أقضّت مضجعه أو رحلته في الحياة، وكلاهما أبدع في تصوير وطأة الليل عليه.

❖❖❖

ولئن كان ابن خفاجة يقصد بالرحلة في قصيدته رحلة الحياة من الميلاد الى الموت، إلاّ أنّه نجح في توظيف رحلة الشاعر الجاهلي وتمثّلها تمثّلاً فائقاً في مقدّمة قصيدته، فقد كان من عادة الشاعر الجاهلي خلال انتجاعه لمدوحيه أن يصف رحلته إلى الممدوح والمصاعب التي واجهته في أثناء تلك الرحلة، وغالباً ما نجد الشعراء الجاهليين يصفون في تلك الرحلات شدّة ظلام الليل الذي قام فيه برحلته، ويصفون الصحراء والفيافي التي يشقونها وحيدين على راحلتهم يلازمهم القلق والأمل في تحقيق غاياتهم التي ارتحلوا من أجلها. وفي الإشارة إلى ذلك يقول ابن قتيبة في الشعر والشعراء «وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أنّ مقصّد القصيد إنّما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار فبكى وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها، إذ كان نازلة العمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر لانتقالهم عن ماء إلى ماء

وانتجاعهم الكلأ وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان، ثم وصل ذلك بالنسيب، فشكا شدّة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق ليميل نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه...

«فرحل في شعره وشكا النصب والسهر وسُرى الليل وحرّ الهجير وإنضاء الراحلة والبعير، فإذا علم أنّه قد أوجب على صاحبه حقّ الرجاء وذمامة التأميل وقرّر عنده ما ناله من المكاره في المسير بدأ في المديح فبعثه على المكافأة وهزّه للسماح وفضّله على الأشباه وصغّر في قدره الجزيل»(9).

كما تأثر ابن خفاجة في هذه القصيدة بمجنون ليلى، ويتجلّى تأثّره به في الأبيات التي يصف فيها حواره مع الجبل حين يقول:

اصختُ إليه وهو اخرسُ صامتٌ	فحدّثني ليلَ السُّرى بالعجائب
وقال: الا كم كنتُ ملجأ فاتكٍ	وموطنَ أوّاهٍ تبتّلَ تائبِ
وكم مَرَّ بي من مدلجٍ ومؤوّبٍ	وقالَ بظلّي من مطيٍّ وراكب
ولاطَمَ من نُكبُ الرياح معاطفي	وزاحم من خُضْر البحارِ جوانبي
فما كانَ إلاّ ان طَوتهم يدُ الردى	وطارتْ بهم ريحُ النوى والنوائب
فما خفْقُ أيكي غيرَ رجفة اضلعٍ	ولا نوْحُ وُرْقي غيرَ صرخةِ نادبِ
وما غيّضَ السلوانُ دمعي وإنّما	نزفتُ دموعي في فراق الأصاحب

وهذه الأبيات شبيهة بمقطوعة شعرية لمجنون ليلى يخاطب بها جبل التوباد، يقول فيها:

واجهشْتُ للتوباد حينَ رايتُهُ	وهلّل للرحمن حين رآني
واذريْتُ دَمْعَ العين لمّا رايتُهُ	ونادى بأعلى صوته ودعاني
فقلتُ له: اين الذين عهدتُهُم	حواليْكَ في خِصْبٍ وطيبِ زمانِ؟
فقال: مضَوا واستودعوني بلادهم	ومن ذا الذي يبقى مع الحدثانِ
واني لأبكي اليومَ من حذري غداً	فراقكِ والحيّان مؤتلفانِ
سجالاً وتهتاناً ووبلاً وديمةً	وسحّاً وتسجاماً إلى هَمَلانِ(10)

وقد قدّم صاحب الأغاني لهذه الأبيات بقوله: «كان المجنون وليلى وهما صبيّان يرعيان غنماً لأهلهما عند جبلٍ في بلادهما يقال له: التّوباد، فلمّا ذهب عقله وتوحّش، كان يجيء

إلى ذلك الجبل فيقيم به، فإذا تذكر أيام كان يطيفُ هو وليلى به جزع جزعاً شديداً واستوحش، فهام على وجهه حتى يأتي نواحي الشام، فإذا ثاب عقله رأى بلداً لا يعرفه فيقول للناس الذين يلقاهم: بأبي أنتم! أين التوبادُ من أرض بني عامر؟ فيقال له: وأين أنْتَ من أرضِ بني عامر! أنتَ بالشام عليك بنجم كذا فأمّه. فيمضي على وجهه نحو ذلك النجم حتى يقع بأرض اليمن، فيرى بلاداً ينكرها وقوماً لا يعرفهم فيسألهم عن التوباد وأرض بني عامر، فيقولون: وأين أنتَ من أرْضِ بني عامر! عليك بنجم كذا وكذا، فلا يزال كذلك حتى يقع على التوباد، فإذا رآه قال في ذلك:

أيا جبل التوباد ... الخ[11].

والمتأمّل للشعرين يجد تشابهاً بيّناً بينهما، فكلاهما يجري على وزن البحر الطويل، وكلا الشاعرين يحاور جبلاً، وكلاهما يتحدث عن الناس الذين يقيمون بجوار ذلك الجبل، وكان جواب الجبل في الشعرين واحداً؛ فجبل ابن خفاجة يقول عنهم:

فما كان إلاّ أن طوتْهُمْ يد الردى وطارت بهم ريح النوى والنوائب

وأمّا جبل مجنون ليلى فيقول:

فقال: مضوْا واستودعوني بلادهم ومن ذا الذي يبقى مع الحدثانِ

والجبلان يتحدثان عن تشتت الناس وتفرقهم وزوالهم بمرور الزمن.

ويتشابه الشعران في النزوع الى أخذ العبرة والحكمة من تقلبات الدهر وفناء الناس، وكلا الشعرين ينبض بصدقٍ عميق ومشاعر جيّاشة. لكنّ الفرق بين الشاعرين أنّ مجنون ليلى عنى بالناس ليلى وأهلها، وأما ابن خفاجة فعنى بهم الناس كلّهم ولا سيما أصدقاءه وأهل بلده.

كما أنّ ابن خفاجة يكرّر في قصيدته هذه أبياتاً نجدها عنده في قصائد سابقة، فقد قال في وصف جبل:

وصهوةُ عزمٍ قد تمطّيتُ والدجى مُكِبٌّ كأنّ الصُبحَ في صدرهِ سرُّ
وقد الحفتْني شملةَ الطلِّ شمالٌ يقلقل احشاءَ الأراك بها ذُعرُ
وشقّ الدُجى نقطٌ من النجم مُرسَلٌ ترامى من الليل البهيم به فَجْرُ
واشرفَ طمّاحُ الذؤابةِ شامخٌ تنطّق بالجوزاءِ ليلاً له خَصْرُ

وقورٌ على مرِّ الليالي كأنّما يُصيخُ إلى نجوى وفي أُذنهِ وقْرُ
تمهَّدَ منه كل ركن ركانةً فقطَّبَ إطراقاً وقد ضحكَ البدرُ
ولاذَ بهِ نسرُ السماءِ كأنّما يحنُّ إلى وكرٍ به ذلك النَسْرُ
فلم أدرِ من صمْتٍ له وسكينةٍ أكبرةُ سنٍّ وقَرت منه أم كِبْرُ[12]

وتتفق كثير من عبارات هذه المقطوعة وصورها ومعانيها مع قصيدة الجبل (بعيشك هل تدري)، ففي القصيدتين يتحدث عن رحلة قام بها ليلاً ووصل فيها إلى جبل، ووصفه بأوصاف تكاد تكون متطابقة في القصيدتين، فيقول في المقطوعة:

واشرف طمّاح الذؤابة شامخٌ

ويقول في القصيدة:

وارعن طمّاح الذؤابة باذخ

ويقول في المقطوعة:

وقورٍ على مرّ الليالي كأنّما يصيخ الى نجوى وفي اذنه وقر

ويقول في القصيدة:

وقورٍ على ظهر الفلاة كأنّه طوالَ الليالي مطرقٌ في العواقب

ويقول في المقطوعة:

فلم أدرِ من صمتٍ له وسكينةٍ أكبرةُ سنٍّ وقَرتْ منه أم كِبْرُ

ويقول في القصيدة:

اصختُ إليه وهو اخرسُ صامتٌ...

كما تتفق المقطوعة والقصيدة في الجريان على البحر الطويل.

ومّما يخيّل إليّ في الصلة بين المقطوعة والقصيدة، أنّ هذه المقطوعة كانت إحدى محاولات ابن خفاجة لوصف الجبل، ثم عدل عنها إلى قصيدة أطول وأعمق مستفيداً من معاني المقطوعة وعباراتها.

الحواشي والتعليقات

(1) وردت القصيدة في ديوان ابن خفاجة ص215-217، الذخيرة ق3 م2 ص586-587

(2) الذخيرة ق3 م2 ص542

(3) قلائد العقيان 740/3

(4) قلائد العقيان 740/3-741

(5) نفسه 741/3-743

(6) انظر ترجمة ابن خفاجة في قلائد العقيان 739/3-764، الذخيرة ق3 م2 ص541-652، المغرب 367/2، الوافي بالوفيات 83/6، وصفحات متفرقة في نفح الطيب.

(7) شرح ديوان امرئ القيس لأبي جعفر النحّاس ص11-47

(8) نفسه ص31-32

(9) الشعر والشعراء، ابن قتيبة أبو محمد عبدالله بن مسلم، مطبعة بريل، ليدن، 1902، ص15

(10) ديوان مجنون ليلى ص192

(11) الأغاني، لأبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، تحقيق الدكتور إحسان عبّاس والدكتور ابراهيم السعافين والدكتور بكر عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 2000 م، 34/2-35

(12) ديوان ابن خفاجة ص150

الفصل الرابع

رثاء الأندلس
لأبي البقاء الرندي

رثاء الأندلس

لأبي البقاء الرندي[1]

لكُلُ شَيءٍ إذا ما تَمَّ نُقْصانُ   فلا يُغَرَّ بطيبِ العيش إنسانُ

هِيَ الأمورُ كما شاهدتُها دُوَلٌ؛   مَنْ سَرَّهُ زمنٌ ساءتهُ أزمانُ،

وهذهِ الدارُ لا تُبقي على أحدٍ،   ولا يدومُ على حالٍ لها شانُ

يُمَزِّقُ الدّهرُ حتماً كلَّ سابغةٍ   إذا نَبتْ مشْرَفياتٌ وخرصانُ

ويَنتضي كلَّ سيفٍ للفناءِ، ولو   كان ابنَ ذي يَزنٍ والغِمْدُ غَمْدانُ

أينَ الملوكُ ذوو التيجانِ من يمنٍ،   وأينَ منهم أكاليلٌ وتيجانُ

وأينَ ما شادهُ شدّادُ في إرَمٍ؟   وأينَ ما ساسَهُ في الفُرسِ ساسانُ

وأين ما حازه قارونُ من ذهبٍ؟   وأين عادٌ وشَدّادٌ وقحطانُ

أتى على الكلِّ أمرٌ لا مردَّ له   حتّى قَضَوْا فكأنّ القومَ ما كانوا

وصار ما كان من مُلْكٍ ومن مَلِكٍ   كما حكى عن خَيالِ الطَّيفِ وسْنانُ

دارَ الزمانُ على دارا وقاتِلِهِ   وأمَّ كِسْرى فما آواهُ إيوانُ

كأنّما الصّعبُ لم يَسهُلْ له سببٌ،   يوماً، وما مَلَكَ الدُّنيا سُليمانُ

فجائعُ الدّهرِ أنواعٌ مُنوَّعةٌ،   وللزّمانِ مسرّاتٌ وأحزانُ

وللحوادثِ سُلوانٌ يسهّلها؛   وما لِما حلَّ بالإسلام سُلْوانُ

دهى الجزيرةَ أمرٌ لا عزاءَ له   هَوى له أُحُدٌ وانهدَّ ثَهلانُ

أصابَها العينُ في الإسلام فامتُحِنَتْ   حتى خلتْ منه أقطارٌ وبُلْدانُ

فاسألْ بلَنسيةَ: ما شأن مُرسِيةٍ؟   وأين شاطبةٌ أم أين جيّانُ؟

وأين قُرطبةٌ دارُ العلوم فكم   من عالمٍ قد سما فيها له شانُ؟

وأينَ حِمصُ وما تحويه من نزهٍ   ونهرُها العذبُ فيّاضٌ وملآنُ؟

قواعدٌ كنّ أركانَ البلادِ، فما   عسى البقاءُ إذا لم تبقَ أركانُ؟

تبكي الحنيفيّةُ البيضاءُ من أسفٍ،   كما بكى لِفِراقِ الإلْفِ هيمانُ

على ديارٍ من الإسلام خاليةٍ؛   قد أقفرتْ ولها بالكُفرِ عُمرانُ

حيثُ المساجدُ قد صارتْ كنائسَ ما ... فيهنَّ إلاّ نواقيسٌ وصُلْبانُ؛
حتّى المحاريبُ تبكي وهيَ جامدةٌ ... حتّى المنابرُ تَرْثي وهيَ عِيدانُ
يا غافلاً، وله في الدّهرِ موعظةٌ ... «إنْ كُنتَ في سِنةٍ فالدّهرُ يقْظانُ
وماشياً مرحاً يُلهيهِ موطِنهُ، ... أبَعْدَ حمصٍ تغرُّ المرءَ أوطانُ؟
تلكَ المُصيبةُ أنستْ ما تقدّمها، ... وما لها مع طولِ الدّهرِ نِسيانُ
يا أيّها المَلكُ البيضاءُ رايَتُه، ... أدركْ بِسيفِكَ أهلَ الكُفْرِ، لا كانوا
يا راكبينَ عِتاقَ الخيلِ ضامرةً ... كأنّها في مجالِ السّبْقِ عُقبانُ
وحاملين سيوفَ الهندِ مُرْهفةً ... كأنّها في ظَلامِ النّقْعِ نيرانُ
وراتعينَ وراء البحرِ في دعةٍ ... لَهُمْ بأوطانهم عزٌ وسُلطانُ
أعِندكم نبأٌ من أهلِ أندلس؟ ... فقدْ سرى بحديث القومِ رُكبانُ
كم يستغيثُ بنا المستضعفون، وهمْ ... قتلى وأسرى، فما يهتزّ إنسانُ!
ما ذا التقاطعُ في الإسلام بينكُم، ... وأنتُم - يا عبادَ اللّه - إخوانُ!
ألا نفوسٌ أبيّاتٌ لها هممٌ! ... أما على الخيرِ أنصارٌ وأعوانُ!
يا منْ لذلّة قومٍ، بعد عِزِّهِمُ، ... أحالَ حالهمُ كفرٌ وطُغيانُ
بالأمْسِ كانوا مُلوكاً في منازِلِهمْ، ... واليومَ همْ في بلادِ الكُفرِ عُبدانُ
فلوَ تراهُمُ حيارى لا دليلَ لهم ... عليهمُ منْ ثيابِ الذّلّ ألوانُ؛
ولو رأيتَ بُكاهم عند بيْعِهمُ ... لهالكَ الأمرُ واستَهوتْكَ أحزانُ؛
يا رُبّ أمٍّ وطفلٍ حيلَ بينهما ... كما تُفرّقُ أرواحٌ وأبدانُ؛
وطَفْلةٍ مثلَ حُسنِ الشمسِ إذ طلعَتْ، ... كأنّما هي ياقوتٌ ومَرجانُ،
يقُودُها العلجُ للمكروهِ مُكرهةً ... والعينُ باكيةٌ والقلبُ حيْرانُ
لِمثلِ هذا يذوبُ القلبُ من كمدٍ، ... إنْ كانَ في القلب إسلامٌ وإيمانُ!

رثاء الأندلس للرندي

مقدّمة

يرجع لهذه القصيدة الفضل في شهرة الرندي، وهو أبو البقاء وأبو الطيب وأبو محمد صالح بن يزيد بن شريف الرندي، المولود في مدينة رندة بجنوب الأندلس سنة 601 هـ والمتوفى سنة 684 هـ، برع في الشعر والنثر والفقه، وعمل قاضياً في بلده، وكان كثير الوفادة على غرناطة والتردد إليها يسترفد ملوكها وينشد أمراءها، حتى أصبح أثيراً لدى أميرها مؤسس مملكة غرناطة الغالب بالله محمد بن يوسف بن خميس بن نصر المعروف بمحمد الأول ابن الأحمر، ونظم في مدحه عدداً من غرر قصائده.

ولم يصلنا من شعر أبي البقاء الرندي سوى عددٍ قليل من القصائد والمقطّعات، إذ ضاع شعره في ما ضاع من شعر الأندلسيين، وقد ألّف الرندي في عدد من العلوم والموضوعات منها كتابه المشهور الوافي في نظم القوافي وتوجد منه عدة نسخ خطية، وله مقامات ومختصر في الفرائض، وكتاب روضة الأنس ونزهة النفس(2).

أمّا مناسبة هذه القصيدة فقد وردت في كتاب الذخيرة السنّية في تاريخ الدولة المرينية، لعلي بن أبي زرع الفاسيّ، حيث يقول المؤلف عن سنة 665 هـ «وفيها صالح ابنُ الأحمر ألفونش على أن أعطاه ابن الأحمر نحو أربعين مسوّراً من بلاد المسلمين من جملتها شريش والمدينة والقلعة. وقيل إنّ جملة ما أعطى ابن الأحمر لألفونش من بلاد المسلمين من المدن والحصون المسوّرة مئة مسوّر وخمس مسوّرات من بلاد شرق الأندلس.. ولما أعطى ابن الأحمر البلاد المذكورة للألفونش قال الفقيه أبو محمد صالح بن شريف الرندي يرثي بلاد الأندلس ويستنصر بأهل العدوة من مرين وغيرهم بهذه القصيدة»(3).

البناء العامّ للقصيدة:

تتألف قصيدة أبي البقاء الرندي من مجموعة من الوحدات المترابطة ترابطاً عضوياً سواءً من جهة الموضوعات التي تناولتها القصيدة أو من جهة الحالات الانفعالية التي تشيع في القصيدة.

أما من حيث الموضوعات التي تتناولها القصيدة، فقد جاءت على النحو التالي:

1- أمّا الموضوع الأول فهو موضوع نقف عليه في غالبية قصائد الرثاء سواءً رثاء الأشخاص أو رثاء المدن والممالك والدول، وهو موضوع الحكمة، ويقصد منه في العادة اللجوء إلى العقل - بصفته مصدراً للحكمة - من أجل المحافظة على تماسك أهل الفقيد أو

المتلقين لخبر الفقد لدى تلقيهم النبأ الفاجع. ولئن كان الشعراء يختلفون في اختيار مكان الحكمة من القصيدة، إلاّ أنّ أبا البقاء الرندي جعلها في صدر القصيدة، لأنّ مأساة سقوط الأندلس عظيمة ووقعها سيكون شديداً على المتلقين، فلا بدّ إذن من الاحتكام الى العقل أوّلاً قبل الخوض في وصف تلك الفاجعة. كما تفاوت شعراء الرثاء في القضية التي تدور عليها الحكمة وإن كان معظمها يدور في فلك واحد له صلةٌ بالموت والحياة. أمّا أبو البقاء الرندي فجعلها تدور حول قضية التمام والنقصان، وهي تفضي قطعاً إلى الموت والفناء والزوال، لكنّ اختيار الرندي لمسألة التمام والنقصان كان اختياراً موفقاً، لأنّ الشاعر أطلق حكماً قطعيّاً يجعل القارئ للبيت أو السامع له يتساءل عن صحة قطعية الحكم، فيغرق من البداية في التفكير بهذا المطلع وينساق مع القصيدة بحثاً عن الجواب، ولذلك جاء المطلع:

لكلّ شيء إذا ما تمّ نقصانُ   فلا يغرّ بطيب العيش إنسانُ

إنّ كلمة (كلّ) في هذا المطلع، تقطع الطريق أمام أي استثناء من قاعدة النقصان بعد التمام، وهي القاعدة التي بنى عليها الشاعر حكمته ونظريته، فما من شيء يبلغ درجة التمام إلاّ ويأخذ في التراجع والنقصان، ولئن كان يحضر في ذهن القارئ أشياء كثيرة تأخذ في النقصان بعد التمام مثل البدر والإنسان والحيوان والنبات، إلاّ أنّ ما يحضر في ذهن الشاعر هو تجارب الدول بعامة وتجربة الأندلس بخاصّة، ولذلك فإنه يحيلنا الى مشاهداته وخبراته التي اكتسبها بالخبرة العيانية المباشرة أو بمطالعة الكتب، ولا سيما أنه فقيه وأديب وشاعر وصاحب ثقافة عالية، ويجعل الشاعر لهذه القاعدة الرئيسية ركائز وأعمدة تعززها وتتصل بها، منها أنّ أمور الدنيا دول وأنّ من سرّه زمنٌ ساءته أزمان، وأنّ الدار الدنيا لا تبقي على أحد ولا تثبت على حال، وأن الدهر كفيل بإفساد كل شيء وتدميره وإفنائه:

هي الأمور كما شاهدتها دولٌ   من سرّه زمنٌ ساءته أزمانُ

وهذه الدار لا تبقي على احدٍ   ولا يدومُ على حالٍ لها شانُ

يمزّق الدهر حتماً كلّ سابغةٍ   إذا نبت مشرفيّاتٌ وخرصانُ

وينتضي كلّ سيفٍ للفناء ولو   كان ابن ذي يزنٍ والغمد غمدان

2- أمّا القسم الثاني، فهو إيراد أحداث تاريخية غابرة، وقد اختارها الشاعر هنا من أعيان الأحداث التاريخية وأبرزها. ولئن كان هدف شعراء الرثاء في العادة من إيراد مثل هذه

الأحداث هو التعزّي بموت السابقين وفنائهم والتخفيف من وقع المصيبة إلاّ أنّ هدف الرندي ها هنا هو إثبات نظريته التي بدأ بها قصيدته وتقديم الأدلة والشواهد الدامغة عليها، وقد نفى في نهاية إيراده لهذه الأحداث أنه يقصد التعزية لأنّ ما أصاب الأندلس «لا عزاء له» كما يقول. وقد أجاد الشاعر في حسن التخلص والانتقال من الأبيات التي عرض فيها حكمته ونظريته إلى الأبيات التي ساق فيها أحداثاً تاريخية جساماً، وكانت براعته في هذا التخلص والانتقال وسيلة من وسائل تحقيق الترابط العضوي بين أجزاء القصيدة؛ فبعد أن انتهى من عرض نظريته حول النقصان بعد التمام وعادة الدهر في محاربة كلّ شيء وإفنائه حيث يقول:

وينتضي كلَّ سيفٍ للفناء ولو ... كان ابنَ ذي يزن والغمد غمدان

نجده قد انتقل بصورة ذكية الى إيراد أمثلته في عجز هذا البيت، ثم يمضي في إيراد أدلّته قائلاً:

أينَ الملوكُ ذوو التيجانِ من يمنٍ، ... وأينَ منهم أكاليلٌ وتيجانُ
وأينَ ما شادهُ شدّادُ في إرَمٍ؟ ... وأينَ ما ساسَهُ في الفُرسِ ساسانُ
وأين ما حازه قارونُ من ذهبٍ؟ ... وأين عادٌ وشَدّادٌ وقحطانُ
أتى على الكلُّ أمرٌ لا مردَّ له ... حتّى قَضَوا فكانّ القومَ ما كانوا
وصار ما كان من مُلكٍ ومن مَلِكٍ ... كما حكى عن خَيال الطَّيف وسْنانُ
دارَ الزمانُ على دارا وقاتلهِ ... وأمَّ كِسْرى فما آواهُ إيوانُ
كأنَما الصَّعبُ لم يَسهُلْ له سببٌ، ... يوماً، ولا مَلَكَ الدُّنيا سُليمانُ

والمتأمل لهذه الأحداث التاريخية وأسماء الدول والملوك التي ضربها الشاعر مثلاً، يجد أنها من أعظم الدول في التاريخ: سيف بن ذي يزن وملوك حمير والتبابعة في اليمن وإرم ذات العماد وإمبراطورية الفرس، وقارون وكنوزه ومملكة النبي سليمان عليه السلام، وفي قول الشاعر بعد ذلك:

فجائع الدهر أنواعٌ منوّعة ... وللزمان مسرّاتٌ وأحزان

إشارة الى أنّ ثمة شواهد لا حصر لها لكنه اكتفى بما ساقه لنا من شواهد.

3- وأمّا القسم الثالث من هذه القصيدة، وهو وثيق الصلة والارتباط بما قبله، فهو وصف

ما حلّ بمدن الأندلس التي سقطت في أيدي الأعداء، لكنّ الشاعر كان كذلك موفقاً في الانتقال الى هذا القسم، عندما نفى بصورة صريحة أن يكون هدفه من إيراد أخبار الغابرين هو التعزية بما حلّ بالأندلس:

حيث يقول:

فجائعُ الدّهرِ أنواعٌ مُنوّعةٌ ... وللزّمان مسرّاتٌ وأحزانُ
وللحوادثِ سُلوانٌ يسهّلها ... وما لِما حلّ بالإسلام سُلْوانُ
دهى الجزيرةَ أمرٌ لا عزاءَ له ... هَوى له أُحُدٌ وانهدّ ثهلانُ

وقد اختار الشاعر جبليّ أحد وثهلان ليهويا من هول مصيبة فقدان الأندلس، لأنّ هذين الجبلين في قلب الحجاز من حيث بدأ الإسلام انتشاره.

ويتخذ الرندي من إزالة وهم التعزية بفقدان الأندلس مدخلاً لوصف ما حلّ بجزيرة الأندلس، متمثلاً تقاليد رثاء الناس والمدن على حدّ سواء من ذكر محاسن المدن التي ضاعت وندبها ووصف الحزن الذي أصابه وأصاب الناس والإسلام بعد فقدها ووصف ما آلت اليه حالها فيقول:

دهى الجزيرةَ أمرٌ لا عزاءَ له ... هَوى له أُحُدٌ وانهدّ ثهلانُ
أصابَها العينُ في الإسلام فامتحنت ... حتى خلتْ منه أقطارٌ وبُلْدانُ
فاسألْ بلَنسيةَ: ما شأن مُرْسِيةٍ ... وأين شاطبةٌ أم أين جيّانُ
وأين قُرطبةٌ دارُ العلوم فكم ... من عالمٍ قد سما فيها له شانُ
وأينَ حمصُ وما تحويه من نزهٍ ... ونهرُها العذبُ فياضٌ وملآنُ
قواعدٌ كنّ أركانَ البلادِ، فما ... عسى البقاءُ إذا لم تبقَ أركانُ
تبْكي الحنيفيّةُ البيضاءُ من أسفٍ ... كما بكى لِفراقِ الإلْفِ هيْمانُ
على ديارٍ من الإسلامِ خاليةٍ؛ ... قد اقْفرتْ ولها بالكُفْرِ عُمْرانُ
حيثُ المساجدُ قد صارتْ كنائسَ ما ... فيهنّ إلاّ نواقيسٌ وصُلْبانُ؛
حتّى المحاريبُ تبكي وهيَ جامدةٌ ... حتّى المنابرُ تَرْثي وهيَ عِيدانُ

ففي ذكره لمحاسن المدن التي فقدت في الأندلس من أيدي المسلمين يذكر الرندي ما

كانت تشتهر به قرطبة من العلوم وكثرة من نشأ فيها من العلماء، ويذكر كذلك ما اشتهرت به إشبيلية من كثرة المتنزهات التي تحيط بضفتي نهر الوادي الكبير.

وفي مقارنته بين أحوال المدن التي فقدت قبل فقدانها وبعد فقدانها يركز الشاعر على خروج الإسلام منها وحلول الكفر محلّه، وتحويل المساجد إلى كنائس، واختفاء صوت الأذان وحلول أصوات النواقيس والأجراس محلّه. ومن الملاحظ أن الشاعر في بيانه للتحوّلات التي أصابت بعض المدن الأندلسية يركز على التحولات في الجانب الديني، لأنه يرى أنّ المصيبة التي حلّت بالأندلس حلّت بالإسلام، ولذلك يرى أنّ أكثر من بدا عليهم التأثر بفاجعة فقد المدن الأندلسية هم الإسلام والمحاريب والمنابر:

تبكي الحنيفيّة البيضاء من أسفٍ ... كما بكى لفراق الإلف هيمانُ

...

حتّى المحاريب تبكي وهي جامدةٌ ... حتى المنابر ترثي وهي عيدان

4- أما القسم الرابع فيشتمل على وعظ وتقريع وسخرية وإرشاد إلى ما يجب عمله، ويلتقي هذا القسم مع قصائد الرثاء بعامة في جانب الوعظ والإرشاد، إذ يرى شعراء الرثاء عادة في الموت خير واعظ لبني البشر وأن عليهم أن يأخذوا أهبتهم له. غير أنّ الرندي في هذه القصيدة يدعو المسلمين إلى أخذ العظة والعبرة من سقوط ممالك قوية في الأندلس وأنّ عليهم أن لا يغتروا بما هم فيه من أمن واستقرار في أوطانهم:

يا غافلاً، وله في الدّهرِ موعِظةٌ ... إنْ كُنتَ في سِنةٍ فالدّهرُ يقْظانُ

وماشياً مرحاً يُلهيهِ موطِنهُ، ... أبَعْدَ حمصٍ تغُرُّ المرءَ أوطانُ

تلكَ المُصيبةُ أنستْ ما تقَدّمها، ... وما لها مع طول الدّهر نِسيانُ

ولا ينسى الرندي في هذه المواعظ أن يذكّر بنظريته التي افتتح بها قصيدته، فقد ذكر الدهر في هذه الأبيات الثلاثة مرتين.

وحتى لا تبدو موعظة الرندي شبيهة بمواعظ شعراء الرثاء الآخرين وحتى تكون الموعظة مناسبة لحجم المأساة التي حلّت بالأندلس، فقد اتخذ من السخرية والتقريع سبيلاً لتعزيز أثر هذه الموعظة، حيث يقول:

يا راكبينَ عِتاقَ الخيلِ ضامرةً ... كأنّها في مجالِ السّبْقِ عُقبانُ

وحاملين سيوفَ الهِندِ مُرْهفةً ... كأنّها في ظلام النّقْعِ نيرانُ

وراتعينَ وراء البحرِ في دعةٍ ... لَهُمُ بأوطانهم عزٌّ وسُلطانُ
اعِندكم نبأٌ من اهلِ اندلسٍ؟ ... فقدْ سرى بحديث القومِ رُكبانُ
كم يستغيثُ بنا المستضعفون، وهمْ ... قتلى واسرى، فما يهتزّ إنسانُ

إنّ السخرية والتقريع تتجليان في المفارقة بين المبالغة في وصف قوة المسلمين وراء البحر وبين تخاذلهم عن نصرة الأندلس وتجاهلهم لما أصابها؛ فبعد أن وصف خيولهم بالعتيقة الضامرة القوية كأنها العقبان ووصف سيوفهم بالحدّة وشدّة اللمعان، سألهم إن كانوا قد سمعوا بما حلّ بالأندلس، وقبل أن يجيبوا قطع عليهم بقوله إن أخبار الأندلس قد سار بها الركبان في كلّ مكان، ومعنى ذلك أنهم لا بدّ أن تكون قد بلغتهم أخبارها، لكنهم فقدوا الإحساس فلم تهتز مشاعرهم لما أصاب أهلها من قتلٍ وأسر وما أصاب مدنها من ضياع.

ويخلص من هذه الموعظة الساخرة والمرّة إلى إرشاد المسلمين إلى ما ينبغي عمله، فيقول:

ما ذا التقاطع في الإسلام بينكم ... وأنتم يا عباد الله إخوان؟!
الا نفوسٌ أبيّاتٌ لها هممٌ ... أما على الخير أنصارٌ وأعوان؟!

ويتمثل الحلّ عنده إذن بالتعاون ونصرة المسلمين ووضع حدّ للتقاطع بينهم واستنهاض الإباء في نفوسهم.

5- وفي القسم الخامس، يعزّز الشاعر دعوته إلى التعاون ونصرة المسلمين في الأندلس، بإيراد مشاهد مؤثرة من المأساة التي لحقت بمسلمي الأندلس، إذ تحاول هذه المشاهد إثارة العاطفة الدينية لدى المسلمين وإثارة العاطفة الإنسانية وإثارة الحمية نحو العرض، فيقول:

يا منْ لذلّة قومٍ بعد عزّهمُ، ... أحالَ حالهمُ كفرٌ وطُغيانُ
بالأمسِ كانوا ملوكاً في منازلِهمْ، ... واليومَ همْ في بلادِ الكُفرِ عُبدانُ
فلوَ تراهُمْ حيارى لا دليلَ لهم ... عليهمُ منْ ثيابِ الذلّ الوانُ
ولو رايتَ بُكاهم عند بيْعِهمُ ... لهالكَ الأمرُ واستَهوتْكَ احزانُ
يا رُبّ أمٍّ وطفلٍ حيلَ بينهما ... كما تُفرّقُ أرواحُ وأبدانُ

وطفلةٍ مثلَ حُسنِ الشمسِ إذ طلعت   كأنما هي ياقوتٌ ومَرجانُ
يقُودُها العلجُ للمكروهِ مُكرهةً   والعينُ باكيةٌ والقلبُ حيْرانُ

ففي قوله إنهم صاروا عبيداً في بلاد الكفر محاولة لإثارة العاطفة الدينية، وفي وصفه بيعهم في أسواق الرقيق وهم يذرفون الدمع على ما آلوا إليه، ووصفه انتزاع الأطفال من أحضان أمهاتهم، محاولة لإثارة المشاعر الإنسانية، وفي وصفه للفتاة اليافعة الجميلة التي يكرهها (العلج) أي الجندي الإسباني على الفاحشة، محاولة لإثارة الحمية نحو العرض. وهي لا شك مشاهد تلهب المشاعر وتثير الأسى، لكنّ الشاعر يختم قصيدته بعد هذه المشاهد بتعليق مرّ وجارح، حيث يقول:

لمثل هذا يذوب القلب من كمدٍ   إن كان في القلب إسلامٌ وإيمان

وكأنه يريد أن يقول إنه لا يمكن أن يجتمع وقوع مثل هذه الحالات مع وجود الإسلام والإيمان.

ومثلما نجح الشاعر في مطلع قصيدته أن يأسر عقل القارئ ويبقيه معه طوال مراحل القصيدة بقوله:

لكلّ شيءٍ إذا ما تمّ نقصانُ   فلا يغرّ بطيب العيش إنسان

فإنه كذلك نجح بأن يترك صدىً بعيد المدى في عقل القارئ ووجدانه من خلال التشكيك بوجود الإسلام والإيمان، في البيت الأخير عندما قال:

لمثل هذا يذوبُ القلب من كمدٍ   إن كان في القلب إسلامٌ وإيمان

ومثل هذا الختام يجعل القصيدة مستمرةً رغم انتهاء أبياتها، ومثل هذه التقنية لا يحسنها إلاّ الشعراء الأفذاذ.

❖❖❖

أما ترابط أجزاء القصيدة من جهة الحالات الانفعالية للشاعر، فيتجلّى من خلال تطوّر انفعالاته تطوراً تصاعدياً، فقد كان انتقال الرندي من (اليقين) في البيت الأول إلى (الشك) في البيت الأخير، رهناً بتحوّلات عاطفية واضحة؛ فقد افتتح الشاعر قصيدته بحكمة تمثل بداية عقلانية متزنة تساعده وقارئه على استيعاب حجم المأساة التي حلّت بالأندلس، فجاءت أبيات القسم الأوّل التي يشهر فيها نظريته (نظرية التمام والنقصان) وتوابعها والبراهين عليها خطاباً عقلياً صرفاً. وقد تجلّى هذا الخطاب العقلي في الجانب

الأسلوبي على صورة مجموعة من الأسئلة والأجوبة تثير التأمّل وتنشط العقل:

أينَ الملوكُ ذوو التيجانِ من يمنٍ؟ وأينَ منهم أكاليلٌ وتيجانُ؟
وأينَ ما شادهُ شدّادُ في إرَمٍ؟ وأينَ ما ساسَهُ في الفُرسِ ساسانُ؟
وأين ما حازه قارونُ من ذهبٍ؟ وأين عادٌ وشَدادٌ وقحطانُ؟
أتى على الكلِّ أمرٌ لا مردَّ له حتّى قَضَوا فكأنَّ القومَ ما كانوا

لكن الشاعر عندما وصل إلى الحديث عن الشاهد الأندلسي لنظريته، أخذت عاطفته تبرز تدريجياً على حساب الخطاب العقلي، وذلك عندما راح يندب سقوط المدن الأندلسية ويتحدث عن الحزن والأسى الذي خلفه هذا السقوط، ولكي يوهم القارئ بأنه لم يتخلّ عن عقلانيته دفعةً واحدة حافظ الرندي حتى في تعبيره عن حزنه البالغ على ما آلت إليه المدن الأندلسية، حافظ على تقنية الأسئلة والأجوبة:

فاسألْ بلَنْسيةَ: ما شأن مُرسِيةٍ؟ وأين شاطبةٌ أم أين جيّانُ؟
وأين قُرطبةٌ دارُ العلوم فكم من عالمٍ قد سما فيها له شانُ؟
وأينَ حمصُ وما تحويه من نزهٍ ونهرُها العذبُ فياضٌ وملآنُ؟
قواعدٌ كنّ أركانَ البلادِ، فما عسى البقاءُ إذا لم تبقَ أركانُ؟

وعندما يتذكّر الشاعر تقصير المسلمين في نصرة إخوانهم الأندلسيين يزداد انفعاله حتى يبلغ درجة يمتزج فيها الغضب مع السخرية والتقريع من غير أن يتخلّى عن تقنية السؤال والجواب، ولكنها أسئلة استنكارية تنسجم مع التقريع:

أعِندكم نبأٌ من أهلِ أندلس؟ فقدْ سرى بحديث القومِ رُكبانُ
ماذا التقاطعُ في الإسلام بينكُمُ، وأنتُم - يا عبادَ اللّه - إخوانُ؟!
ألا نفوسٌ أبيّاتٌ لها هممٌ؟! أما على الخيرِ أنصارٌ وأعوانُ؟!

وفي القسم الأخير من هذه القصيدة حيث عرض الشاعر لمجموعة من المشاهد المأساوية المؤثرة التي تصوّر ما أصاب مسلمي الأندلس من تشرّد وسبي واسترقاق وانتهاك أعراض وغيرها تتزاحم مشاعر الحزن والألم والغضب والمرارة فتدفع الشاعر الى حالة متقدمة من اليأس تفقده توازنه وتجعله يجاهر بإعلان شكّه بأنّ ثمّة إيماناً وإسلاماً. ولعلّ كثرة الأسئلة الاستفهامية والحوارية والاستنكارية والتعجبية التي تعجّ بها هذه القصيدة هي التي أفضت به إلى هذه النتيجة.

❖❖❖

لقد حرص الرندي على استخدام وسائل مختلفة للتأثير في المتلقّي، وذلك لأن شعوره بفداحة المأساة جعله لا يطيق حملها وحده فأراد أن يشرك معه جمهور عصره والعصور اللاحقة، فلجأ إلى مخاطبة العقول ومخاطبة الوجدان، وإلى مؤثرات فنية مختلفة، أما مخاطبته للعقل فتتجلّى في استفتاحه قصيدته بالحكمة ثم تقديم الأدلّة والبراهين والشواهد، وفي إكثاره من طرح الأسئلة والأجوبة والأسلوب الحواري، وفي محاولة تشخيصية لسبب المأساة وفي عرضه لبعض الحلول، وفي الدعوة الى أخذ العبرة والعظة، وغير ذلك.

وأمّا مخاطبة العاطفة فتبرز في محاولته إثارة حزن المسلمين على ما أصاب الأندلس وأهلها من قتل وأسر وسبي وبيع وتشريد وما أصاب الإسلام فيها من تحويل المساجد إلى كنائس والأذان الى قرع الأجراس والنواقيس.

وأمّا المؤثرات الفنية التي لجأ إليها الشاعر فكثيرة، وتتمثل في ما يلي:

1- العناية بالصورة بوصفها تقنية فاعلة من تقنيات الاتصال الجماهيري، والتأثير في المتلقي، وخاصة المتلقي المسلم في الأندلس وخارجها وفي زمن الشاعر، لتحريك مشاعره وضمان تعاطفه مع الأندلسيين واستثارة حميته لنصرتهم ومساعدتهم. وأكثر ما تتجلى هذه التقنية لدى عرض الشاعر مجموعة من المشاهد المؤثرة تمثل ما حلّ بالأندلسيين بعد استيلاء العدوّ على مدنهم. والذي ينعم النظر في هذه المشاهد يتخيل الشاعر ممسكاً بآلة تصوير تلفزيوني وينتقل بعدستها من مشهد الى مشهد، وكأنه يعيش في عصرنا عصر «إعلام الصورة» ممّا يدلّ على أنّ الشاعر قد قصد فعلاً أن يستخدم قصيدته للقيام بدور إعلامي جماهيري.

وعندما شرع الرندي بعرض هذه المشاهد، بدأها بعبارتين لهما وظيفتهما الأساسية وهما «فلو تراهم» و «ولو رأيت»؛ فقد أدّت هاتان العبارتان وظيفة تهيئة العقل والمخيلة لدى القارئ لتمثّل المشاهد التي ستعرض واستقبالها بوضوح، وهي تشبه بذلك مفتاح التلفزيون.

وتمثّل هذه المشاهد في طريقة عرضها الانتقال من المشهد الكلّي (العامّ) إلى مشاهد تفصيلية (الخاصّ)، كما تفعل آلة التصوير التلفزيونية أيضاً. أما المشهد الكلي فيتجلى في قول الشاعر:

يا مَنْ لذلّة قومٍ، بعد عِزِّهِمُ،   أحالَ حالهمُ كفرٌ وطُغيانُ
بالأمسِ كانوا مُلوكاً في منازِلِهِمْ،   واليومَ همْ في بلادِ الكُفرِ عُبدانُ
فلوَ تراهُمُ حيارى لا دليلَ لهم   عليهمُ منْ ثيابِ الذلِّ الوانُ

فهو مشهد قومٍ ذلّوا بعد أن كانوا أعزّة وملوكاً، وأصبحوا الآن عبيداً في بلاد الأعداء، ويسيرون حيارى تائهين لهول ما أصابهم، تظهر عليهم صورٌ من الذلّ وعلاماته.

ثم تنتقل عدسة آلة التصوير إلى مشاهد تفصيلية مؤثرة، منها: مشهد بيع بعض الأسرى والمساومة عليهم وهم مكبلون في الأغلال ويذرفون الدمع:

ولو رأيت بكاهم عند بيعهم   لهالك الأمرُ واستهوتك أحزان

ثم تنتقل عين العدسة إلى مشهد إنساني فاجع آخر وهو مشهد أمّ ينتزع الأعداء طفلها من بين يديها فيصبح الطفل مع فريق والأمّ مع فريق آخر، وكلا الأمّ والطفل يتشبث بالآخر وهو يصيح، ثم يفرّق الأعداء بينهما كما تفرّق الروح عن البدن:

يا ربّ أمّ وطفلٍ حيل بينهما   كما تفرّق أرواحٌ وأبدانُ

ثم يواصل الشاعر تفطير أكباد قرائه (مشاهديه) ويمعن فيهم إيجاعاً عندما ينقل عدسته إلى مشهد آخر، وهو مشهد فتاة حديثة البلوغ فائقة الجمال كأنما هي الياقوت والمرجان، يقودها علج إسباني ضخم الجثة لا رأفة عنده ليمارس معها المكروه رغماً عنها وهي تحاول التحرر من قبضته:

وطفلةٍ مثل حسن الشمس إذ طلعت   كأنما هي ياقوتٌ ومرجانُ
يقودها العلج للمكروه مكرهة   والعين باكيةٌ والقلبُ حيرانُ

إنّ هذه المفارقة التي أقامها الشاعر بين تلك الفتاة الجميلة حديثة السنّ وبين ذلك الإسباني الضخم المتوحش، إنما قصد منها جعل إكراهها على المكروه من قبل ذلك (العلج) أمراً حتمياً أو بالغ الاحتمال.

وكما يفعل المراسل التلفزيوني بعد أن ينهي عرض مشاهده، علّق الرندي على هذه المشاهد بكلام يعبّر عن حزنه البالغ وتأثره الشديد:

لمثل هذا يذوب القلب من كمد   إن كان في القلب إسلامٌ وإيمانُ

وفي استخدام الشاعر لكلمتي (والعين) و (القلب) على إطلاقهما في البيتين الأخيرين:

يقـــودها العلج للمكروه مكرهةً والعين باكـيـةٌ والقلبُ حـيـران
لمثل هذا يذوب القلب من كـمـدٍ إن كـان في القلب إسـلامٌ وإيمانُ

من غير أن ينسب أياً منهما إلى شخص بعينه، إشارة إلى الأثر الإنساني العام لهذه المشاهد، فالعيون والقلوب هنا هي عيون الذين يتعرضون للمحنة وعينا الشاعر وعيون المسلمين كافة وعيون البشرية جمعاء، وكذلك القلوب هي قلوب الناس كافة.

ويلاحظ كذلك أنّ كلمة (القلب) وردت في البيتين الأخيرين ثلاث مرات، مما يدل على عمق تأثير هذه المشاهد ومداه على الذين يتعرضون للمحنة وعلى الشاعر وعلى المسلمين والبشرية جمعاء.

لقد كان تصوير الشاعر لهذه المشاهد تصويراً واقعياً، ولم يكن في حاجة إلى المبالغة في استخدام محسنات بيانية إضافية من استعارات وكنايات وتشخيص وغيرها لتوضيح الصور، لأنّ الصور في حدّ ذاتها تمثّل المأساة في أدق تصوير وأوضحه، بل إنّ واقعية هذه الصور والمشاهد هي مصدر أساسي للتأثير في القارئ والمشاهد، واكتفى الشاعر باستخدام شكل بسيط وقليل من المحسنات البيانية وهو التشبيه وبعض الاستعارات، كالفتاة البارعة الجمال يكفيها قليلٌ من الكحل لإبراز جمالها، لأنها في غنى عن المبالغة في الزينة الإضافية. ويلاحظ كذلك أنّ التشبيهات التي استخدمها الشاعر جاءت بعد عرض الصورة الواقعية، في مثل قوله:

يا ربّ أم وطفلٍ حيل بينهما كما تفرّق أرواح وأبدان

فقد جاء التشبيه في قوله «كما تفرّق أرواح وأبدان» بعد عرض الصورة الواقعية للأمّ التي انتزع طفلها منها، مع أن التشبيه تضمن معنى يفوق المعنى الوارد في الصورة الحقيقية.

وكذلك في قوله:

وطفلةٍ مثل حسن الشمس إذ طلعت كأنما هي ياقوتٌ ومرجان

جاء التشبيه في قوله «كأنما هي ياقوت ومرجان» بعد أن عرض الصورة الحقيقية الواقعية للفتاة.

أما خارج إطار هذه المشاهد الواقعية المؤثرة، فقد لجأ الرندي كثيراً إلى المحسّنات البيانية المختلفة وبخاصّة تقنية التشخيص التي تقوم على الاستعارات. وقد تبدّى ذلك في

موضعين في وصف الدهر، وفي وصف المدن الأندلسية ومحاريبها ومنابرها. والتشخيص في هذين الموضعين يخدم مقاصد الشاعر، ففي تشخيصه للدهر بوصفه يشهر سيفاً للفناء يقاتل به الناس، وبوصفه لا يغمض له جفن، أراد الشاعر أن يعمّق إحساس القارئ بالرهبة من الدهر وبالتالي إيصال الرسالة التي تحملها القصيدة إليه وهي أنّ الدهر كفيل بتغيير كلّ شيء وإفنائه، حيث يقول عن الدهر:

وينتضي كلّ سيفٍ للفناء ولو　　　كان ابن ذي يزن والغمد غمدان

وقوله:

يا غافلاً وله في الدهر موعظةٌ　　　إن كنت في سنة فالدهر يقظان

وأمّا الموضع الثاني فهو وصف المدن الأندلسية ومحاريبها ومنابرها، فقد صوّرها نساءً توجّه إليها أسئلة عن أخواتها:

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية　　　وأين شاطبة أم اين جيّان

...

ثم صور الإسلام والمحاريب والمنابر أشخاصاً يندبون الأندلس وينوحون عليها:

تبكي الحنيفية البيضاء من أسفٍ　　　كما بكى لفراق الإلف هيمانُ

...

حتى المحاريب تبكي وهي جامدةٌ　　　حتّى المنابر ترثي وهي عيدانُ

وقد تمثلت غاية الشاعر من تشخيص المدن الأندلسية والإسلام والمحاريب والمنابر في أنسنتها من أجل إثارة المزيد من الحزن الإنساني على فقدها.

أمّا التشبيهات فوقعت في الأبيات التالية:

- اتى على الكلُ أمــرٌ لا مــردٌ له　　　حـتّى قـضـوا فكأنّ القومَ مـا كـانوا

- وصـار مـا كـان من مُلكٍ ومن مَلكٍ　　　كـمـا حكى عن خَـيـال الطّيف وسْنانُ

- تبْكي الحنيفـيّةُ البـيـضـاءُ من أسفٍ　　　كـمـا بكى لِفِـراقِ الإلْفِ هـيْـمـانُ

- يا راكـبينَ عِـتـاقَ الخـيلِ ضـامـرةً　　　كـانّهـا في مـجـالِ السّبْقِ عُـقـبـانُ

- وحـاملين سـيـوفَ الهِندِ مُـرْهفـةً　　　كـأنّهـا في ظَلام النّقْع نيـرانُ

- يا رُبّ أمٌ وطفلٍ حـيلَ بينهـمـا　　　كـمـا تُفـرّقُ أرواحُ وابـدانُ؛

- وَطفلَةٍ مثلَ حُسنِ الشمسِ إذ طلعت   كأنَّما هي ياقوتٌ ومَرجانُ

وقد حقّق الشاعر من هذه التشبيهات غرضين، الأوّل هو التقليل من قدر المشبّه كما في البيتين الأولين، والغرض الثاني هو الإعلاء من قدر المشبه كما في بقية الأبيات. وينسجم ذلك مع حرص الشاعر على التقليل من قدر الحياة الدنيا بكلّ ما فيها من ممالك وملوك، خدمةً لنظريته التي بنى عليها قصيدته، ومع حرصه على المبالغة في وصف ما لحق بالأندلس ومدنها، فاتكأ على التشبيهات لتحقيق هاتين الغايتين.

المحسنات البديعية:

استخدم الرندي لونين من ألوان المحسّنات البديعية وبرع فيهما، وهما الطباق والجناس. ولئن كانت أجواء الرثاء تنأى بالناس والشعراء عن الإفراط في الزينة، إلاّ أن الشاعر لم يقصد تزيين نصّه فالطباق يناسب الرثاء في العادة، لأنّ من شأن الرثاء أن يقارن بين ما كان وما هو كائن، ويتأمل الحاضر ويقارنه بالماضي، مما يتطلب استدعاء عدد من الثنائيات الضدّية المتصلة بأحوال المرثي سواءً أكان شخصاً أم مدنية أم غيرهما.

ومن هنا فإنّ قصيدة الرندي اشتملت على عددٍ من هذه الثنائيات ولا سيّما أنّ الشاعر أقامها على فكرة انقلاب الزمن وحدوث النقصان بعد التمام، وذلك في سياق المقارنة بين ما كانت عليه الأندلس ومدنها وأهلها قبل السقوط وما آلوا إليه بعد السقوط؛ فالإسلام حلّ محلّه الكفر، والمساجد صارت كنائس، والعزّة استحالت مذلة والمسرّات استحالت أحزاناً، والتمام استحال نقصاناً:

- لكلُّ شَيءٍ إذا ما تَمَّ نُقْصانُ   فلا يُغَرَّ بطيبِ العيش إنسانُ

- هِيَ الأمورُ كما شاهدتُها دُولٌ؛   «منْ سرّهُ زمنٌ ساءتهُ أزمانُ»

- فجائعُ الدّهرِ أنواعٌ مُنوَّعةٌ،   وللزّمانِ مسرّاتٌ وأحزانُ؛

- على ديارٍ من الإسلامِ خاليةٍ؛   قد أقفرتْ ولها بالكُفرِ عُمْرانُ

- حيثُ المساجدُ قد صارتْ كنائسَ ما   فيهنّ إلاّ نواقيسٌ وصُلْبانُ؛

- يا غافلاً، وله في الدّهرِ موعِظةٌ   «إنْ كُنتَ في سِنةٍ فالدّهرُ يقْظانُ

- يا منْ لذلّة قومٍ، بعد عزِّهمُ،   أحالَ حالهمُ كفرٌ وطُغيانُ

- بالأمسِ كانوا مُلوكاً في منازِلِهمْ،   واليومَ همْ في بلادِ الكُفرِ عُبدانُ

إنّ هذه الثنائيات التي تشتمل عليها الأبيات تمثل القضية المركزية في القصيدة:

التمام	النقصان
سرّه	ساءه
مسرّات	أحزان
الإسلام	الكفر
العزّ	الذلّ
منازلهم	بلاد الكفر
ملوك	عبيد

فالكلمات في العمود الأول تمثل حال الأندلسيين والأندلس قبل سقوطها، والكلمات في العمود الثاني تمثل حال الأندلسيين والأندلس بعد سقوط مدنها، ولئن جعل الشاعر الإسلام والأندلس في جانب فإنّه جعل الكفر والدهر في الجانب النقيض، ولذلك فإنه حذّر المسلمين من الدهر، حين قال:

يا غافلاً وله في الدهر موعظةٌ إنْ كنت في سنةٍ فالدهر يقظانُ

أمّا الجناس في القصيدة فهو أيضاً لا يقصد منه الزينة اللفظية بمقدار ما يقصد الشاعر توظيفه لخدمة المعاني التي أراد إبرازها. وقد تركّزَ الجناس في القصيدة عند استعراض الشاعر للأمم والممالك والملوك العظيمة ذائعة الصيت والشهرة التي أفناها الزمن، فقد جاء الجناس كأنه محاولة من الشاعر لإبراز ما بلغته تلك الممالك من العظمة والبهرجة والزينة والزخرفة:

وأين ما شاده شدّاد في إرم وأين ما ساسه في الفرس ساسانُ

دار الزمان على دارا وقاتله وأمّ كسرى فما آواه إيوانُ

فالعلاقة بين شاد وشدّاد، وساس وساسان، ودار ودارا، وآوى وإيوان، ليست مجرد علاقة تجانس صوتي، وإنما علاقة معنوية كذلك، فلا أحد يستطيع ان ينكر أن شداداً شاد إرم ذات العماد، وأن ساسان ساس بلاد الفرس، وأنّ الزمان قد دار على دارا، وأن كسرى كان يأوي الى إيوانه، وقد عمّق هذا التجانس المعنى الذي رمى إليه الشاعر، كما أنّ استخدامه انطوى على سخرية الشاعر من عظمة تلك الممالك البائدة وهؤلاء الملوك، إذ لم

تغن عظمتهم ولا عظمة ملكهم ولا زينته وزخرفته شيئاً أمام قوة الدهر وبطشه. فجاء الجناس في هذه الأبيات ليس بقصد تزيين القصيدة بل لتحقيق انسجام فنّ القول مع حالة (التمام) التي بلغتها تلك الممالك عظمة وزينة وزخرفة وسلطاناً.

وكان التكرار في هذه القصيدة شكلاً من أشكال التجانس الصوتي، وقد أدّى هذا التكرار أكثر من وظيفة، فقد أشاع في القصيدة إيقاعاً حزيناً ينسجم مع أجوائها وموضوعها:

- اينَ الملوكُ ذوو التيجانِ من يمنٍ، وأينَ منهم اكاليلٌ وتيجانُ
- وللحوادثِ سُلوانٌ يسهّلها وما لما حلّ بالإسلام سلوانُ
- قواعدٌ كنّ اركان البلاد فما عسى البقاء إذا لم تبق اركان

ويلاحظ في هذه الأبيات الثلاثة أن الشاعر يصنع إيقاعاً باختياره كلمة من داخل البيت يجعلها تتكرر في آخره.

أما تكراره لأدوات النداء وأدوات الاستفهام فالغاية منه أن يحافظ على يقظة القارئ ومشاركته له في تمثّل حجم المصيبة، لأن تكرار أداة النداء وأدوات الاستفهام تنبه السامع وتثير عقله ووعيه ووجدانه، فيبقى مع المتكلم حتى يتمّ كلامه، وذلك لأنّ الرندي في هذه القصيدة لا يستطيع أن يحتمل بمفرده وقع المأساة والدروس المستخلصة منها فحرص على أن يشرك قراءه وسامعيه معه في الشعور بهذه المأساة.

الإيقاع:

ويتمثل أبرز ما يتمثل في المماثلة وهي تقنية لجأ اليها الشاعر لتوليد إيقاعات داخل القصيدة تحمل عبء الندب والرثاء، فلئن كان في تكرار ألفاظ وأدوات بعينها ما يولّد إيقاعات في القصيدة، فإنّ تكرار أوزان يعمّق من صدى هذه الايقاعات، ومن ذلك:

يا راكبين عتاق الخيل ضارةٍ كأنها في مجال السبق عقبانُ
وحاملين سيوف الهند مرهفةً كأنها في ظلام النقع نيران

فكلّ كلمة في البيت الثاني تكاد تكون مطابقة في وزنها للكلمة التي تقابلها في البيت الاول من حيث الوزن والنوع والإعراب.

كما أنّ اختيار الشاعر لقافية النون المضمومة المشبعة المسبوقة بحرف المدّ الألف، يتفق مع أجواء الحزن والأنين، وكذلك كان اختياره لوزن البحر البسيط بتفعيلاته الثماني، إنما

يعطي مجالاً أكبر للشاعر لتفريغ شحناته العاطفية. وذلك كله يصبّ في خدمة إيقاع الحزن في القصيدة.

استلهام قصائد الحكمة والرثاء السابقة:

كان وقع مأساة سقوط المدن الأندلسية وتسليم حصونها شديداً على أبي البقاء الرندي، وكان حزنه أعظم من أن تحيط به العبارة، فاستعان بما تختزنه ذاكرته من ثقافة أدبية وتاريخية واسعة، فاستعرض أشهر حوادث التاريخ البشري، ومدّ يديه إلى من عرف من شعراء الأمّة الإسلامية الذين تحدّثوا في الحكمة والرثاء كي يغيثوه ويطلقوا لسانه في القول.

والمتفحّص لقصيدة الرندي يلاحظ تأثره بعدد من القصائد السابقة التي تجري على وزن البحر البسيط وقافية النون المضمونة المسبوقة بحرف الألف مثل قصيدة الشريف الرضي (406 هـ) في وصف أسد، ومطلعها :

اسلْ بدمعك وادي الحيّ إذ بانوا   إنّ الدموع على الأحزان أعوان[14]

وفيها كثير من الأبيات الزاخرة بالحكمة وتتحدث عن الدهر وتقلباته، وأبيات أخرى تلتقي مع أبيات الرندي في الألفاظ والمعاني، ومنها :

إنْ قلّص الدهر ما أضفاه من جدةٍ   فصنعةُ الدهر إعطاءٌ وحرمانُ

وقوله: **العزمُ في غير وقت العزم مَعْجَزَةٌ   والازديادُ بغير العقل نُقْصانُ**

والمعاني في هذين البيتين متفقة مع معنى (التمام والنقصان) الذي قامت عليه قصيدة الرندي.

وقوله عن الأسد:

ماشى الرفاق يراعي أين مسقطهم   والسمعُ منتصبٌ والقلبُ يقظانُ

وهو يشبه قول الرندي: إن كنت في سنةٍ فالدهر يقظانُ

وقوله: **إلى كم الرحمِ البلهاءُ شاكيةٌ   لها من النعي إعوالٌ وإرنانُ؟!**

حيْرى يضلّونها ما بيننا ولها   منّا على عُدَواءِ الدهرِ نشدانُ

النجْرُ متفق والرايُ مختلفٌ   فالدارُ واحدةٌ والدينُ أديانُ؟!

وهذه الأبيات تشبهها أبيات الرندي:

ماذا التقاطع في الإسلام بينكم وأنتم يا عباد الله إخوان

وقول الرضيّ:

انّى يُتاهُ بكُمْ في كلّ مُظلمةٍ وللرشاد امارات وعنوانُ

يشبهه قول الرندي: وللزمان مسرّات وأحزان

وقول الرضيّ:

كم اصطبارٌ على ضيم ومنقصةٍ وكم على الذلّ إقرارٌ وإذعانُ

وفيكم الحاملُ الهمهام مسرحه داجٍ ومن خلق الماذيّ أبدانُ

والخيلُ مخطفةُ الأوساط ضامرةٌ كأنهن على الأطوادِ ذؤبانُ

وهذه الأبيات الاخيرة تشبهها أبيات الرندي:

يا راكبين عتاق الخيل ضامرةً كأنها في مجال السبق عقبان... الخ

كما تتفق القصيدتان في أسلوب التقريع والدعوة الي التضامن والتعاون وصلة الأرحام.

ومن القصائد التي تأثر بها الرندي في قصيدته؛ قصيدة الشاعر الأندلسي محمد بن غالب الرصافي البلنسي (ت 572 هـ) التي مطلعها:

مَنْ عاندَ الحقّ لم يعضده برهانُ وللهدى حجّةٌ تعلو وسلطانُ(5)

ومن أبياتها:

الحمد لله حمد العارفين به قد نوّر القلبَ إسلامٌ وإيمانُ

ويشبهه قول الرندي:

لمثل هذا يذوب القلب من كمدٍ إن كان في القلب إسلامٌ وإيمانُ

غير أنّ أكثر القصائد التي تأثر بها الرندي هي قصيدة أبي الفتح البُستي (ت 401 هـ) المشهورة التي مطلعها:

زيادةُ المرء في دنياه نقصانُ وربحه غير محض الخير خُسرانُ(6)

فهذا المطلع يشبهه مطلع قصيدة الرندي:

لكلّ شيء إذا ما تمّ نقصانُ ...

ومن أبيات البستي:

يا نائماً فرحاً بالعزّ ساعده　　　إن كنتَ في سنةٍ فالدهر يقظان

وقد أخذه الرندي فقال:

يا غافلاً وله في الدهر موعظةٌ　　　إن كنت في سنة فالدهر يقظانُ

وماشياً مرحاً يلهيه موطنه　　　................

ومن أبيات البستي:

لا تحسبنّ سروراً دائماً أبداً　　　من سرّه زمنٌ ساءته أزمانُ

وقد أخذه الرندي فقال:

هي الأمور كما شاهدتها دولٌ　　　من سرّه زمنٌ ساءته أزمانُ

ومن أبيات البستي:

كلّ الذنوب فإنّ الله يغفرها　　　إنْ شيّع المرء إخلاصٌ وإيمانُ

ويشبهه قول الرندي:

لمثل هذا يذوب القلب من كمدٍ　　　إن كان في القلب إسلامٌ وإيمانُ

ومن أبيات البستي:

وكلّ كسْرٍ فإنّ الله يجبرهُ　　　وما لكسرِ قناةِ الدين جبرانُ

أخذه الرندي فقال:

وللحوادث سلوانٌ يسهّلها　　　وما لما حلّ بالإسلام سُلوانُ

وأخيراً فإنّ في قصيدة الرندي مزايا فنية كثيرة مثل اعتدال طولها وخلوّها من التعقيد اللفظي والمعنوي وقدرتها على الاستحواذ على عقل القارئ والتأثير في وجدانه، مما أسهم في تخليدها على مرّ الزمان، وإقبال الناس عليها قراءة وزيادة وحفظاً ومعارضة.

الحواشي والتعليقات

(1) وردت القصيدة في الذخيرة السنيّة 112-114، والبيان المغرب - قسم الموحدين ص463-464، ونفح الطيب 486/4، وأزهار الرياض 47/1

(2) انظر ترجمته في الذيل والتكملة لابن عبدالملك المراكشي 137/4، وصلة الصلة لابن الزبير 84/3-85، ونفح الطيب للمقّري 489/4، والإحاطة 360/3-376، والإحاطة / نصوص جديدة ص57-60

(3) الذخيرة السنية 112

(4) ديوان الشريف الرضي 448/2-453، دار صادر، بيروت، 1980

(5) ديوان الرصافي البلنسي 127-130

(6) ديوان أبي الفتح البستي ص311-317

الفصل الخامس

أغماتيّات المعتمد بن عبّاد:
قراءة مقارنة

أغماتيّات المعتمد بن عباد وروميّات أبي فراس الحمداني؛

قراءة مقارنة

بين الشاعرين الأميرين أبي فراس الحمداني (320 - 357 هـ) والمعتمدين بن عباد (431 - 488هـ) كثير من وجوه التشابه، فكلاهما شاعرٌ معروف وفارسٌ مشهور وأميرٌ ذو شأن، وكلاهما وقع في أسر أعدائه، وخلّف قصائد بديعة مؤثرة في وصف محنة السجن، وكان كلاهما وقع في الأسر بعد أن أثخن بالجراح، وكلاهما عانى المرض في سجنه، وكذلك تساوت مدة أسر كل منهما.

أما أبو فراس الحمداني الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي، فكان من أمراء بني حمدان في حلب وفارساً قويّ الشكيمة وشاعراً عذب القول، وقد أسره الروم سنة 351 هـ عندما أغاروا على منبج، وبقي في أسرهم إلى سنة 355 هـ حين فادى سيفُ الدولة الحمداني الروم، فأطلقوا سراحه. وقد قال في سجنة الكثير من القصائد العذبة المتقنة المؤثرة التي عرفت بالروميّات.

أما المعتمد بن عبّاد، محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل بن عبّاد، فكان ملكاً على مدينة إشبيلية (461 هـ – 484 هـ) وكان فارساً شجاعاً وشاعراً بارعاً، وقع في أسر المرابطين الذين جاءوا من المغرب ليبسطوا سيطرتهم على الأندلس بعد أن عاث بها ملوك الطوائف فساداً، واقتاده المرابطوان إلى سجن أغمات بالقرب من مراكش سنة 484 هـ وبقي في الأسر حتى جاءته منيّته سنة 488 هـ. وقد صدرت عنه في السجن أشعار مؤثّرة.

ولدى المقارنة بين ما قاله المعتمد في سجنه وما قاله أبو فراس في أسره نجد تشابهاً كبيراً في الموضوعات والمعاني وبعض الصور والتشبيهات، مما يوحي بأنّ المعتمد قد تمثّل شعر أبي فراس تمثلاً عميقاً، وليس ذلك بمستغرب على المعتمد الذي عرف بشدّة عنايته بالأدب والأدباء وسعة معرفته وثقافته حتى إنّه لم يتخذ من الوزراء إلاّ من كان شاعراً من أمثال أبي الوليد بن زيدون وابي بكر بن عمار وأبي بكر بن اللبانة، وقد اشتمل بلاطه على عدد كبير من مشاهير الشعراء من أمثال ابن حمديس الصقلي وابن عبد الصمد وابن وهبون وابن المرعي النصراني وغيرهم.

غير أن المعتمد كان أعلى كعباً في السياسة من أبي فراس، وكان أبو فراس أرسخ كعباً

وأطول باعاً في الشعر من المعتمد بن عباد، مما جعل المعتمد لا يجد حرجاً في تتبع خطى أبي فراس في الشعر.

تذكر المصادر أن أبا فراس الحمداني كان يتصيّد في سبعين فارساً عندما حاصره الروم في نواحي منبج سنة 351هـ فنصحه أصحابه بالفرار فأبى وظلّ يقاتل حتى أثخن بالجراح وأسر، وفي ذلك يقول: (1)

يقولون جنْبٌ، عادةٌ ما عرفتُها ... شديدٌ على الإنسانِ ما لم يُعَوَّدِ

ويقول من قصيدته المشهورة (أراك عصيّ الدمع): (2)

وقال أصيحابي: الفرار أو الردى ... فقلت هما أمران احلاهما مرٌّ
ولكنني أمضي لما لا يعيبني ... وحسبك من أمرين خيرُهما الأسر
فلا خير في دفع الردى بمذلّةٍ ... كما ردّها يوماً بسوءته عمرو

وقد وقع مثل ذلك للمعتمد بن عباد عندما حاصره جند المرابطين في قصره سنة 484 هـ فقاتلهم حتى أصابته الجراح ووقع في اسرهم، وقال في ذلك شعراً: (3)

لما تماسكت الدموعُ ... وتنبّه القلبُ الصديعُ
وتناكرت همي لما ... يستامُها الخطبُ الفظيعُ
قالوا: الخضوع سياسةٌ ... فليبْدُ منك لهم خضوع
وألذُّ من طعم الخضوع ... على فمي السمُّ النقيع
إنْ يسلُب القوم العدى ... مُلكيَ وتُسلمْني الجموعُ
فالقلبُ بين ضلوعه ... لم تُسْلمِ القلبَ الضلوع
لم اسْتَلَبْ شرفَ الطباع ... أيُسْلَبُ الشرف الرفيع
قد رُمْتُ يوم نزالهم ... الاّ تحصّنني الدروع
وبرزتُ ليس سوى القميص ... عن الحشى شيءٌ دفوعُ
وبذلتُ نفسي كي تسيلَ ... إذا يسيلُ بها النجيعُ
ما سرتُ قطّ إلى القتال ... وكان من أملي الرجوعُ
شيمُ الألى انا منهم ... والأصل تتبعه الفروع

ومن الواضح تشابه المعاني بين شعر أبي فراس وشعر المعتمد، فكلاهما يرفض نصيحة الأصدقاء بالاستسلام للأعداء، وكلاهما يتحدث عن تضحيته من أجل شرف الموقف، وكلاهما يفضل الموت على ذلّة العيش، ويرى أنّ ذلك ممّا نشأ وتربّى عليه من الخصال الشريفة.

وممّا أشبه به المعتمد أبا فراس أنّ كليهما خاطب الطيور والحمائم من سجنه لدى مشاهدته لها، فقد سمع أبو فراس حمامةً تنوح على شجرة عالية وهو مأسور، فقال: (4)

اقول وقد ناحت بقربي حمامةٌ ... أيا جارتا هل بات حالكِ حالي؟
معاذَ الهوى ما ذقتِ طارقة النوى ... وما خطرت منكِ الهمومُ ببالِ
أتحملُ محزونَ الفؤادِ قوادمٌ ... على غُصُنٍ نائي المسافةِ عالِ؟
أيا جارتا من أنصف الدهر بيننا ... تعاليْ أقاسمْكِ الهمومَ تعالي
تعالي تريْ روحاً لديَّ ضعيفةً ... ترددُ في جسمٍ يُعذَّبُ بالِ
ايضحكُ مأسورٌ وتبكي طليقةٌ ... ويسكُتُ محزونٌ ويندبُ سالِ؟
لقد كنتُ أولى منك بالدمع مقلةً ... ولكنَّ دمعي في الحوادث غالِ

أما المعتمد فقد مرّ وهو في موضع اعتقاله سرب قطا يسرح ويمرح في الجوّ، فقال: (5)

بَكيتُ إلى سرب القطا إذ مَرَرْنَ بي ... سوارحَ لا سِجْنٌ يعوقُ ولا كبْلُ
ولم تك، والله المعيد، حسادةً ... ولكنْ حنيناً إنّ شكلي لها شكلُ
فأسرحُ، فلا شملي صديعٌ ولا الحشا ... جميعٌ ولا عيناي يبكيهما ثُكْلُ
هنيئاً لها ان لمْ يُفرَق جميعُها ... ولا ذاقَ منها البُعْدَ عن اهلها اهْلُ
وانْ لم تبتْ مثلي تطير قلوبُها ... إذا اهتزَّ بابُ السجن أو صلصل القفلُ
وما ذاكَ ممّا يعتريني وإنّما ... وصفتُ الذي في جبلةِ الخلقِ من قبلُ
لنفسي إلى لقيا الحِمام تشوّفٌ ... سوايَ يحبُّ العيشَ في ساقه كبْلُ
الا عصم الله القطا في فراخها ... فإنّ فراخي خانها الماءُ والظلُّ

وورد في كتاب قلائد العقيان للفتح بن خاقان الإشبيلي أن المعتمد رأى قمرية بائحة بشجنها نائحة بفننها على سكنها وأمامها وكرٌ فيه طائران يرددان نغماً ويغردان ترحة

وترنماً، فقال يصف القمرية وفرخيها ويرثي في الوقت ذاته ابنيه المأمون والراضي: (6)

بكت أنْ رأت إلفيْن ضمَّهما وكرُ ... مساءً وقد أخنى على إلفها الدهْرُ
بكت لم تُرقْ دمعاً وأسبلْتُ عبرة ... يقصّر عنها القطرُ مهما همى القطْرُ
وناحت فباحت واستراحت بسرّها ... وما نطقت حرفاً يبوح به سرُّ
فمالي لا أبكي أم القلبُ صخرةٌ ... وكم صخرةٍ في الأرض يجري بها نَهْرُ[7]
بكت واحداً لم يشجها غير فقده ... وأبكي لآلاف عديدهم كُثْر
بنيٌّ صغيرٌ أو خليلٌ موافقٌ ... يمزّق ذا قفرٌ ويغرق ذا بحرُ
ونجمان زينٌ للزمان احتواهما ... بقرطبة النكداء أو رندة القبرُ
عذرت إذاً إنْ ضنَّ جفني بقطرةٍ ... وإن لؤمت نفسي فصاحبها الصبْرُ
فقل للنجوم الزُهرْ تبكيهما معي ... لمثلهما فلتحزن الأنجمُ الزُهْرُ

وبين مقطوعتي المعتمد بن عبّاد ومقطوعة الحمداني أوجه شبه عديدة، فالمقطوعات الثلاث جميعها على البحر الطويل، لأنه من أكثر بحور الشعر ملاءمة للتعبير عن الحزن والشكوى، ولا سيما إذا كان الحزن مقيماً منذ زمن طويل في أعماق نفس الشاعر، وجميعها تتحدث عن ظلم الدهر، كما أنها تسعى جميعاً إلى عقد مقارنات بين حال الشاعر وحال تلك الطيور، وإسقاط أحاسيس الشاعر عليها. وتظلّ هذه الطيور في جميع الأحوال رمزاً للحريّة التي يتطلّع إليها الشاعر.

غير أن المتأمّل لأبيات المعتمد في وصف القمرية التي فقدت إلفها وأقامت مع فرخيها تنعاه، يجد أنها أكثر تأثراً بقصيدة أبي فراس الحمداني التي مطلعها:

أراك عصيَّ الدمع شيمتك الصبرُ ... أما للهوى نهيٌ عليك ولا أمر؟!

فهي تجري على وزن قصيدة أبي فراس وقافيتها ورويّها وتتضمّن غير قليل من معانيها، فقولُ المعتمد:

فماليَ لا أبكي أم القلبُ صخرةٌ ... وكم صخرةٍ في الأرْض يجري بها نهرُ

وقوله:

عُذرِتُ إذا إنْ ضنَّ جفني بقطرةٍ ... وإنْ لؤمت نفسي فصاحبُها الصبرُ

شبيهان إلى حدّ كبير بقول أبي فراس:

اراك عصيَّ الدمع شيمتك الصبر   اما للهوى نهيٌ عليك ولا امْرُ

وقولِه:

إذا الليلُ اضواني بسطتُ يد الهوى   واذللت دمعاً من خلائقه الكبر

ومما يلفت الانتباه أن مقطوعة المعتمد التي يبلغ عدد أبياتها تسعة أبيات، قد انتهت سبعة أبيات منها بكلمات انتهت بها أبيات أبي فراس، مثل كلمة (الدهر) في قول المعتمد:

بكت ان رات إلفين ضمّهما وكر   مساءً وقد اخنى على إلفها الدهرُ

فهي في قصيدة أبي فراس:

فقالت: لقد ازرى بك الدهر بعدنا   فقلت: معاذ الله بل انتِ لا الدهرُ

وكلمة "القَطرْ" في قول المعتمد:

بكت لم تُرِقْ دمعاً، واسبلتُ عبرةً   يقصّر عنها القَطْرُ مهما همى القَطْرُ

فهي في قصيدة أبي فراس:

معللتي بالوعد والموتُ دونه   إذا متُّ ظمآناً فلا نزل القطر

وكذلك كلمات: سرّ، كُثر، بحر، القبر، الصبر.

وممّا وقع من التشابه بين الشاعرين، ما قاله كلاهما في العيد، وقد أتى على كلّ منهما وهو في الأسر، فممّا قاله أبو فراس الحمداني وقد حضر العيد:(8)

يا عيد ما عُدتَ بمحبوب   على معنّى القلبِ مكروب

يا عيدُ ما عُدْتَ على ناظرٍ   مِنْ كلّ حُسْنٍ فيكَ محجوبِ

يا وحشةَ الدارِ التي ربُّها   اصبح في اثواب مربوب

قد طلع العيدُ على ربُّها   بوجه لا حُسْنٍ ولا طيبِ

مالي وللدهر واحداثِهِ   لقد رماني بالأعاجيب

امّا المعتمد بن عباد فقد جاء عليه أول عيد في الأسر ودخل عليه من بنيه من يسلّم عليه ويهنّيه، وفيهم بناته وعليهن أطمار يبكين ويظهرن الخشوع وأقدامهنّ حافية، فقال:(9)

فيما مضى كنتَ بالأعياد مسرورا   فساءك العيدُ في اغماتَ ماسورا

ترى بناتك في الأطمار جائعةً   يغزلن للناس، ما يملكن قطميرا

برزن نحوك للتسليم خاشعةً ... أبصارُهنَّ حسيراتٍ مكاسيرا
يطأْنَ في الطين والأقدامُ حافيةٌ ... كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا
لا خدَّ إلاّ تشكّى الجدْبَ ظاهره ... وليس إلاّ مع الأنفاس ممطورا
أفطرْتَ في العيد، لاعادت إساءته ... فكان فطرك للأكباد تفطيرا
قد كان دهرك إن تأمره ممتثلاً ... فردّك الدهر منهيّاً ومأمورا
من باتَ بعدك في مُلْك يُسَرُّ به ... فإنّما باتَ بالأحلام مغرورا

وتشترك المقطوعتان في استياء الشاعرين من العيد، فأبو فراس يقول:

يا عيدُ ما عُدْتَ بمحبوبِ ... على معنّى القلْبِ مكروب
يا عيدُ ما عُدْتَ على ناظرٍ ... من كلّ حُسْنٍ منِكَ محجوب
قد طلع العيدُ على ربّها ... بوجه لا حُسْنٍ ولا طيبِ

والمعتمد يقول:

فيما مضى كنتَ بالأعيادِ مسرورا ... فساءك العيدُ في اغمات مأسورا

ويقول:

افطرتَ في العيد لا عادت إساءته ... فكان فطرك للأكباد تفطيرا

كما تشترك المقطوعتان في النقمة على الدهر، فأبو فراس يقول:

مالي وللدهر وأحداثه ... لقد رماني بالأعاجيب

والمعتمد يقول:

قد كان دهرك إنْ تأمره ممتثلاً ... فردّك الدهر منهياً ومامورا

وهو قريب المعنى من قول أبي فراس:

يا وحشة الدار التي ربُّها ... أصبح في أثواب مريوبِ

فالمعتمد كان قبل الأسرْ آمراً وناهياً، وأصبح بعد الأسر منهياً ومأموراً، وأبو فراس كان قبل الأسر سيّداً فأصبح مع الأسر عبداً مأموراً.

وممّا يتشابه فيه الشاعران أن كليهما قد تذكر منازله وتشوّق إليها وهو في الأسر، فهذا أبو فراس يصف منازله بمنبج بقصيدة نذكر من أبياتها:(10)

قِفْ في رسوم المستجا ... ب وحيِّ أكناف المصلّى
ف (الجرس) فالفيّوم فالسُّـ ... قيا بها فالنهر أعلى
تلك المنازلُ والملا ... عبُ لا أراها اليوم محْلا
أُوطِنْتُها زَمَنَ الصّبا ... وجعلتُ منبج لي محلاّ
حيثُ التفتَّ وجدتَ ما ... ءً سابحاً وسكنْتَ ظِلاّ
تَرَ دار وادي عَيْنِ قا ... صِرَ منزلاً رحْباً مُطِلاّ
وتحلُّ بالجِسْرِ الجنا ... نَ وتسكن الحِصنَ المعلّى
تجلو عرائسه لنا ... موجَ الذباب إذا تجلّى
وإذا نزلنا بالسّوا ... جير اجتنينا العيشَ سَهْلاَ

....الخ

امّا المعتمد بن عبّاد فقد تذكر وهو في الأسر قصوره ومنازله في إشبيلية فقال:[11]

بكى (المبارَكُ) في إثر ابن عبّادِ ... بكى على إثر غزلانٍ وآسادِ
بكت ثريّاه لا غُمّتْ كواكبها ... بمثلِ نَوْءِ الثريّا الرائح الغادي
بكى (الوحيدُ) بكى (الزاهي) وقبّته ... والنهرُ والتاجُ كلٌّ ذلّه بادي
ماءُ السماءِ على أبنائه دررٌ ... يا لجّة البحْرِ دومي ذات إزبادِ

والمبارك والوحيد والزاهي من قصور المعتمد (الذخيرة، القسم الثاني، المجلد الأول، ص 76).

وقد أكثر الشاعران وهما في الأسر من ذكر أقاربهما ورثاء من توفي من هؤلاء الأقارب، فأبو فراس رثى أمّه بقصيدة مطلعها:[12]

ايا امّ الأسير سقاك عيثٌ ... تحيّر لا يُقيم ولا يسيرُ

والمعتمد قال عدة قصائد ومقطوعات في رثاء ابنه المأمون الذي قتله جيش ابن تاشفين بقرطبة سنة 484 هـ وابنه الراضي الذي قتله جيش ابن تاشفين برندة سنة 484 هـ أيضاً، منها قصيدته التي مطلعها:[13]

يقولونَ صبْراً لا سبيل إلى الصبر ... سابكي وابكي ما تطاول من عمري

وقصيدته التي مطلعها:[14]

يا غيمُ عينيَ اقوى مِنكَ تهتانا ... ابكي لحزني وما حُمّلْتُ أحزانا

وغير ذلك.

ومن الأغراض التي اشترك بها الشاعران، رثاء النفس، غير أن رثاء أبي فراس لنفسه قاله وهو خارج إلى لقاء قرغوية الذي كانت فيه وفاته، حيثُ قال مخاطباً ابنته:[15]

أبنيّتي لا تجزعي ... كلّ الأنام إلى ذهابِ
نوحي عليّ بحسرةٍ ... ما بيْنَ ستركِ والحجابِ
قولي إذا ناديتني ... وعييتُ عن ردّ الجواب:
زيْنُ الشبابِ أبو فرا ... س لم يُمتّع بالشباب

أما المعتمد فقد رثى نفسه وهو في الأسر، ويقال إنّه لّما أحسّ بدنوّ المنيّة أنشد هذه الأبيات وأمر أن تكتب على قبره، وفيها يمدح نفسه كما فعل أبو فراس. يقول المعتمد:[16]

قبرَ الغريبِ سقاكَ الرائحُ الغادي ... حقّا ظفرْتَ بأشلاءِ ابن عبّادِ
بالحلم بالعلم بالنعمى إذا اتّصلت ... بالخصب إن جدبوا بالريّ للصادي
بالطاعن الضارب الرامي إذا اقتتلوا ... بالموت أحمر بالضرغامة العادي
بالدهر في نقم بالبحر في نعمٍ ... بالبدر في ظُلَمٍ بالصدر في النادي
نعم هو الحقُّ وافاني به قدرٌ ... من السماءِ فوافاني لميعادِ
ولم أكن قبل ذاك النعش أعلمه ... أنّ الجبال تَهَادى فوق أعواد
كفاك فارفُق بما استودعْتَ من كرمٍ ... روّاك كلُّ قَطوب البْرق رعّادِ
يبكي أخاه الذي غيّبْتَ وابله ... تحت الصفيح بدمعٍ رائحٍ غادِ
حتّى يجودك دمعُ الطلّ منهمراً ... من أعين الزهر لم تبخل بإسعادِ
ولا تزالُ صلاة الله دائمةً ... على دفينك لا تُحصى بتعدادِ

إن تعدّد أوجه التشابه بين محنة أبي فراس الحمداني ومحنة المعتمد بن عبّاد في الأسر قد نتج عنه تعدّد في صور التشابه بين شعرهما الذي مثّل تلك المحنة، فتشابهت موضوعات شعرهما، مثلما تشابهت المعاني والمفردات اللغوية والصور الشعرية والأساليب وحتى الأوزان والقوافي أحياناً.

غير أن ثمة بعض اختلافات بين الشاعرين في تجربة الأسر تركت هي الأخرى أثرها على شعرهما ومايزت بينهما، من ذلك أنّ ابا فراس كان إبّان أسره يستند إلى بعض الأمل والتفاؤل بخلاصه من الأسر، إذ كانت إمارة بني حمدان في حلب تقف بكل قوتها خلفه ويعمل أميرها سيف الدولة الحمداني جاهداً على إطلاق سراحه حتى نجح في افتدائه، وكانت بين أبي فراس وسيف الدولة مراسلات بهذا الخصوص في أثناء فترة أسر أبي فراس. أما المعتمد بن عبّاد فلم يكن لديه أيّ حظ من الأمل أو التفاؤل بالنجاة من الأسر، لأنّ مملكته قد سقطت في أيدي آسريه ولم يبقَ له أحدٌ يسعى في خلاصه وينقذه على عكس ما جرى لأبي فراس. وقد أدّى ذلك إلى اتشّاح أشعار المعتمد في أسره بالحزن العميق والشعور بالمرارة واللوعة واليأس وحرارة التأثير وصدق العاطفة.

ومن أوجه الاختلاف بين الشاعرين ممّا ترك تمايزاً في شعرهما، أنّ المعتمد عانى الأسر وهو في آخر العقد السادس من عمره، بينما وقع أبو فراس في الأسر وهو في أوائل العقد الرابع من عمره، وقد جعل هذا التفاوتُ في السنّ عند التعرّض للأسر من شعر المعتمد أكثر نزوعاً إلى الحكمة وشكوى الدهر.

ومن جهة أخرى كانت تجربة المعتمد أشدّ قسوة من تجربة أبي فراس، فأبو فراس لم يفقد الكثير نتيجة أسره، أما المعتمد فأنزلته المحنة من عرش الملك وحياة القصور إلى زنزانة الأسر، ففقد ملكه بالكامل وتوالت عليه النكبات بدءاً من الخروج عن وطنه ومروراً بوفاة بعض أبنائه وانتهاءً بفقره وذلّه ومرضه ووفاته. وقد تكون قسوة هذه المحنة جعلت المعتمد يشعر بأنّ مأساته تقصرّ عنها العبارة وأنها أبلغ من أن ينفرد وحده بالتعبير عنها، فاستحضر تجارب من أسر من الأمراء قبله ليعينوه على التعبير عن هذه المحنة، وهذا ما يفسّر التشابه بين شعر هذين الأميرين في الأسر.

ويمكن القول كذلك إنّ تقدّم أبي فراس على المعتمد زمنياً ونبوغه الشعري في بلاط سيف الدولة وانصرافه إلى الشعر أكثر من انشغال المعتمد به بالإضافة إلى التشابه في تجربة الشاعرين وسعة الثقافة الأدبية عند المعتمد كانت كلها أسباباً ترجّح تأثّر المعتمد بن عبّاد بشعر أبي فراس الحمداني.

وقد ألمح بعض مؤرخي الأدب القدماء إلى التشابه بين الشاعرين لكن من غير أن يذكروا صراحة تأثر المعتمد بأبي فراس، ففي حديث الشقندي في رسالته "تفضيل الأندلس على برّ العدوة" عن بني عبّاد، قال: "وكان لهم من الحنوّ على الأدب، ما لم يقم به بنو حمدان في حلب"(17)

وفي حديث أبي العبّاس المقّري في نفح الطيب عن القصر الزاهي، أحد قصور المعتمد ابن عباد، يقول: "وكان له به من الطرب، والعيش المزري بحلاوة الضَرَب، ما لم يكن لبني حمدان بحلب"[18]

ولئن كان أبو فراس الحمداني أرسخ قدماً في نظم الشعر من المعتمد بن عبّاد، إلاّ أنّ قسوة المحنة التي تعرّض لها المعتمد جعلت من شعره الذي قاله في الأسر يرقى إلى مستوى شعر أبي فراس حتى وإن كان تأثر ببعض ما قاله.

وأخيراً فإنّ تأثر المعتمد بأبي فراس لا ينفي عنه تأثره بشعراء آخرين مثل الخنساء وأبي تمام وابن المعتز والمتنبي وعوف بن محلّم الشيباني، وهو ما أشار إليه ابن بسّام الشنتريني في كتاب الذخيرة في ترجمته للمعتمد بن عبّاد[19]. ومن الأمثلة على ذلك، ما أورده ابن بسّام في التعليق على أبيات المعتمد التي يصف فيها قمرية تقف أمام وكر فيه فرخان تنوح على زوجها التي فقدته:

بكت أن رات إلفين ضمّهما وكر ... مساءً وقد أخنى على إلفها الدهر

بكت لم ترق دمعاً وأسبلت عبرة ... يقصّر عنها القطر مهما همى القطر

وناحت فباحت واستراحت بسرّها ... وما نطقت حرفاً يبوح به سرُّ

...... الخ

فقد علق ابن بسّام قائلاً: "وهذه القطعة يشبه أولها قطعة عوف بن محلّم، وما أراه إلاّ بها ألمّ، وعلى منوالها سدّى وألحم، وهي:

وأرّقني بالريّ نوح حمامة ... فنحتُ وذو الشجو الغريبُ ينوحُ

على أنهّا ناحت ولم تُذرِ عبرة ... ونحتُ وأسرابُ الدموع سفوحُ

وناحت وفرخاها بحيثُ تراهما ... ومن دون أفراخي مهامه فيحُ"

وأختم بما قاله محقق ديوان المعتمد الدكتور رضا الحبيب السويسي عن قصائد المعتمد إبّان مرحلة الأسر[21]: "فقد سادتها نبرات الحزن والتفجّع والكآبة والتوجّع،... وإن كانت هذه الفترة قصيرة فإنها كانت طويلة من حيث الإنتاج، ولا يغرب إذا ما انفجر إلهام الشاعر واتقدت قريحته إثر المآسي والآلام، وقديماً قال الشاعر الفرنسي موساي: الإنسان متعلم والألم معلّمه".

الحواشي والتعليقات

(1) شرح ديوان أبي فراس الحمداني، لابن خالويه، ص 107 .

(2) نفسه ص 151 .

(3) ديوان المعتمد بن عبّاد ، ص 149 - 151 .

(4) شرح ديوان أبي فراس، ص 130 .

(5) ديوان المعتمد بن عباد، ص 187 - 188 .

(6) نفسه 164 - 165، قلائد العقيان 86/1

(7) من قوله تعالى (ثم قَسَتْ قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشدُّ قسوةً، وإنّ من الحجارةِ لما يتفجَّر منه الأنهار) (البقرة 74).

(8) شرح ديوان أبي فراس الحمداني، ص 145 .

(9) ديوان المعتمد بن عبّاد، ص 168 - 169 قلائد العقيان 96/1

(10) شرح ديوان أبي فراس، ص 145 - 147

(11) ديوان المعتمد بن عباد، ص 168، قلائد العقيان 93/1

(12) شرح ديوان أبي فراس، ص 367 .

(13) ديوان المعتمد بن عباد، ص 162 - 164

(14) نفسه 166 - 167

(15) شرح ديوان أبي فراس، ص 354 - 355 .

(16) ديوان المعتمد بن عباد، ص 193 - 194 .

(17) نفح الطيب، المقّري، 191/3

(18) نفسه 275/4

(19) الذخيرة، القسم الثاني، المجلد الأول، ص 13 - 81

(20) نفسه 69 .

(21) ديوان المعتمد بن عباد (مقدمة المحقق ص 14).

الفصل السادس

دور الشعر في مواجهة التردّي السياسي: أبو حفص الهوزني نموذجاً

دور الشعر في مواجهة التردّي السياسي؛
أبو حفص الهوزني نموذجاً

عانى الأندلسيون في عصر ملوك الطوائف (422 هـ - 484 هـ) ألواناً من الضعف والوهن وتردّي الأحوال السياسية، نتيجة التنازع بين ملوك الأندلس واستغراقهم في اللهو وتوسّلهم إلى البقاء على عروشهم بأيّ وسيلة بما في ذلك التواطؤ مع ملك قشتالة ألفونسو السادس ودفعهم الجزية السنوية له، وما أعقب ذلك من ضياع بعض مدنهم من أيديهم مثل بطرنة سنة 455 هـ. وبربشتر سنة 456 هـ وطليطلة سنة 478 هـ وبلنسية سنة 488 هـ.

وقد انبرى عددٌ من فقهاء الأندلس وأدبائها وشعرائها لمواجهة هذه الأوضاع الخطيرة التي تؤذن بضياع الأندلس برمّتها من أيدي المسلمين، وذهبوا في ذلك مذاهب شتّى، منها الحضّ على الجهاد كما فعل أبو حفص الهوزني (392 هـ - 460 هـ) وغيره، ومنها السعيّ إلى وحدة الأمّة الأندلسية ولمّ شملها، كما فعل أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي (ت 474 هـ)[1] ومنها الاستنجاد بمسلمي المغرب لإنقاذ الأندلس من خطر القشتاليين وتخليصها من ملوك الطوائف، كما فعل أبو الحسين ابن الجدّ (انظر قصيدة له في الذخيرة ق2 م1ص256 ينتقد فيها ملوك الطوائف ويمدح يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين بالمغرب)، ومنها نقد ملوك الطوائف والتحريض على الثورة عليهم وخلعهم، كما فعل الشاعر خلف بن فرج الإلبيري المعروف بالسميسر[2].

وقد تنبأ معظم هؤلاء الشعراء بمستقبل ملوك الطوائف ومستقبل الأندلس وحذّروا منه، فمن ذلك قول السميسر في مخاطبة ملوك الطوائف[3]:

رجوناكم فما أنصفتمونا ... وأمّلناكُمُ فخذلتمونا
سنصبرُ والزمانُ له إنقلابٌ ... وأنتم بالإشارة تفهمونا

وقول عبدالله بن الفرج اليحصبي المشهور بابن العسّال[4]:

يا أهل أندلسٍ حثّوا مطيّكم ... فما المقام بها إلاّ من الغلط
الثوبُ ينسل من أطرافه وأرى ... ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط
من جاور الشرّ لا يأمن بوائقه ... كيف الحياةُ مع الحيّاتِ في سفط

وروى صاحب الذخيرة[5] أنّه حكي عن رجلٍ أنّه رأى في منامه إثر الكائنة على بني عبّاد كأنّ رجلاً صعد منبر جامع قرطبة واستقبل الناس ينشدهم:

رُبَّ ركْبٍ قد أناخوا عيسهم   في ذرى مجدهم حين بَسَقْ
سكتَ الدهرُ زماناً عَنهمُ   ثم أبكاهم دماً حين نطق

فلما سمع المعتمد بن عبّاد ذلك أيقن أنه نعي لملكه.

وأمثال هذه الرؤى والمنامات التي تنبئ بسقوط ممالك الطوائف كثيرة في الأدب الأندلسي.

***

وقد كان لأبي حفص الهوزني دورٌ فاعلٌ في مواجهة فساد الأوضاع السياسية في الأندلس زمن ملوك الطوائف، فقد جمع في شعره بين حضّ الملوك والرعيّة على الجهاد، والتعريض بالملوك وبالرعية لغفلتهم عن الأخطار التي كانت تهدّد الأندلس، والتنبيه على تلك الأخطار وما يجب فعله لمواجهتها، وقد قضى بسبب ذلك قتيلاً على يد المعتضد بن عبّاد ملك إشبيلية سنة 460 هـ.

والهوزني هو أبو حفص عمر بن الحسن بن عبد الرحمن بن عمر بن عبدالله الهوزني، دخل جدّه عبدالله الأندلس أيام عبد الرحمن بن معاوية الداخل، وولي صلاة الجماعة بقرطبة أيام الداخل وابنه هشام، وهو ينتمي إلى هوزن، بطن من ذي الكلاع الأصغر.

أما أبو حفص هذا فقد عاش في زمن ملوك الطوائف، وولد بإشبيلية سنة 392 هـ، وتوفي بها سنة 460 هـ قتيلاً على يد ملكها المعتضد. وتذكر المصادر الأدبيّة أنّ أبا حفص والمعتضد كانا صديقين صداقة حميمة قبل إفضاء الأمر إلى المعتضد سنة 433 هـ، وقال صاحب الذخيرة عن أبي حفص[6] «وكان بينه وبين عبّاد (المعتضد) قبل إفضاء الأمر إليه، ومدار الرياسة عليه، ائتلاف الفرقدين، وتضافر اليدين، واتصال الأذن بالعين».

إلاّ أنّ المعتضد بعد ذلك «أوجس منه ذعراً، وضاق بمكانه من الحضرة صدراً».

فلمّا أحسّ الهورني بتغيّر المعتضد عليه استأذنه في الرحلة إلى المشرق وذلك سنة 440 هـ، فأذن له، فنزل صقليّة ومنها إلى مصر، ووصل إلى مكّة، وروى في طريقه كتاب الترمذي في الحديث، وعنه أخذه أهل الأندلس والمغرب.

وعندما عاد من رحلته استأذن المعتضد في أن يسكن مرسية، وكانت تحت حكم بني طاهر،فأذن له وبقي بها، حتى احتلّ الروم الأردمانيون مدينة بَرْبَشْتَر في شرق الأندلس سنة 456 هـ، بعد محاصرتها أربعين يوماً، وأورد صاحب الذخيرة نقلاً عن ابن حيّان أن

عدد القتلى والأسرى والسبي من المسلمين بلغ مائة ألف نسمة[7] وأن قائد خيل رومة حاز لنفسه ألفاً وخمسمائة جارية ابكاراً، وقد مثّل المعتدون بأهل بريشتر تمثيلاً عظيماً من قتل ونهب وسبي وغيره[8] .

ولمّا كان أبو حفص الهوزني، في أثناء وقوع هذه الحادثة، في مرسية في شرق الأندلس وقريباً من مكان تلك المأساة، فإنه خاطب المعتضد بن عبّاد برسالة يحضّه فيها على الجهاد ضمّنها شعراً ونثراً، وفيها أيضاً يستشير المعتضد إلى أين ينتقل من البلاد. فبعث إليه المعتضد بردّ يشير عليه فيه أن يرجع إلى إشبيلية، وكان الردّ من إنشاء أبي الوليد محمد ابن عبد العزيز المعلّم[9]. وكان المعتضد قد أضمر شرّاً للهوزني. وفي سنة 458 هـ وصل الهوزني إلى إشبيلية واستقرّ بها، فأعلى المعتضد من مكانته وفوّضه في كثير من الأمور، إلى أن كان يوم الجمعة لإحدى عشرة ليلةً لربيع الأوّل سنة 460 هـ، فأحضره إلى قصره وأمر خادمين له بقتله، فأبيا ذلك، فقام المعتضد وقتله بنفسه، ويقال إنّ المعتضد كان قد غلب عليه السكر، وتذكر المصادر أنه دفنه بثيابه وقلنسوته وهيل عليه التراب داخل القصر من غير غسل ولا صلاة. وقد توفي المعتضد بعده بعام واحد سنة 461 هـ[10].

وذكر صاحب نفح الطيب[11] أنّ أبا القاسم ابن أبي حفص الهوزني قد تسبّب في تقويض دولة المعتمد بن عبّاد بعد ذلك انتقاماً لمقتل والده على يد المعتضد، وأنه حرّض يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين بالمغرب على خلع المعتمد عن ملكه.

والذي يقر ما كتبه أبو حفص الهوزني للمعتضد بن عبّاد قد يقف على بعض الأسباب التي دفعت المعتضد إلى قتل الهوزني على هذه الصورة، إذ لم تخلُ رسالة الهوزني ولا أشعاره من بعض الجراة على المعتضد والتعريض به وبملوك الطوائف الآخرين، انطلاقاً من اعتقاده بأنّ له دالّة على المعتضد بحكم الصداقة التي كانت بينهما سابقاً. وربّما غاب عن الهوزني للحظة أنّ المعتضد بن عبّاد منذ أن تولّى الملك في إشبيلية أصبح يمثل خطّاً نقيضاً لخطّ الهوزني الذي كان يسعى إلى وحدة الأندلسيين ولمّ شملهم ورصّ صفوفهم في مواجهة الأعداء، بينما كان التفرّق بين الأندلسيين هو الذي هيّأ للمعتضد الارتقاء إلى الملك.

***

ومن الشعر الذي تضمّنته رسالة الهوزني الى المعتضد يحضّه على الجهاد:

أعـبّـادُ جلَّ الرزءُ والقـومُ هُجّعُ ... على حـالةٍ من مـثلهـا يُتَـوَقّعُ

فلقَ كـتـابي من فـراغك سـاعـةً ... وإن طال فـالموصـوفُ للطول مـوضـعُ

إذا لـم أبـثّ الـداءَ ربَّ دوائـهِ ... اضـعتُ وأهلٌ للمـلامِ المضـيِّعُ[12]

وتتضح من هذه الأبيات جرأة الهوزني على المعتضد، إذ يخاطبه باسمه مجرّداً من الألقاب والصفات والتقدمات وغيرها من قواعد مخاطبة الملوك والسلاطين، وفي قوله «والقوم هجّع»اتهام للمعتضد، وملوك الطوائف الآخرين، بالنوم عن مصالح شعوبهم. وفي قوله «على حالة من مثلها يتوقّع» يتّهم المعتضد وأولي الأمر بالتغافل عن المتوقّع أو بفقدان البصيرة. وفي البيت الثاني يتهمه بأن لديه فراغاً وأنه يقضيه في ما لا نفع فيه. وفي البيت الثالث من هذه المقطوعة إشارة مهمّة إلى رسالة الأديب ودوره، وهي أن ينظر في أمراض الأمة ويرفعها إلى أولي الشأن لعلاجها، وأنه في حال عدم قيام الأديب بهذا الدور فإنه يكون مضيّعاً ومقصّراً ومستحقاً للوم على تقصيره. وانطلاقاً من رؤيته هذه في دور الأديب يقوم الهوزني بمخاطبة المعتضد.

***

ومن مقطوعاته التي ضمّنها رسالته، ودعا فيها المعتضد إلى تدارك الحال قوله:

أعـبّـاد ضـاقَ الذرعُ واتّسَعَ الخـرْقُ ... ولا غـربَ للدنيـا إذا لم يكن شـرْقُ

ودونكَ قـولاً طالَ وهو مـقـصّـرٌ ... فللعينِ مـعنىً لا يعـبّـره النطقُ

إليكَ انتـهت آمـالنا فـارْمِ مـا دهى ... بعزمكَ، يدمَغْ هامةَ الباطلِ الحقُّ[13]

ويشتمل البيت الأوّل من هذه المقطوعة على موضعين بلغ فيهما الهوزني حدّ الجرأة على المعتضد. الأول مجاهرته بأنه ضاق ذرعه ممّا وقع للمسلمين، وهو في قوله هذا كأنّه يصرخ في وجه المعتضد. والثانية تحذيره للمعتضد من سقوط إشبيلية (وهي عاصمة غرب الأندلس) إذا سقط شرق الأندلس (الذي فيه بربشتر):

ولا غربَ للدنيا إذا لم يَكُنْ شرْقُ

وفي البيت الثاني يقول الهوزني بأنّ ما وقع لبربشتر لا تستطيع العبارات وصفه مهما طالت العبارات، وأنّ ما شاهده هو بعينه لا يستطيع الكلام أن يعبّر عنه: فللعين معنىً لا يعبّره النطق.

وفي البيت الثالث يضع الهوزني مطلبه بين يدي المعتضد وهو: أن يحقق آمال المسلمين

ويواجه المصائب التي حلّت بهم بعزيمةٍ قوية تنصر الحقّ على الباطل:

إليك انتهت آمالُنا فارْمِ ما دهى بعزمك، يدمغْ هامةَ الباطلِ الحقُّ

ويتجلّى دور الشاعر في هذه المقطوعة بوصف ما حدث وتشخيصه والتحذير من عواقبه ودعوة أولي الأمر إلى مواجهته، والتنبّؤ بما قد يقع في مقبل الأيّام بسببه.

ويبدو لمن يقرأ هذه الرسالة أن الهوزني قد استشعر الخوف من عواقب مخاطبة المعتضد على هذه الصورة، فحاول أن يسوّغ فعله في المقطوعة الأولى عندما قال:

إذا لم أبثَّ الداءَ ربَّ دوائه أضعتُ وأهلٌ للملام المضيّع

وأتبع المقطوعة الثانية بقوله:

«وما أخطأ السبيلَ من أتى البيوت من أبوابها، ولا أرجأ الدليلَ مَنْ ناطَ الأمورَ بأربابها، ولربَّ أملٍ بين أثناء المحاذير مُدْمَج، ومحبوبٍ في طيِّ المكاره مُدْرَج...».

***

وقد تحوّط الهوزني لنفسه من إثارة حفيظة المعتضد عليه، فضمّن رسالته مقطوعاتٍ في مدحه، ومدحه بصفات وفضائل تتّفق وما يدعوه إليه من مواجهة الأعداء وإزالة خطرهم وإنقاذ ما سقط من مدن المسلمين في أيديهم، فممّا مدحه به قوله:

فنادِ: أعبّادُ ذا عائذٌ وقَدْكَ، على حينها تنصرمْ
تجِبْكَ أسودٌ على ضُمَّرٍ معوّدةٌ ما بَغَتْ أن يتمّ
كأنّ المقاديرَ حزبٌ له فيمضي على رأيه ما حكم
سَقَتْهُ الحميّةُ جريالَها وصحّتْ مناقبه في الكرم
فصابٌ لأعدائه مُمْقِرٌ وغيْث لراجيه حُلْوُ الديم
كنوه بما مُدَّ في عمره وكانَ نحورَ العدا يخترم
تقيّدنا حرُّ أفعاله وكنيته تقتضي ما رسم
فمن ذيْن تفريعُ أوصافه وبالرمز نعني الذكيُّ الفهِمْ[14]

***

ومما نهضَ به أبو حفص الهوزني مما يتّصل بدور الشاعر في مواجهة التردّي السياسي

وضعف الأمّة وسقوط مدنها، التوجّه إلى العامّة بالحضّ على الجهاد ونبذ ما يشغلهم عنه، والعمل على توعيتهم بأحوال بلدهم، وتحذيرهم ممّا ينتظرهم في مقبل الزمن إذا هم استمرّوا على تقاعسهم. وبهذا فإن الهوزني لم يكتف بمخاطبة الملوك في هذا الشأن بل خاطب العامّة أيضاً، واستخدم لكلّ طرفٍ من الطرفين أدوات خطابٍ تناسبه وتكفل التأثير فيه للقيام بدوره.

ومن شعره في الحضّ على الجهاد واستنفار كوافّ البلاد، حسَبَ وصف ابن بسّام الشنتريني قوله(15):

بيّت الشرّ فلا يستزلُّ ... طرقَ النوّامَ سِمعٌ أزَلُّ
فثبوا واخشوشِنوا واحزئلّوا ... كلُّ ما رُزْءٍ سوى الدينِ قُلُّ
صرَّحَ الشرُّ فلا يُستَقَلُّ ... إنْ نهلْتُمْ جاءكم بَعْدُ عَلُّ
بدءُ صعْقِ الأرضِ نشْءٌ وطلٌّ ... ورياحٌ ثم غيْمٌ أبلُّ
قد رَجَتْ عادٌ سحاباً يُهِلُّ ... فإذا ريحٌ دَبُورٌ مِحَلُّ
نقّبوا فالداءُ رزءٌ يَحِلُّ ... واغمدوا سيفاً عليكم يُسَلُّ

ومنها:

يدنا العُلْيا وهم ويْكَ شُلُّ ... فلِمَ استرعى الأعزَّ الأذلُّ
عَجَبُ الأيّام ليثٌ صُمُلُّ ... ذعرته نعجةٌ إذ تَصِلُّ
«خبرٌ ما جاءنا مصمئلُّ ... جلّ حتّى دقّ فيه الأجلُّ»(16)

وسنتناول هذه الأبيات من زاويتين: الأولى: مضمونها الذي يمثل دور الشاعر في تناول قضايا أمته ومجتمعه، والثاني: معارضتها لقصيدة الشنفرى في رثاء خاله تأبط شرّاً، وزناً وقافية ولغة وصوراً ومعنىً.

أمّا مضمون الأبيات فإنه يمثّل أهمّ وظيفة من وظائف الأديب والشاعر، وهي استشراف المستقبل والتنبيه عليه وتوعية الناس به، انطلاقاً من قراءة الواقع ونقده وتشخيصه، واعتماداً على بصيرة الأديب وعمق نظرته وبعد نظره ورهافة حسّه الذي يختلف فيه عن سائر الناس، فهو يرى أبعد ممّا يراه الناس العاديّون، فلذلك تقع عليه مسؤولية أن يقرع لهم أجراس الإنذار من الأخطار القادمة وأن يدلّهم على ما ينبغي عليهم فعله لتجنّب تلك

الأخطار أو مواجهتها. وقد اتّضح ذلك بجلاء في هذه الأبيات. وحتى يكون لقرع أجراسه صوتُ المنبّه القويّ مزج الهوزني مخاطبته للناس بشيء من النقد القاسي والتقريع والسخرية والتخويف والمبالغة والأسئلة الاستنكارية، والإكثار من التشبيهات التمثيلية التي يسعى من ورائها إلى تقريب صورة الوضع في أذهانهم، فقد شبّه في البيت الأوّل نُذُرَ الخطر القادم بصوت ذئبٍ يعوي من بعيد والناس نيام:

بيّت الشرُّ فلا يستزلُ   طَرَقَ النوّامَ سِمْعٌ ازلَ

والسِمْعُ ولد الذئب من الضبع وهو من أخبث الذئاب، والأزلّ قليل لحم المؤخّرة.

وفي البيت الثالث شبّه تفاقم الخطر في حال التقاعس عنه بحال تكرار الشرب بعد نجاح الشربة الأولى:

صرَحَ الشرُّ فلا يُسْتَقَلُ   إن نهلتُمْ جاءكم بَعْدُ عَلُ

والنهل الشربة الأولى، والعلّ الشربُ بعدَ الشرب، وصرّح الشرّ أي اتّضح وبان الخطر.

وفي البيت الرابع يشبّه نذر الشرّ التي تسبق حلوله بالرذاذ الذي يسبق العواصف والصواعق:

بدءُ صعقِ الأرْضِ نشءٌ وطلُ   ورياحٌ ثم غيمٌ ابلُ

وفي البيت الثامن يشبّه استقواء الأعداء على المسلمين باستقواء النعجة على الأسد، وهو من عجائب الزمن،

عَجَبُ الأيّام ليثٌ صُمُلُ   ذَعَرتْهُ نعْجةٌ إذ تصِلُ

والليث الصُمُلُّ: الأسد الشديد الخلق العظيم، وذعرته أخافته، وتصلّ: تتحرك بأجراسها أو تصوّت.

وفي البيت الخامس يشبّه استخفاف الأندلسيين بالخطر القادم باستخفاف عادٍ بما لحقهم من الرياح المدمّرة:

قد رجَتْ عادٌ سحاباً يَهلُ   فإذا ريحٌ دَبُورٌ مِحَلُ

وهو بذلك ينذر الأندلسيين بأن الخطر الذي سوف يداهمهم سيكون ماحقاً ومدمّراً لهم إذا أصرّوا على استصغار شأنه.

إن تكثيف الشاعر للتشبيهات – وهو ينذر أهل بلده الأندلس من الخطر القادم – ما هو

إلاّ وسيلة من وسائل الإقناع والتوعية وتقريب صورة الحال في أذهانهم؛ وهي تشبيهاتٌ ذات قدرة واضحة على التأثير. ومن آليات الإقناع والتأثير التي استخدمها الهوزني الاستفهام الاستنكاري عن حال المسلمين في الأندلس:

يدُنا العُليا وهم ويلَكَ شُلُّ   فلِمَ استرعى الأعزَّ الأذلُّ؟!

فإذا كانت يدنا سليمة وفوق أيديهم، وأيديهم مشلولة ودون أيدينا ونحن أعز منهم وهم أذلة، فكيف يحرزون الغلبة علينا؟!

ونظراً إلى حجم هذا الخطر المحقّق القادم، وإلى قوة المسلمين وقدرتهم وتفوقهم على عدوّهم، فإنّ الشاعر يرشد المسلمين الأندلسيين إلى أمرين: الأوّل أن ينهضوا ويخشوشنوا ويجتمعوا بعضهم إلى بعض للمواجهة لأنّ أيّ مصيبة في غير الدين تهون، أمّا إذا كانت المصيبة في الدين فإنه ليس بعدها مصيبة:

فثِبوا واخشوشِنوا واحزئلّوا   كلُّ ما رُزْءٍ سوى الدين قُلُّ

وكلمة احزئلّوا تعني اجتمعوا، والرزء: المصيبة، وقُلّ: قليل وهيّن.

والأمر الثاني الذي يدعوهم إليه هو البحث عن الداء القائم والداء القادم ومعالجته:

نقّبوا فالداءُ رزءٌ يحلُّ   واغمِدوا سيفاً عليكم يُسَلُّ

فالشاعر يرى أن داء الأمّة هو الخطر القادم وأنه لا بدّ من إغماد سيف العدوّ الذي يُسَلُّ على المسلمين في الأندلس قبل أن يهوي هذا السيف على أعناقهم.

ويختم الهوزني أبياته ببيت مضمّن من قصيدة للشنفرى وهو:

«خبرٌ ما جاءنا مصمئلّ   جلَّ حتى دقّ فيه الأجلُّ»

وهو إنذارٌ للأندلسيين بأنّ تقاعسهم وغفلتهم عمّا ينتظرهم من أخطار سوف يجرّ عليهم مصيبة تهون معها كلّ المصائب العظيمة.

أمّا معارضة الهوزني لقصيدة الشنفرى وتأثّره بها فقد كان مقصوداً، وحقّق الهوزني من خلال هذه المعارضة أهدافاً عدّة تتصل بالغاية الأساسية من أبياته. أما قصيدة الشنفرى التي عارضها الهوزني فهي التي قالها في رثاء خاله تأبّط شرّاً ومطلعها[17]

إنّ بالشِّعْبِ الذي دونَ سَلْعٍ   لقتيلاً دَمُهُ ما يُطَلُّ

ومن أبياتها:

خلفَ العبءِ عليَّ وولّى | أنا بالعبءِ له مستقلُّ
ووراءَ الثأرِ منّي ابنُ أختٍ | مَصعٌ عقدتُهُ ما تُحَلُّ
مُطرقٌ يرشحُ سُمَّاً كما أط | رقَ أفعى ينفثُ السُّمَّ صِلُّ
خبرٌ ما نابنا مصمئِلٌّ | جلَّ حتّى دقَّ فيه الأجلُّ
بزّني الدهرُ وكان غَشوماً | بأبيٍّ جارُهُ ما يُذَلُّ

...

مُسْهِلٌ في الحيِّ أحوى رِفَلٌّ | وإذا يغزو فسِمْعٌ أزلُّ

...

صلِيَتْ منّي هذيلٌ بِخِرْقٍ | لا يملُّ الشرَّ حتّى يملّوا
يوردُ الصعدةَ حتى إذا ما | أُنهِلَتْ كان لها مِنهُ علُّ
تضحكُ الضبْعُ لقتلى هذيلٍ | وترى الذئبَ لها يستهِلُّ
وعتاقُ الطيرِ تهفو بطاناً | تتخطّاهم فما تستقِلُّ
حَلّتْ الخمْرُ وكانت حراماً | وبلأيٍ ما المَتْ تحِلُّ
فاسقنيها يا سوادَ بن عمروٍ | إنّ جسمي بعد خالي لخَلُّ

لقد تأثّر الهوزني بقصيدة الشنفرى بالوزن، وهو البحر المديد، والقافية وهي اللام المضمومة المشدّدة، غير أنّ الهوزني جعل قافية الصدور وقافية الأعجاز واحدة في أبياته بينما اكتفى الشنفرى بالتزام قافية واحدة في أعجاز قصيدته. كما استخدم الهوزني بعض المفردات الواردة في قصيدة الشنفرى مثل «سمع أزلّ» و «نهلتم» و «علّ» و «يستقلّ» و «يُسَلّ»، كما ضمّن أحد أبيات الشنفرى في أبياته، وهو:

خبرٌ ما نابنا مصمئِلٌّ | جلَّ حتى دقّ فيه الأجلُّ

وهو عند الهوزني: خبرٌ ما جاءنا ... الخ.

ولكنّ ما الذي دعا الهوزني الى استحضار قصيدة الشنفرى في رثاء خاله تأبّط شرّاً؟ وهل بين موضوعَيِ القصيدتين من تشابه يدعو إلى تأثر الثانية بالأولى؟ لقد كان الهوزني موفقاً في اختيار قصيدة الشنفرى، لأنه كان يبحث عن الروح التي تتضمنها هذه القصيدة،

وهي روح التصميم على الأخذ بثأر خاله، والامتناع عن كلّ اللذائذ والمتع حتى يحقق مبتغاه، وأنه كان له ما أراد، حيث أذاق الشنفرى الهذليين الويل من غاراته عليهم وحرّم الخمر على نفسه مثلما حرّم المتع كلّها حتى هزل جسمه قبل أن يأخذ بثأره. إنّ الهوزني باستحضاره قصيدة الشنفرى وتمثّله لها إنّما يريد أن يقدّم للأندلسيّين النموذج الذي يريده لهم حتى يأخذوا بثأرهم من أعدائهم ويستعيدوا ما ضاع من أراضيهم وينزلوا الرعب في نفوس أعدائهم. إنّ تحريم الشنفرى الخمر ومتع الحياة على نفسه قبل الأخذ بثأره، يلائم طلب الهوزني من الأندلسيين بأن يخشوشنوا:

فثبوا واخشوشنوا واحزئلوا　　　كلّ ما رُزْءٍ سوى الدين قُلُّ

كما أنّ يقظة الشنفرى وإغارته على أعدائه ليلاً في قوله:

وفتوٌ هجّروا ثمّ أسروا　　　ليلهم حتى إذا انجاب حلّوا

كلُّ ماضٍ قد تردّى بماضٍ　　　كسنا البرقِ إذا ما يُسَلُّ

فاحتسوْا أنفاس نومٍ فلمّا　　　ثملوا رعتهُمُ فاشمعلّوا

يناسب وصف الهوزني للأندلسيين بأنّهم نيامٌ وعليهم أن يكونوا يقظين:

بيّت الشرُّ فلا يستزلُّ　　　طرقَ النوّامَ سمِعٌ أزلُّ

كما أن استحضار نموذج الشنفرى بتصميمه وقوة إرادته وتضحيته بلذائذ الحياة وخشونته،جعلت الهوزني يستحضر بيئة الصحراء بما فيها من ذئاب وليوث ورياح وسيوف. كما استخدم الهوزني في أبياته ألفاظاً وعرة وغريبة لا تمثّل البيئة الأندلسية، ولولا معرفة النقاد بنسبة هذه الأبيات لشاعر أندلسي لصنّفوها في الشعر الجاهليّ أو شعر صدر الإسلام.

ولم يكن استخدام الهوزني لمثل هذه الألفاظ عشوائياً، بل جاء انسجاماً مع محاكاته لقصيدة الشنفرى أوّلاً، وانسجاماً مع الخشونة التي يطالب بها أهل الأندلس في مواجهة أعدائهم، فمواقف الحرب والصدام والتضحية بالنفوس والراحات تتطلب خشونة حقيقية تبدأ باللغة وتنتهي بمواجهة الشدائد.

حتّى إنّ اللاّم المشدّدة المضمومة في قوافي الأبيات صدورها وأعجازها تنسجم هي الأخرى مع الشدّة والحزم والخشونة التي يدعو إليها الشاعرُ الأندلسيين.

وقد علّق ابن بسّام الشنتريني في كتاب الذخيرة(18) على بعض أبيات الهوزني هذه،

قائلاً: «قوله: «فتبوا واخشوشنوا» من قول عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : «اخشوشنوا واخشوشنوا وعليكم باللبسة المعدّية». وقوله: «بدء صعق الأرضِ نشءٌ وطلّ» معنى مبتذل، ومنه المثل: «السقْط يحرقُ الحَرجَة» وقال الأوّل:

والشيءُ تحقره وقد ينمي

وقال الفرزدق:

قوارصُ تأتيني وتحتقرونها　　　وقدْ يملأ القطرُ الإناءَ فَيَفْعَمُ

وقال نصْرُ بن سيّار من أبيات كتب بها لمروان:

فإنّ النارَ بالعودَيْن تُذكى　　　وإنّ الحرْبَ مبداها الكلامُ

وقال أبو تمام، وعليه عوّل الفقيه، ولكنّه استحقه بما زاد فيه:

كم من قليلٍ حدا كثيراً　　　كم مطرٍ بَدْؤه مُطَيْرُ

وأخذه أبو عبادة فقال:

وأوّلُ الغيثِ طلٌّ ثم ينسكبُ

وقال ابنُ الرومي:

لا تحقرنَّ سُبَيْباً　　　قَدْ قادَ خَيْراً سُبَيْبُ

وقال أبو العلاء، وحرفه إلى بعض الأنحاء، ولكنه إليه أشار، وحواليه دار:

فأوّلُ ما يكونُ الليثُ شبلٌ　　　ومبدا طلعةِ البدْرِ الهلالُ

وكان له فيه إلمام، بقول أبي تمام:

إنّ الهلالَ إذا رأيْتَ نموّه　　　أيقنْتَ أن سيكونُ بدْراً كاملا

وقال العبّاس بن الأحنف وقصد به قصده، وكان ينفق مما عنده:

الحبُّ أوّل ما يكون لجاجةٍ　　　تأتي به وتسوقه الأقدارُ

حتى إذا اقتحم الفتى لجج الهوى　　　جاءت أمورٌ لا تطاقُ كبارُ

وقال الآخر، وكأنه نحا به نحواً غريباً، ولكنه نظرا إلى المعنى نظراً مريباً:

فلا تحقرنْ عدوّاً رماكَ　　　وإنْ كان في ساعديهِ قِصَرْ

فإنّ السيوفَ تحزُّ الرقابَ　　　وتعجز عمّا تنال الإبَرْ

ومن كلام المحدثين ما أجروه مجرى الأمثال: «رُبَّ عِشْقٍ جُنيَ بلفظة، وصبابةٍ غُرِستْ من لحظة» إلى غير ذلك ممّا لا يُحَدُّ شهرةً، ولا يحصى كثرةً» انتهى كلام ابن بسّام.

***

ومن شعر أبي حفص الهوزني في نقد ملوك الطوائف وتقريع المسلمين ووصف ما آلت إليه حالهم قوله:[19]

أيا أسفاً للدين إذْ ظلّ نهبةً ... بأعيننا والمسلمون شهودُ!

أفي حَرمِ الرحمن يُلْحَدُ جهرةً ... ويجعلُ إشراكَ الإله يهودُ؟!

ويثلَبُ بيتُ الله بين بيوتكم ... وقادِرُهُ عن ردّ ذاك قعيدُ؟!

ويوضعُ للدجّال بيتٌ بمكّةٍ ... ويخفَى عليكم منزعٌ وقصودُ؟!

أعيذكُم أن تُدهنوا فيمسّكمْ ... عقابٌ كما ذاقَ العذابَ ثمودُ

واقبِحْ بذكرٍ يستطير لأرضكم ... يؤمُّ به أقصى البلادِ وفودُ

ولا عَجَبٌ أن جانسَ الحوضَ ضِفْدَعٌ ... وقدماً تساوى مطلبٌ وشهودُ

يقودُ امرءاً طبعٌ إلى علم شكلِهِ ... كما انمازت الأرواح وهي جنودُ

وفي هذه الأبيات قراءة مستقبلية لحال المسلمين إذا استمرّوا على ما هم عليه من التراجع والاستكانة والتقاعس، فهو يتخيّل بلاد المسلمين تنتهب الواحدة بعد الأخرى والمسلمون ينظرون دون أن يحرّكوا ساكناً، ويتخيل المجاهرة بالإلحاد وارتفاع شأن اليهود في ديار المسلمين واستباحة بيوت الله وظهور الأعور الدجّال. ولذلك فإنّه يدعو المسلمين إلى الامتناع عن استخدام الأدهان للزينة قبل أن يحافظوا على دينهم ومساجدهم وبلادهم، وإلاّ أصابهم ما أصاب قوم ثمود من العذاب والفناء وسوء السمعة بين الأمم.

ويظهر أن سوء حال المسلمين في الأندلس في عصر ملوك الطوائف قد أوحى لغير شاعر أندلسي بالحديث عن ظهور الأعور الدجّال، إذ اعتقدوا أنّ ضعف المسلمين إلى تلك الدرجة من علامات قيام الساعة، ومن هؤلاء الشعراء أبو الحسين بن الجدّ حيث يقول[20]:

تحكّمت اليهودُ على الفروجِ ... وتاهت بالبغالِ وبالسروجِ

وقامت دولةُ الأنذالِ فينا ... وصار الحكْمُ فينا للعلوجِ

فقل للأعور الدجّال هذا ... زمانُكَ إن عزمْتَ على الخروجِ

***

لقد قدّم أبو حفص الهوزني من نفسه نموذجاً لدور الشعراء في زمن التراجع السياسي وضعف الأمّة، فتأمّل الواقع وبحث عن أسباب الداء، واستشرف المستقبل وحذّر من الشرّ القادم، وأرشد الناس ملوكاً وعامّة إلى ما ينبغي عمله لإصلاح حال الأمّة، فحثّ الملوك والناسَ على الجهاد ونبذ الخلاف وترك الدعة والتقاعس.

الحواشي والتعليقات

(1) انظر ترجمته في الذخيرة لابن بسّام، ق2 م1 ص94-105، قلائد العقيان 599/2، المغرب 404/1، ترتيب المدارك، 802/2-808.

(2) انظر بعض أشعاره في نقد ملوك الطوائف في الذخيرة ق1 م2 ص885-886، نفح الطيب 108/4.

(3) الذخيرة ق1 م2 ص885.

(4) نفح الطيب 352/4.

(5) أق2 م1 ص58.

(6) الذخيرة ق2 م1 ص82.

(7) الذخيرة ق3 م1 ص182.

(8) انظر تفاصيل سقوط بريشتر في الذخيرة لابن بسام ق3 م1 ص179-190 والبيان المغرب 225/3، ونفح الطيب 449/4، والروض المعطار 90-91، وقد استرجع المسلمون بريشتر سنة 457 هـ على يد المقتدر بن هود صاحب سرقسطة والمعتضد بن عبّاد صاحب إشبيلية.

(9) انظر نصّ رسالة الهوزني في الذخيرة ق2 م1 ص83-89، ونصّ ردّ المعتضد عليه في الذخيرة ق2 م1 ص118-120.

(10) انظر ترجمة الهوزني في: الذخيرة ق2 م1 ص81-94، والصلة لابن بشكوال 402/2، والمغرب لابن سعيد 239/1-240، وترتيب المدارك للقاضي عياض 825/2-826، ونفح الطيب 93/2-94.

(11) 94/2

(12) الأبيات في الذخيرة ق2 م1 ص83، وترتيب المدارك 826/2 مع بعض اختلاف، ونفح الطيب 93/2 مع اختلاف بسيط.

(13) الذخيرة ق2 م1 ص85.

(14) الذخيرة ق2 م1 ص86.

(15) الذخيرة ق2 م1 ص89.

(16) وردت الأبيات في الذخيرة ق2 م1 ص89-90، ووردت الأبيات الثاني والثالث والخامس في نفح الطيب 94/2 مع بعض اختلاف.

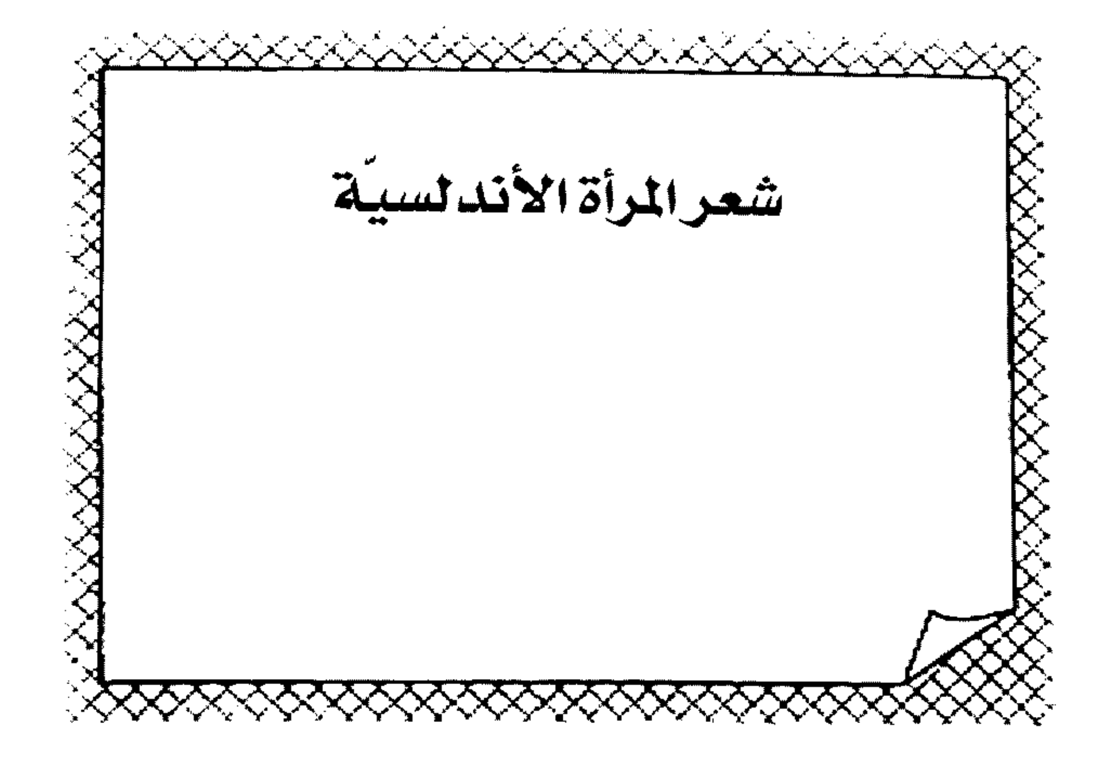
(17) ديوان الشنفرى 84-89، حماسة أبي تمام 341/1-347 (منسوبة لتأبط شرّاً)، منتهى الطلب لابن ميمون 418/6-422).

(18) ق2 م1 ص90-92.

(19) الذخيرة ق2 م1 ص92-93.

(20) الذخيرة ق2 م2 ص562.

الفصل السابع



شعر المرأة الأندلسيّة

شعر المرأة الأندلسيّة

شاركت المرأة الأندلسية في مختلف النشاطات التي شهدتها أرض الأندلس أيام الحكم الإسلامي، من سياسية واجتماعية وفنّية واقتصادية وعلمية وأدبيّة، وكان لها دورٌ بارز في تلك النشاطات وأثر ملموس في الحياة العامّة، وذلك لما كانت تتمتع به من حريّة واحترام ومكانة.

أمّا في مجال الأدب فقد شاركت المرأة في ضروب النشاط الأدبي من الشعر والنثر والموشحات وحضور المجالس الأدبية والمشاركة في المعارضات والمساجلات الشعرية.

وكان لشاعرات الأندلس شهرة تفوق شهرة سواهنّ من النساء الأندلسيات. وقد أحصى محمد المنتصر الريسوني في كتابه «الشعر النسوي في الأندلس»[1] خمساً وعشرين شاعرة أندلسية موزّعة على مختلف عصور الأدب الأندلسي، واحصى سعد بوفلاقة في كتابه «الشعر النسوي في الأندلس أغراضه وخصائصه الفنية»[2] سبعاً وعشرين شاعرة. وفي كتابه «نزهة الجلساء في أشعار النساء» ترجم جلال الدين السيوطي لخمس عشرة شاعرة أندلسية من مجموع تراجم الكتاب البالغة اربعين شاعرة.

وكان من شاعرات الأندلس في عهد الإمارة الأموية (138-316 هـ): الشاعرة حسّانة التميمية ابنة الشاعر أبي المخشّي[3] التي عاشت أيام الأمير الحكم بن هشام وابنه عبد الرحمن الأوسط، والشاعرة قمر البغدادية[4] التي كانت جارية إبراهيم بن حجّاج اللخمي الذي استقلّ بإشبيلية في أيام الأمير عبدالله بن محمد.

ومن شاعرات عصر الخلافة (316-422هـ) عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم القرطبية[5] (ت 400 هـ) وكانت خطّاطة تكتب المصاحف وتمدح الملوك والرؤساء، وحفصة بنت حمدون الحجارية[6] وكان لها شعر كثير لم يصلنا إلاّ القليل منه أكثره في المدح والغزل، وأنس القلوب[7] جارية المنصور بن أبي عامر، وكانت شاعرة ومغنية، والغسّانية البجّانية[8] ولها شعر تعارض به أحمد بن درّاج القسطليّ، ومريم بنت أبي يعقوب الأنصاري الشلْبي[9]، وكانت تعلّم النساء وتكتب الشعر في المدح وغيره، وصفيّة بنت عبدالله الريّي (ت 417هـ)[10].

ومن شاعرات الأندلس في عصر ملوك الطوائف (422 هـ-484 هـ) والمرابطين (484-524): ولاّدة بنت المستكفي[11] (ت 484 هـ)، ومهجة بنت التيّاني القرطبية[12]، ونزهون بنت القلاعي الغرناطية[13]، ولها أشعارٌ في مهاجاة شعراء عصرها، وحمدة

(حمدونة) بنت زياد المؤدّب[14] وأختها زينب[15]، وكانت حمدونة تعلّم النساء ولها شعر في الغزل ووصف الطبيعة وعرفت بخنساء الأندلس، وأمّ العلاء بنت يوسف الحجاريّة[16]، والعبّادية جارية المعتضد بن عبّاد[17]، واعتماد الرميكية جارية المعتمد بن عبّاد[18]، وبثينة بنت المعتمد بن عبّاد[19]، وزينب بنت فروة المريّة[20]، وأم الكرام بنت المعتصم بن صمادح[21]، وكانت شاعرة ولها يد طولى في الموشحات، وغاية المنى[22] جارية المعتصم بن صمادح.

ومن شاعرات الأندلس في عصر الموحدين: قسمونة بنت إسماعيل بن النغرالة اليهودي[23]، وكانت شاعرة ووشّاحة، وأم السعد بنت عصام بن أحمد الحميري[24] من اهل قرطبة وتعرف بسعدونة، ولها شعر في تمثال نعل النبي (ﷺ)، وحفصة بنت الحاج الركونية[25]، وأكثرها شعرها في الغزل بعشيقها أبي جعفر بن سعيد، والشاعرة الشلْبيّة[26]، وكانت تجالس الملوك وتناظر الشعراء وتهاجم الولاة، وأسماء العامريّة[27] كانت أيام يعقوب الموحّدي، وأمّ الهناء بنت عبد الحق[28]، وهند جارية عبدالله بن مسلم الشاطبي[29].

ومن شاعرات الأندلس في عصر بني الأحمر (635-897 هـ) الشاعرة نضار بنت أبي حيّان الغرناطي (ت 730 هـ) وكانت وفاتها في حياة والدها، فرثاها بشعر كثير[30]. ومنهنّ أيضاً: أم الحسن بنت القاضي أبي جعفر الطنجالي من أهل لوشة، اعتبرها ابن الخطيب ثالثة حمدة وولّادة وأورد لها بعض أشعارها (الإحاطة 430/1-431)، ومنهنّ كذلك عائشة بنت عبد الواحد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن محمد اللخمي أم الفقيه الصوفي أبي عبدالله الشقوريّ، من شعرها ما قالت تخاطب به ولدها:

ارجع لمولاك لا تنسَ محاسنه ... واسلُك طريقَ العلا والمجد والشرف

واغسل ثيابك في بحر النقا سحراً ... عساك تنجو به من لجّة التلفِ

(الإحاطة / نصوص جديدة، ص267).

ومنهنّ أيضاً محبّة بنت ابن عبد الرزاق، بشْريّة من عمل غرناطة، قال ابن الخطيب إنها كانت أديبة شاعرة من طبقة نزهونَ القليعية. (الإحاطة/ نصوص جديدة ص41) (وورت في الذيل والتكملة 492/8 مهجة).

كما أوردت المصادر أسماء شاعرات أخريات من غير أن تورد لهنّ شعراً أو أوردت لهنّ أبياتاً مفردة مثل ليلى معتقة الوزير أبي بكر بن خطّاب من أهل مرسية، وورقاء بنت ينتان من أهل طليطلة(*)، وغيرهما.

وقد دفعت مشاركة المرأة في النشاطات الأدبية في الأندلس الأديبات الأندلسيات إلى مخالطة الرجال وحضور مجالسهم الأدبية والانخراط في المساجلات والمطارحات الشعرية، حتى إن حفصة بنت الحاج الركونية من شاعرات القرن السادس الهجري في غرناطة، كانت تسعى للعمل في وظيفة ديوانية لدى الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي، وقد خاطبته بذلك قائلة[31]:

يا سيد الناس يا من ... يؤمل الناس رفده
امنن علي بصك ... يكون للدهر عدة
تخط يمناك فيه ... "والحمد لله وحده"

وقد كانت العلامة السلطانية لخلفاء الموحدين " والحمد لله وحده".

وتدل الحكايات والأخبار الواردة عن الأندلسيين أن اختلاط النساء بالرجال في تلك المجالس لم يكن مستنكراً، ومن أبرز الأدلة على ذلك ما تناقلته المصادر الأندلسية من أخبار ولادة بنت المستكفي ونزهون بنت القلاعي الغرناطية وحفصة بنت الحاج الركونية ومشاركتهن في مجالس الرجال الأدبية.

ومما يروى عن ولادة بنت الخليفة الأموي المستكفي بالله أنه كان لها مجلس أدبي في قصرها بقرطبة يحضره الشعراء والكتاب من أرجاء الأندلس كافة، وفي ذلك يقول ابن بسام الشنتريني صاحب كتاب الذخيرة[32]: «وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر، وفناؤها ملعباً لجيادَ النظم والنثر، يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها، إلى سهولة حجّابها، وكثرة منتابها، تخلط ذلك بعلو نصاب وكرم أنساب وطهارة أثواب، على أنها سمح الله لها وتغمد زللها، اطرحت التحصيل، وأوجدت إلى القول فيها السبيل بقلة مبالاتها ومجاراتها بلذاتها..!!" ويقول ابن دحية في كتاب المطرب (ص7) عن ولاّدة، «أديبةٌ شاعرةٌ جزلة القول حسنةُ الشعر، وكانت تخالط الشعراء وتساجل الأدباء، وتفوق البرعاء».

وأما حفصة بنت الحاج الركونية فكانت تحضر مجالس الخلفاء والأمراء الموحدين وتنشدهم من شعرها، وكانت تذهب الى زيارة عشيقها أبي جعفر بن سعيد في منزله وتساجل الشعراء الذين تلتقي بهم هنالك[33].

وتورد كتب التراث الأندلسي أخباراً كثيرة عن نزهون القلاعية وحضورها مجالس

الرجال ومساجلتهم ومهاجاتهم، وكانت موصوفة بخفة الروح والطباع حلوة النادرة. ومن الأخبار الدالة على مخالطتها للرجال ومناكفتها لهم أنه روي أنها كانت تقرأ يوما على أبي بكر المخزومي الأعمى فدخل عليها أبو بكر الكتندي، فقال مخاطباً الشاعر المخزومي الأعمى:

لو كنت تبصر من تجالسه..

وصمت المخزومي برهة يفكر، ولم يحر جواباً، فأجابت نزهون[34]:

لغدوت أخرس من خلاخله

البدر يطلع من أزرته والغصن يمرح في غلائله

وبسبب رقة طبع هذه الشاعرة وخفة ظلها كلف الشعراء بمحادثتها ومراسلتها ومنهم أبو بكر بن سعيد وأبو بكر المخزومي وابن قزمان الشاعر وأبو بكر الكتندي. وكانت تجالسهم وتهاجيهم بسلاطة لسان. ومن نوادرها أن ابن قزمان الزجال جاء يوما ليناظرها، وكان يرتدي غفارة صفراء - وهي زي الفقهاء يومئذ - وعندما لمحته قالت له: إنك اليوم كبقرة بني إسرائيل، صفراء فاقع لونها، ولكنك لا تسر الناظرين. فضحك الجميع ممن حضر وثار ابن قزمان واستشاط غضبا، فأخذ يسب واندفع الحاضرون إليه وطرحوه في بركة أمام البستان[35].

وفي أحد مجالس أبي بكر بن سعيد الوزير تصدى لها الشاعر أبو بكر المخزومي الأعمى، فهجته قائلة[36]:

قل للوضيع مقالا يتلى إلى حين يحشر

...

خلقت أعمى ولكن تهيم في كل أعور

جازيتُ شعراً بشعر فقل لعمري من اشعر

إن كنتُ في الخلق أنثى فإن شعري مذكّر

وكان كثير من هؤلاء الشاعرات يفدن على الأمراء والملوك ويمدحنهم ويتكسّبن بشعرهنّ مثل حسّانة التميمية وعائشة القرطبية وحفصة بنت الحاج الركونية والشاعرة الشلبية.

وقد نظمت المرأة الأندلسية الشعر في مختلف أغراضه كالمدح والتهنئة والحنين إلى الأوطان والحكمة والعتاب والفخر والزهد والرثاء والوصف، ولم تتحرج من الخوض في موضوعات كالغزل بالرجال والغزل الماجن والهجاء الفاحش.

وفيما يلي بعض الأمثلة على أغراض الشعر عند المرأة الأندلسية:

1- المدح:

ومن أمثلته قول قمر البغدادية في مدح مولاها إبراهيم بن حجاج اللخمي[37]:

ما في المغارب من كريم يرتجى إلا حليف الجود إبراهيم

إني حللت لديه منزل نعمة كل المنازل ما عداه ذميم

2- الشكوى:

ومن ذلك ما قالته حسّانة التميمية، وهي شاعرة من القرن الثاني الهجري مشهورة بالطهر والعفاف، تخاطب الأمير الحكم بن هشام بعد وفاة والدها أبي المخشى الشاعر[38]:

إني إليك أبا العاصي موجَعةٌ أبا المخشى سقته الواكف الدِّيمُ

قد كنت أرتع في نعماه عاكفةً فاليوم آوي إلى نعماك يا حَكَمُ

أنت الإمام الذي انقاد الأنام له وملّكته مقاليدَ النهى الأممُ

لا شيء أخشى إذا ما كنتَ لي كنفا آوي إليه ولا يعروني العدم

لا زلتَ بالعزة القعساء مرتديا حتى تذل إليك العُربُ والعَجَمُ

فاستحسن الأمير شعرها، وكتب إلى واليه بإلبيرة أن يكرمها، وأمر لها براتب شهري، ولها مقطوعات أخرى في مدح أمراء بني أمية في الأندلس، وهو شعر يدل على رصانة وجد وأدب جمّ. ولها قصائد أخرى إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم تشكو فيها نقض والي البيرة جابر بن لبيد ما كان الحكم أبرمه لها، فينصفها عبد الرحمن ويعيد ما كان لها.

3- التهنئة:

فمن ذلك قول عائشة بنت أحمد القرطبية، وقد دخلت يوما على المظفر بن المنصور بن أبي عامر وبين يديه ولده، فقالت مرتجلة[39]:

أراك اللّه فيه ما تريد ولا برحت معاليكم تزيد

فقد دلت مخايله على ما تؤمله وطالعه السعيد

تشوقت الجياد له وهزّ الـ حسام هوىً وأشرقت البنود

فســـوف تراه بدراً في ســـمـــاء — من العليـا كـواكـبـه الجنود
وكـيف يخـيب شـبل قـد نمتـه — الى العليـا ضـراغـمـة أسُـودُ
فـأنتم آلَ عـامـر خـيـرُ آلٍ — زكـا الأبنـاءُ منكم والجـدودُ
ولـيـدكم لدى راي كـشـيـخ — وشـيـخكم لدى حـرب ولـيـد

والجدير بالذكر أن عائشة كانت حسنة الخط تكتب المصاحف.

ومن ذلك قول حفصة بنت الحاج الركونية تمدح أمير غرناطة الموحدي وتهنئه بالعيد(40):

يا ذا العلا وابن الخليفة والإمام المرتضى
يَهنيك عيد قد جرى فيه بما تهوى القضا

... الخ

وقد استخدمت بعض الشاعرات قصائدهن في التكسب كما فعلت حسانة التميمية وقمر البغدادية وعائشة القرطبية والغسانية.

4- الحنين إلى الأوطان

ومن ذلك قول قمر البغدادية في الحنين إلى المشرق(41):

آها على بغـدادها وعـراقـهـا — وظبائها والسحر في أحداقها
ومـجـالـهـا عند الفـرات بأوجـه — تبـدو أهلتـهـا على أطواقـهـا
مـتـبـخـتـرات في النعـيم كـأنما — خلق الهوى العذري من أخلاقها
نفسي الفداء لها فـأي مـحـاسن — في الدهر تشرق من سنا إشراقها

5- الشعر الديني:

ومن ذلك قول أم السعد بنت عصام القرطبية في ذكر تمثال نعل النبي (عليه السلام)(42):

لعلني أحظى بتـقـبـيـله — في جنة الفـردوس أسنى مـقـيـل
في ظل (طوبى) سـاكـناً آمنا — أسْقى بأكـواس من السلسـبيل
وأمـسـح القـلـب به علّهُ — يسكن مـا جـاش به من غليل
فطالما استـشـفى بأطلال من — يهـواه أهل الحب من كل جيل

6- الفخر

ومن ذلك قول صفية بنت عبدالله الريبي في الرد على امرأة عابت خطها(43):

وعائبة خطي فقلت لها اقصري ... فسوف أريك الدر في نظم أسطري
وناديت كفي كي تجود بخطها ... وقربْتُ أقلامي ورَقي ومَحْبري
فخطت بأبيات ثلاث نظمتها ... ليبدو بها خطي وقلت لها انظري

7- وصف الخمر

ومنه قول أم العلاء بنت يوسف الحجارية(44):

لولا منافرةُ المدامةِ ... للصَّبابةِ والغِنا
لعكفتُ بين كؤوسها ... وجمعتُ أسبابَ المنى

8- الهجاء

وقد اشتهر به عدد من شاعرات الأندلس منهن ولادة بنت المستكفي ونزهون بنت القلاعي ومهجة بنت التياني القرطبية، فمن ذلك الأبيات التي ردت بها نزهون على الشاعر أبي بكر المخزومي الأعمى حين هجاها قائلاً(45):

على وجه نزهون من الحسن مسحة ... وإن كان قد أمسى من الضوء عاريا
قواصد نزهون توارك غيرها ... ومن قصد البحر استقل السواقيا

فردت عليه قائلة:

إنْ كنتَ ما قُلْتَ حقّاً ... مِنْ نقْضِ عهدِ كريم
فصار ذكري ذميماً ... يُعزى إلى كلِّ لوم
وصرتُ أقبحَ شيء ... في صورة المخزومي

ومعظم ما عثرت عليه من الشعر النسوي في الهجاء مُفْرِطٌ في الفحش.

9- الغزل بالرجال:

ومعظم ما وصلنا من شعر نساء الأندلس يندرج في باب الغزل بشقيه العفيف والماجن. ومن ذلك قول أم الكرم بنت المعتصم بن صمادح، من شاعرات القرن الخامس الهجري وكان أبوها ملكا على مدينة المرية، متغزلة بالفتى المعروف بالسّمار من مدينة دانية وكان

مشهوراً بالجمال، وقد تغزلت به كثيراً وعملت فيه الموشحات[46]:

يا معشر الناس الا فاعجبوا   مما جنته لوعة الحب
لولاه لم يُنْزَلْ ببدر الدجى   من أفقه العلوي للترب
حسبي بمن أهواه لو أنه   فارقني تابعه قلبي

وتقول فيه أيضاً[47]:

الا ليت شعري هل سبيل لخلوةٍ   ينزه عنها سمعُ كلّ مراقب
ويا عجباً أشتاق خلوة من غدا   ومثواه ما بين الحشا والترائب

ومن ذلك أيضاً قول حفصة بنت حمدون الحجارية[48]:

لي حبيبٌ لا ينثني لعتابِ   وإذا ما تركته زاد تيها
قال لي: هل رأيت لي من شبيه   قلت ايضاً وهل ترى لي شبيها؟

وقول أم العلاء بنت يوسف الحجارية[49]:

كلُّ ما يَصدُرُ عنكُمْ حَسَنُ   وبعلياكم تحلّى الزَمَنُ
تعطف العينُ على منظركم   وبذكراكم تلذُّ الأذنُ
مَنْ يَعِشْ دونكُمُ في عمره   فهو في نيل الأماني يُغْبَنُ

وذكرت المصادر أنّ ولاّدة بنت المستكفي كتبت إلى ابن زيدون أوّل معرفتها به[50]:

ترقّبْ إذا جنَّ الظلامُ زيارتي   فإنّي رأيت الليْلَ آكتم للسرّ
وبي منك ما لو كان بالبدر ما بدا   وبالليل ما أدجى وبالنجم لم يسْرِ

ومن الشاعرات الأندلسيات اللواتي أكثْرنَ من الغزل بأحبّائهنّ حفصة بنت الحاج الركونية الغرناطية، التي روت المصادر الأدبية كثيراً من شعرها الغزلي في معشوقها أبي جعفر بن سعيد، ومن ذلك قولها فيه[51]:

اغار عليك من عينيْ رقيبي   ومنكَ ومِنْ زمانِكَ والمكانِ
ولو اني خبأتك في عيوني   إلى يوم القيامة ما كفاني

وكتبت له مرّة[52]:

أزورك أم تزور فإنّ قلبي إلى ما ملتُمُ أبداً يميلُ
فثغري موردٌ عذبٌ زلالٌ وفرعُ ذؤابتي ظلٌّ ظليلُ
وقد أمّلتُ أن تظمأ وتضحى إذا وافى إليك بيَ المقيلُ
فعجّل بالجوابِ فما جميلٌ أناتك عن بثينةَ يا جميلُ

10- الرثاء:

لما طمع أميرُ غرناطة الموحّدي أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن في الظفر بحبّ حفصة الركونية هجاه حبيبها أبو جعفر بن سعيد مما حدا بالأمير إلى قتل أبي جعفر سنة 559 هـ. فحزنت عليه حفصة حزناً شديداً وجاهرت برثائه والبكاء عليه، ولبست الحداد عليه، فهددها الأمير، فكتبت تقول[53]:

هدّدوني من أجل لبس الحِدادِ لحبيبٍ أردوهُ لي بالحِدادِ
رحم اللهُ من يجودُ بدمعٍ أو ينوحُ على قتيل الأعادي
وسقته بمثلِ جودِ يديْهِ، حيث أضحى من البلاد، الغوادي

ومن مراثيها فيه[54]:

ولو لم يكُنْ نجماً لما كان ناظري وقد غبتُ عنهُ مُظْلماً بعد نورهِ
سلامٌ على تلك المحاسنِ من شجٍ تناءت بنعماه وطيبِ سروره

ومن ذلك أيضاً[55]:

سلوا البارقَ الخفّاقَ والليلُ ساكنٌ أظلّ بأحبابي يذكّرني وهنا
لعمري لقد أهوى لقلبيَ خفقةً وأمطرني منهلُّ عارضه الجفنا

ومن رثاء الشاعرات الأندلسيات قول حمدة بنت زياد المؤدب ترثي صبياً صغيراً[56]:

يعزّ علينا أن نوسّدك الثرى بمجهلةٍ لا دار فيها ولا أهلا
وقد كنت أرجو أن يطول لك المدى وأنك إنْ تأتِ الردى تأته مهلا
على أنه ما لذة العيش للفتى وغايته شرخاً كغايته كهلا
عليك السلام كلنا أنت فاقتعد ضريحك لا حزناً تبالي ولا سهلا

11- وصف الطبيعة: ومثاله قول أم العلاء بنت يوسف الحجارية حين رأت بستانها[57]:

لله بستاني إذا يهفو به القصب المندّى
فكأنما كفّ الرياح قد اسندت بنداً فبندا

وقول حمدة بنت زياد المؤدّب من وادي آش[58]:

وقانا لفحةَ الرمضاءِ وادٍ سقاه مضاعَفُ الغيثِ العميم
حللْنا دوحه فحنا علينا حنوَّ المرضعاتِ على الفطيم
وأرْشَفَنا على ظمأٍ زُلالاً ألذّ من المدامة للنديم
يصدُّ الشمسَ أنّى واجهتنا فيحجبها ويأذن للنسيم
يروعُ حصاهُ حاليةَ العذارى فتلمسُ جانبَ العقد النظيم

12- أغراض أخرى كالمجاوبات والشكر على الهدايا والشكوى من الشيب أو العنوسة والردّ على الراغبين بالزواج منهنّ وخاصّة إذا كانوا من كبار السّن، وغير ذلك. ومن الأمثلة على هذه الأغراض: قول مريم بنت أبي يعقوب الشلْبي، وقد كَبُرت[59]:

وما يُرتجى من بنت سبعين حجّةً وسبع كنسج العنكبوت المهلهل؟
تدبُّ دبيبَ الطِفْلِ تسعى إلى العصا وتمشي بها مشيَ الأسيرِ المكبَّل

أمّا عائشة بنت أحمد القرطبية فقد طلب منها أحدُ الشعراءِ يدها، فلم ترضَ فألحّ في الطلب، فكتبت إليه تقول:[60]

انا لبوةٌ لكنني لا أرتضي نفسي مُناخاً طولَ دهري مِنْ أحَدْ
ولو انني أختار ذلك لم أُجبْ كلباً وكم غلّقْتُ سمعي عن أسَدْ

وقد وقع لنزهون القلاعية مثل ذلك، إذ خطبها رجلٌ دميم الصورة بشع، فقالت تسفّه أحلامه وآماله وتعدد معايبه[61]:

عذيريَ من عاشقٍ أنوكِ سفيه الإشارةِ والمنزع
يروم الوصالَ بما لو أتى يروم به الصفْعَ لم يُصْفَع
برأسٍ فقيرٍ إلى كيّةٍ ووجه فقيرٍ إلى برقع

أمّا أمّ العلاء بنت يوسف الحجارية فقد هام بها رجلٌ مُسِنّ أشيب فطلب يدها فكتبت إليه(62):

يا صُبْحُ لا تبدُ إلى جُنْحِ — والليلُ لا يبقى مع الصُبْحِ
الشيبُ لا يُخْدَعُ فيه الصِبا — بحيلةٍ فاسمع إلى نصحي
فلا تكُنْ أجهلَ مَنْ في الورى — تبيتُ في الجهلِ كما تضحي

وأمّا قسمونة بنت إسماعيل اليهودي، من أهل المائة السادسة في غرناطة، فقد نظرت في المرآة فنظرت جمالها وقد بلغت أوان التزويج ولم تتزوج فقالت(63):

ارى روضةً قد حانَ منها قطافُها — ولستُ أرى جانٍ يُمدّ لها يدا
فوا اسفي يمضي الشباب مضيّعاً — ويبقى الذي ما إنْ اسمّيه مفردا

فسمعها أبوها فنظر في تزويجها.

ويروى عن بثينة بنت المعتمد بن عباد أنها سبيت لما حلت النكبة بأبيها وأخذه المرابطون أسيراً إلى سجن أغمات بمراكش، فأصبحت من جملة العبيد تباع في الأسواق، فاشتراها رجل من إشبيلية، ثم وهبها لابنه، ولكنه لما أراد الزواج منها امتنعت، وأعلنت عن نفسها وقالت له: لا يكون ذلك إلا بموافقة أبي، ثم كتبت إلى أبيها قائلة:(64)

اسمع كلامي واستمع لمقالتي — فهي السلوكُ بدت من الأجياد
لا تنكروا اني سُبيت وانني — بنتٌ لملْكٍ من بني عبّاد
ملْكٌ عظيم قد تولّى عصرُهُ — وكذا الزمان يؤول للإفساد
لما اراد اللّه فُرقةَ شملنا — واذاقنا طعم الأسى عن زاد
قام النفاقُ على ابي في ملكه — فدنا الفراق ولم يكن بمراد
فخرجتُ هاربةً وحازنيَ امرؤ — لم يأتِ في إعجاله بسداد
إذ باعني بيع العبيد فضمني — مَنْ صانني إلاّ من الأنكاد
وارادني لنكاح نجل طاهر — حَسَنِ الخلائق من بني الأنجاد
ومضى إليك يسوم رايك في الرضى — ولأنت تنظرُ في طريق رشادي
فعساك يا ابتي تعرّفني به — إن كان ممّن يُرتجى لوداد
وعسى رميكيةُ الملوكِ بفضلها — تدعو لنا باليمن والإسعاد

وعندما وصلت الأبيات إلى أبيها وهو في المنفى بأغمات سر هو وأمها سروراً عظيماً حين عرفا أن ابنتهما ما زالت حية، فكتب إليها هذا البيت يبارك لها فيه زواجها:

بنيتي كوني به برة		فقد قضى الدهر بإسعافه

***

وشاركت بعض شاعرات الأندلس في النقد السياسي، كالذي نجده عند الشاعرة الشِلْبية، من مدينة شلب وعاشت في القرن السادس الهجري، وكانت تجالس الملوك وتناظر الشعراء، وتهاجم الولاة، وقد بعثت بأبيات إلى الخليفة المنصور يعقوب الموحّدي تتظلّم لديه من ولاة بلدها شلب ومن صاحب خراجها، قائلة:[65]

قد آن أن تبكي العيونُ الآبية		ولقد أرى أنّ الحجارة باكية

يا قاصدَ المِصْرِ الذي يُرْجى به		إنْ قدَّرَ الرحمنُ رفع كراهية

نادِ الأميرَ إذا وقفْتَ ببابِهِ:		يا راعياً إنّ الرعيّةَ فانية

أرسلْتَها هَمَلاً ولا مرعى لها		وتركتَها نهبَ السباعِ العادية

شِلْبٌ كلا شِلْبٍ، وكانت جنّةً		فأعادها الطاغون ناراً حامية

حافوا وما خافوا عقوبةَ ربّهم		واللّه لا تخفى عليه خافية

وجاء في نفح الطيب أنّ هذه الأبيات قد قرئت على الخليفة يوم الجمعة على مصلّى المنصور، فلمّا قضى الصلاةَ أخذها وتصفّحها، ثم بحثَ عن القضيّة، فوقف على حقيقتها، ورفع عن الشاعرة وبلدها الظلم وأمر لها بصلة.

وشبيه بهذه الحكاية حكاية الشاعرة حسّانة التميمية، فقد كان الأمير الحكم بن هشام قد أجرى عليها مرتّباً وكتب الى عامله على إلبيرة جابر بن لبيد بخط يده لتحرير أملاكها، ولما توفي الحكم نكل جابر عن الوفاء بعطائها، فتوسلت له بخط الحكم فلم يجبها، فوفدت على خلفه الأمير عبد الرحمن بن الحكم تشكو إليه ظلم جابر، وأنشدته هذه الأبيات[66]:

إلى ذي الندى والمجد سارت ركائبي		على شَحَطٍ تصلى بنار الهواجر

ليجبر صدعي إنّه خيرُ جابرٍ		ويمنعني من ذي الظُلامةِ جابر

فإني وأيتامي بقبضةِ كفّه		كذي ريشٍ اضحى في مخالب كاسرِ

جديرٌ لمثلي أن يقالَ مروعةٌ		لموت أبي العاص الذي كان ناصري

سقاه الحيا لو كان حياً لما اعتدى   عليّ زمانٌ باطشٌ بطشَ قادر
ايمحو الذي خطته يمناه جابرٌ   لقد سامَ بالأملاك إحدى الكبائر

فلما سمع عبد الرحمن ذلك عزل جابر، وأعاد لها أملاكها، ووقع لها بمثل ما وقع به والده الحكم.

***

إن الذي يقرأ أشعار النساء الأندلسيات يجدها قصيرة النفس، وأكثرها مقطعات، ولا يقف على قصائد مطولات، وكذلك لم نقف لها على قصائد في المدح تراعي القواعد التقليدية لقصيدة المدح من حيث المقدمات الطللية أو الغزلية ثم التخلص إلى الموضوع، وربما يكون لها قصائد مطولات لم تصل إلينا وضاعت مع ما ضاع من التراث الأندلسي، ومما يميز شعر المرأة عن شعر الرجل في الأندلس أن شعر الغزل والهجاء الصادرين عن الرجال أكثر تهذيباً من ذلك الصادر عن النساء حيث نجد لديهن إيغالاً في الفحش والمجون والبوح.

أما الفرق بين شعر المرأة الأندلسية وشعر المرأة العربية في المشرق فيتمثل أولاً في قلة ما وصل الينا من أشعار المرأة الأندلسية بالقياس مع ما وصل من أشعار النساء المشرقيات، كما أن شعر المرأة الأندلسية أكثر تعبيراً عن مشاعر المرأة وأكثر جراة وتحرراً من شاعرات المشرق مثل علية بنت المهدي وليلى الأخيلية وثواب بنت عبدالله الحنظلية الهمذانية، إذ لم تفحش شاعرات المشرق في القول ولا نجد لهن شعراً يذكرن فيه العورات صراحة كما هو الحال عند شاعرات الأندلس.

إن شعر المرأة الأندلسية يكشف لنا عن جوانب من حياة المرأة في الأندلس وشخصيتها ولا سيما جرأتها وتحررها واعتدادها برأيها واستقلاليتها واختلاطها بالرجال في المجالس العامة ومجالس الأدب وبلاط الملوك والسلاطين وغير ذلك مما تشهد عليه الروايات التاريخية والأشعار الصادرة عن النساء.

ولا شك أن ميل الأندلسيين إلى التحرر وانتهاز فرص العيش الرغد وحرصهم على تحقيق الانسجام مع ما وهبه الله للأندلس من غنى وتنوع وجمال في الطبيعة والمخلوقات، كانت جميعها عوامل أدت إلى شيوع هذه الظواهر في شعر المرأة الأندلسية. وقد كانت هذه الظواهر أكثر بروزاً في شعر الطبقات الثرية والمترفة منها في شعر الطبقات الفقيرة. ولذلك نجد إلى جانب شاعرات الغزل والمجون والهجاء شاعرات أندلسيات أخر يلتزمن الورع والتقوى والعفاف والجد والصيانة والرصانة.

وقد كشفت لنا أشعار المرأة الأندلسية عن تمايز طبقي واضح في مجتمع المرأة الأندلسية، فبينما نجد بعض النساء يقصدن قصور الأمراء والسلاطين للتكسب بشعرهن بسبب الحاجة والفقر، نجد في الوقت نفسه بعض الشاعرات يعشن عيشة مترفة مثل ولادة بنت المستكفي وحفصة بنت حمدون الحجارية التي تقول متضجرة من عبيدها[65]:

يا رب إني من عبيدي على ... جمر الغضا ما فيهم من نجيب

إما جهول أبله متعب ... أو فطن من كيده لا أخيب

ونلاحظ كذلك مما وصلنا من أشعار النساء الأندلسيات، أن منهن من يترسم خطى الشعراء من السلف في أساليبهم وصورهم ولغتهم وتعبيراتهم، ومنهن من يميل إلى الرقة والتجديد في الصور واللغة والأساليب.

إن ما وصلنا من شعر نساء الأندلس يصلح شاهداً على ظروف المرأة الأندلسية وشخصيتها وطباعها، لكن لا بد من الافتراض أن كثيراً من النتاج الإبداعي للمرأة الأندلسية لم يصل إلينا، بفعل ما أصاب التراث الأندلسي من تدمير وضياع، وربما بسبب تحرج بعض مؤرخي الأدب الأندلسي من إيراد أشعار تلك النساء؛ والدليل على هذا الحرج قول ابن بسّام الشنتريني في كتاب الذخيرة في معرض حديثه عن شعر ولاّدة بنت المستكفي:[67] «وقد قرأت أشياء منه في بعض التعاليق، أضربتُ عن ذكره، وطويته بأسره، لأنّ أكثره هجاء، وليس له عندي إعادةٌ ولا إبداء، ولا من كتابي في أرض ولا سماء».

وقول ابن بسّام هذا دليلٌ واضح على ضياع بعض أشعار النساء الأندلسيات وعدم وصولها إلينا.

الحواشي والتعليقات

(1) قدّم له العلاّمة عبدالله كنّون، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1978.

(2) ط. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995.

(3) نفح الطيب 167/4-168، الذيل والتكملة 484/8

(4) نفح الطيب 140/3-141، التكملة ترجمة رقم 2114

(5) الصلة 692/2-693، نفح الطيب 290/4، نزهة الجلساء 61

(6) المغرب 37/2، نفح الطيب 285/4. نزهة الجلساء 43، الذيل والتكملة 484/8

(7) نفح الطيب 617/1

(8) جذوة المقتبس 413، بغية الملتمس 544، الصلة 696/2، نفح الطيب 170/4، نزهة الجلساء 93

(9) الصلة 694/2، نفح الطيب 291/4، جذوة المقتبس 412، نزهة الجلساء 78، بغية الملتمس 443

(10) الصلة 693/2، جذوة المقتبس 412، بغية الملتمس 443

(11) الذخيرة ق1 م1 ص429-433، الصلة 696/2، نفح الطيب 205/4، نزهة الجلساء 87، المطرب 7، بغية الملتمس 547

(12) المغرب 143/1، الذيل والتكملة 492/8، نفح الطيب 293/4،

(13) المغرب 121/2 الإحاطة 344/3، الذيل والتكملة 492/8، نفح الطيب 295/4، نزهة الجلساء 84، تحفة القادم 236، بغية الملتمس 546، رايات المبرزين 159.

(14) المغرب 145/2، تحفة القادم 234، نفح الطيب 287/4، الإحاطة 489/1، نزهة الجلساء 45، المطرب 11، صلة الصلة 309/5، رايات المبرزين 167، الذيل والتكملة 485/8، التكملة، ترجمة رقم 2120

(15) نفح الطيب 208/3، 289/4، نزهة الجلساء 47، الإحاطة 490/1

(16) المغرب 38/2، نفح الطيب 169/4، نزهة الجلساء 26

(17) نفح الطيب 283/4، الذيل والتكملة 494/8

(18) نفح الطيب 211/4 ، 272

(19) نفح الطيب 484/4

(20) نفح الطيب 286/4، الذيل والتكملة 487/8

(21) المغرب 202/2، نفح الطيب 170/4، نزهة الجلساء 25

(22) نفح الطيب 286/4، الذيل والتكملة 488/8

(23) نفح الطيب 530/3، نزهة الجلساء 74

(24) نفح الطيب 166/4، نزهة الجلساء 29، التكملة، ترجمة رقم 2128، الذيل والتكملة 481/8

(25) الإحاطة 491/1، المغرب 138/2، المطرب 10، تحفة القادم 240، صلة الصلة 313/5، نفح الطيب 218/3، 171/4، نزهة الجلساء 40، رايات المبرزين 161

(26) نفح الطيب 294/4، الذيل والتكملة 495/8

(27) نفح الطيب 292/4، الذيل والتكملة 480/8

(28) نفح الطيب 292/4

(29) تحفة القادم 239، نفح الطيب 293/4

(30) نزهة الجلساء 83

(*) صلة الصلة 309/5 . 310

(31) وردت الأبيات في: المغرب 138/2، تحفة القادم 240، رايات المبرزين 162، نفح الطيب 171/4، بغية الملتمس 545 (منسوبة للشاعرة الوادي آشية).

(32) الذخيرة ق1 م1 ص429، المطرب ص8

(33) نفح الطيب 178/4-179

(34) المغرب 121/2، نفح الطيب 298/4

(35) نفح الطيب 296/4

(36) الإحاطة 426/1

(37) نفح الطيب 141/3

(38) نفح الطيب 167/7

(39) نفح الطيب 290/4

(40) نفح الطيب 177/4، نزهة الجلساء 42

(41) نفح الطيب 141/3، التكملة، ترجمة رقم 2114

(42) نفح الطيب 166/4، نزهة الجلساء 29، الذيل والتكملة 482/8

(43) الصلة 693/2، جذوة المقتبس 412، بغية الملتمس 443

(44) المغرب 38/2

(45) نزهة الجلساء 85، نفح الطيب 296/4

(46) المغرب 202/2-203

(47) المغرب 203/2

(48) المغرب 38/2

(49) المغرب 38/2

(50) نزهة الجلساء 91، نفح الطيب 206/4

(51) نفح الطيب 176/4

(52) نفح الطيب 178/4، نزهة الجلساء 43

(53) الإحاطة 220/1

(54) المغرب 139/2، نفح الطيب 176/4

(55) المغرب 139/2، نفح الطيب 176/4

(56) صلة الصلة 310/5

(57) المغرب 38/2

(58) نفح الطيب 288/4

(59) الصلة 695/2، نفح الطيب 291/4، نزهة الجلساء 80، جذوة المقتبس 412، بغية الملتمس 544

(60) نفح الطيب 290/4، نزهة الجلساء 62، وتذكر المصادر أنها ماتت دون أن تتزوج.

(61) تحفة القادم 237

(62) نفح الطيب 169/4، نزهة الجلساء 27

(63) نفح الطيب 530/3، نزهة الجلساء 75

(64) نفح الطيب 284/4

(65) نفح الطيب 294/4، الذيل والتكملة 495/8

(66) نفح الطيب 168/4

(67) الذخيرة ق1 م1 ص432

الفصل الثامن

طريقة القراءة عند المكفوفين بصرياً في قصائد من الشعر الأندلسي

طريقة القراءة عند المكفوفين بصرياً
في قصائد من الشعر الأندلسي

مقدمة

هنالك عدد غير قليل من أعلام الفكر والأدب والثقافة العربية المشهورين عبر التاريخ العربي ممن ابتلوا بفقدان البصر، سواء قبل ولادتهم أو بعد ولادتهم، وقد اشتهر منهم في مشرق العالم العربي ومغربه أعلام ذاع صيتهم ذيوعاً واسعاً، مثل سعد بن أبي وقاص وبشار بن برد وأبي العلاء المعرّي وسليمان بن مسلم صريع الغواني وعليّ بن جبلة وشمس الدين الذهبي من أهل المشرق، والأعمى التطيلي وأبي القاسم السهيلي، وأبي الحسن بن سيدة، وأبي القاسم الشاطبي، والأعلم الشنتمري من أهل الأندلس.

وقد عني مؤرّخو الأدب ومؤلّفو كتب التراجم بالتعريف بهؤلاء المكفوفين، وتوسّعوا في سيرهم وأخبارهم وما صدر عنهم من أدب وفكر، وتحدّثوا في أحيان كثيرة عن ذكائهم وقدرتهم على الاتصال بمحيطهم، مثلما تحدّثوا عن معاناتهم بسبب إصابتهم بفقدان البصر.

ولكنّ هؤلاء المؤرّخين لم يولوا أساليب الكتابة والقراءة عند هؤلاء المكفوفين عناية كبيرة، ولم يتبينوا طرق اتصالهم بالعلوم والآداب والأشعار، على الرغم من أنّ أهم الجوانب التي ركّز عليها المؤرخون عند تعريفهم بهؤلاء المكفوفين هي مكانتهم العلمية والأدبية ونشاطهم العلمي والأدبي سواء في التدريس أو في حلقات العلم أو في حفظ الأشعار والأخبار أو في التأليف.

وقد دفعني غياب هذا الجانب الى التنقيب في سير هؤلاء المكفوفين، بحثاً عن أية إشارة تبيّن الوسائل التي استخدموها في الكتابة والتأليف وتدوين الشعر والأدب والأخبار والوسائل التي استخدموها في تلقي العلم والأدب والشعر والأخبار، وهل اقتصرت على الاستماع والاستظهار فقط، أم كانت هنالك وسائل أخرى للاتصال بالعلوم والآداب.

وإلى جانب المصادر الأدبية المشهورة، مثل معجم الأدباء لياقوت، ووفيات الأعيان لابن خلكان، ودواوين الشعراء المكفوفين مثل ديوان أبي العلاء المعري وديوان أبي العباس الأعمى التطيلي الأندلسي وديوان بشار بن برد، فقد رجعت أيضاً إلى بعض مؤلفات العرب القدماء التي اختصت بالحديث عن العميان، مثل كتاب نَكْت الهميان في نُكَت العميان لصلاح الدين الصفدي، وكتاب البرصان والعرجان والعميان والحولان للجاحظ.

وكان حصيلة هذا التقصي بعض الأخبار والأشعار عن محاولات العميان أو من يعنيهم امرهم ابتكار أساليب خاصة بهم للاتصال بمحيطهم، كما وقفت على مقطوعات شعرية تتحدث عن ذكاء العميان وانتقال حاسة البصر الى البصيرة لديهم.

وكان أهم ما وقفت عليه ثلاث قصائد لثلاثة شعراء أندلسيين تصف طريقة قراءة الخطوط باللمس، وردت اثنتان منهما في كتاب أدباء مالقة لابن خميس، بينما وردت القصيدة الثالثة في كتاب الإحاطة للسان الدين بن الخطيب.

وسأقوم في هذه الدراسة بعرض كل قصيدة على حدة وبيان أهم عناصرها.

1- الوسائل التقليدية لاتصال العميان بمحيطهم:

لعل أسهل طريقة لاتصال الأعمى ببيئته ومحيطه هي الاعتماد على الآخرين الذين يأخذون بيديه ويرافقونه في حلّه وترحاله ويساعدونه في تحقيق احتياجاته.

وعندما يكون الأعمى شاعراً مشهوراً أو عاملاً معروفاً، فإنّ دور المرافق لا يكون مجرد مساعدته على التنقل من مكان إلى مكان، وإنما يصبح كاتباً له وراوية لشعره وقارئاً له، وفي هذه الحالة لا بدّ أن يكون المرافق إمّا طالباً نجيباً أو عالماً متمكّناً من علمه.

ومن أمثلة ذلك في الأندلس أن الشاعر أبا القاسم بن أبي طالب المنيشي الأندلسي[1] كان يُعرف بعصا الأعمى لأنه كان يقود الشاعر الوشاح الأعمى التُطيلي[2] ويلازمه[3].

ومن الأمثلة أيضاً ما اشتهر من ملازمة الأديب أبي جعفر أحمد بن يوسف بن مالك الرعيني الأندلسي الغرناطي (ت 779 هـ / 1377 م) لأبي عبدالله محمد بن أحمد علي بن جابر الأندلسي الهوّاري النحوي الأعمى (ت 780 هـ / 1378 م) فَلُقّبا بسبب ذلك بالأعمى والبصير، فكان ابن جابر يؤلف وينظم والرعيني يكتب، ولم يزالا هكذا على طول عمرهما، وقد رحلا إلى مصر معاً، وسمعا من أبي حيان الغرناطي[4]، ودخلا الشام وسمعا من كثير من العلماء[5].

ولعل من أكثر طرق اتصال العميان بالعلم طريقة الاستماع لمن يقرأ عليهم، ففي ترجمته لأبي عبدالله الحدّاد المكفوف القرطبي، يقول الضبّي في بغية الملتمس إنه "كان أديباً مشهوراً بقرطبة، تُقْرأ عليه الآداب والأشعار..."[6].

ومن الطرق التقليدية لتعامل المكفوفين مع محيطهم استخدام العصا لإرشادهم إلى الطريق، ومن الشعراء الأندلسيين الذين اشتكوا العمى ووصفوا استخدام العصا الشاعر أبو المَخْشِيّ عاصم بن زيد القرطبي[7] حيث يقول من إحدى قصائده بعد أن سمل الأمير

هشام بن عبد الرحمن الداخل الأموي[8] عينيه:

خَضَعَتْ أُمُّ بناتي للعدى	ان قضى اللّه قضاء فمضى
ورات اعمى ضريراً إنّما	مشيه بالأرض لمسٌ بالعصا
فبكت وجداً وقالت قولة	وهي حرّى بلغتْ منّي المَدى
ففؤادي قَرحٌ مِن قَولها:	ما من الأدواء داءٌ كالعمى
وإذا نال العمى ذا بصرٍ	كان حيّاً مثل مَيْتٍ قد ثوى
وكأنّ الناعم المسرور لم	يكُ مسروراً إذا لاح الردى
ابصَرَتْ مستبدلاً من طرفه	مَائلاً يسعى به حيث سعى
بالعصا إن لم يقده إنّه	بسؤال الناس يمشي إن مشى
لم يزلْ في كلّ مخشي الرّدى	يَصطلي الحَرب ويجتابُ الدُّجا
امتطيناها سِماناً بُدُنا	فتركناها نضاء بالفنا
وذريني قد تجاوزت بها	مَهْمَهاً قفراً إلى أهلِ الندى
قاصداً خيرَ منافٍ كلّها	ومنافٌ خير من فوق الثرى

وهي طويلة[9].

2- محاولات العميان لابتكار طرق خاصّة للتعامل مع محيطهم:

وقد أوردت المصادر الأدبية أخباراً عن بعض المكفوفين الذين اجتهدوا في ابتكار وسائل خاصّة للاتصال ببيئاتهم. كما أوردت أخباراً عن اشتهار العميان بالذكاء، وأنّ فقدان البصر ينتج عنه زيادة في الذكاء وقوة في البصيرة، قال صلاح الدين الصفدي في "نَكْت الهميان" قلّ أن وُجِد أعمى بليداً، ولا يُرى أعمى إلاّ وهو ذكي[10]" ثم يعلل ذلك قائلاً: "والسبب الذي أراه في ذلك أنّ ذهن الأعمى وفكره يجتمع عليه ولا يعود متشعباً بما يراه، ونحن نرى الإنسان إذا أراد أن يتذكر شيئاً نسيه، أغمض عينيه وفكّر، فيقع على ما شرد من حافظته"[11] ولذلك ساق لنا المثل القائل: "أحفظ من العميان"[12].

وقد تحدث بعض الشعراء العميان عن انتقال حاسة البصر الى البصيرة في سياق افتخارهم بالعمى، ومن هؤلاء الشاعر بشّار بن برد حيث يقول:

إذا وُلدَ المولودُ أعمى وَجَدْتَه ... وجدُك اهدى من بصير واحولا
عَميتُ جنيناً والذكاء من العمى ... فجئت عجيب الظّن للعلم معقلاً
وغاض ضياءُ العَيْنِ للعلم رافدٌ ... وقلبٌ إذا ما ضيّع الناس ولا حصّلا
وشعر كَنَوْرِ الروض لاءمت بينه ... بقولٍ إذا ما أحزن الشعْرُ أسهلا[13]

وأورد أبو منصور الثعالبي في كتابه "تحسين القبيح وتقبيح الحسن" أشعاراً لبعض من عمي من الأعلام يفضّلون فيها العمى على البصر لأن العمى يوقد البصيرة ويقوّيها، فمن ذلك أن عبدالله بن عباس الصحابي الجليل لما عمي قال:

إن يأخذ الله من عينيَّ نورَهُما ... ففي لساني وقلبي منهما نور
قلبي ذكيٌّ وعقلي غيرُ ذي دَخَلٍ ... وفي فمي مِقْوَلٌ كالسيف مأثور[14]

ومن ذلك أيضاً قول الشاعر منصور الفقيه[15]:

يا مُعْرِضاً إذْ رآني ... لمّا رآني ضريرا
كم قد رأيتَ بصيرا ... أعمى، وأعمى بصيرا
قل لي، وإن انت أنْصَفْـ ... ـتَ قُلْتَ: خلقاً كثيرا[16]

ومن ذلك أيضاً قول أبي العلاء المعرّي:

سوادُ العَيْنِ زادَ سوادَ قلبي ... ليتفقا على فَهْمِ الأُمورِ[17]

وقال أبو عليّ البصير الأعمى[18]:

إذا ما غدت طَلاّبة العِلْم ما لها ... من العلم إلاّ ما يُخلّدُ في الكُتْبِ
غدوتُ بتشميرٍ وجدٌ عليهمُ ... ومحبرتي سمعي ودفترها قلبي[19]

ومن شعراء المغرب الإسلامي العميان الذين تحدّثوا عن اتّقاد البصيرة بعد فقدان البصر الشاعر أبو الحسن علي بن عبد الغني الحصَريّ[20] حيث يقول:

وقالوا: قد عميت، فقلت: كلا ... وإنّي اليَومَ أبصرُ من بصير
سوادُ العينِ زاد سوادَ قلبي ... ليجتمعا على فهم الأمور[21]

ومنهم إبراهيم بن محمد التُطيلي[22] حيث يقول:

شمسُ الظهيرة اغْشَتْ كوكَبيْ بَصَري كذا سنا النجم في ضوء الضُحى خمدا
إنْ نازعَ الدهرُ في ثنتين من عُددي فواحدٌ في ضلوعي يبهر العددا
تُغْني عن الشُهْبِ في اجفانه مُقَلاً من كانت الشمسُ في اضلاعه خلَدا

... الخ[23].

ومن الأمثلة التي أوردتها المصادرُ على ابتكار العميان لأساليب للاتصال بمحيطهم، ما ذُكِرَ عن أبي الحسن عليّ بن أحمد بن يوسف بن الخضر الإمام زين الدين الحنبلي الآمدي الذي كفّ بصره في أوائل عمره[24]، من أنّه كان يتّجر في الكتب وأنّه كانت له كتب كثيرة جداً "وكان إذا طُلِب منه كتاب، وكان يعلم أنّه عنده، نهض الى خزانة كتبه واستخرجه من بينها، كأنه قد وضعه لساعته، وإنْ كان الكتَاب عدة مجلدات وطُلِبَ منه الأول أو الثاني أو الثالث أو غير ذلك، أخرجه بعينه وأتى به. وكان يمسّ الكتاب أولاً ثم يقول: يشتمل هذا الكتاب على كذا وكذا كرّاسة، فيكون الأمر كما قال... واذا أمرّ يده على الصفحة قال: عدد أسطر هذه الصحيفة كذا وكذا سطراً وفيها بالقلم الغليظ كذا وهذا الموضع كتب به في الوجهة وفيها بالحمرة هذا وهذا لمواضع كتبت فيها بالحمرة، وإن اتفق أنها كتبت بخطين أو ثلاثة قال: اختلف الخطّ من هنا إلى هنا، من غير إخلال بشيء ممّا يمتحن به، ويعرف أثمان جميع كتبه التي اقتناها بالشراء، وذلك أنه كان إذا اشترى كتاباً بشيء معلوم أخذ قطعة ورق خفيفة، وفتل فتيلة لطيفة، وصنعها حرفاً أو أكثر من أحرف الهجاء لعدد ثمن الكتاب بحساب الجُمّل، ثم يلصق ذلك على طرف جلد الكتاب من داخل، ويلصق فوقه ورقة بقدره لتتأبد، فإذا شذّ عن ذهنه كمية ثمن كتاب ما من كتبه مسّ الموضع الذي علّمه في ذلك الكتاب بيده فيعرف ثمنه من تنبيت العدد الملصق فيه"[25].

ومن ذلك أيضاً ما أورده صلاح الدين الصفدي في "نَكْت الهِميّان" من أن ضريراً في الديار المصرية كان يقرئ الطلبة كتاب إقليدس في الهندسة ويضع أشكاله لهم بالشمع، وعدّه الصفدي من أغرب ما يكون[26].

وقد أشار ابن حزم القرطبي إلى طريقة لتعليم الأطفال المكفوفين القراءة والكتابة فقال: ولقد أخبرني مؤدّبي أحمد بن عبد الوارث - رحمه الله - أنّ أباه صوّر لوالدٍ كان له ولد أعمى أكمه حروف الهجاء أجراماً من قير، ثم ألمسه إياها حتى وقف على صورها بعقله وحسّه، ثم ألمسه تراكيبها وقيام الأشياء حتى تشكل الخط وكيف يستبان الكتاب»[*].

3- **قصيدة الفازازي الأندلسي**[27]:

هذه قصيدة في وصف ضرير يقرأ الخطّ باللمس، وقد قدّم لسان الدين بن الخطيب لهذه القصيدة بقوله: "وقال في مدّعي قراءة الخطّ دون نظر"[28]. ويدلُّ تقديم لسان الدين لهذه القصيدة على أنّه يعتقد أن قراءة الخطّ بطريقة اللمس غير ممكنة، ولذلك وصف ذلك القارئ بالمدّعي، أما الشاعر أبو زيد الفازازي فقد بيّن طريقة القراءة وقدّم لها تفسيراً (شاعرياً) حيث يقول[29]:

وأدْوَرَ ميّاسِ المعاطِفِ اصْبَحَتْ	محاسِنُهُ في النّاس كالنوع في الجنْسِ
يُديرُ على القِرطاسِ انمُل كفّه	فيدرك اخفى الخطّ في ايسر اللمْسِ
فقال فريقٌ: سحرُ بابل عنده	وقال فريق: ليس هذا من الإنس
فقلت لهم: لم تفهموا سرّ دركه	على انّه للعقل أجلى من الشمس
فتى كفّهُ جَبَّ القلوبَ فاصبحت	مداركُها اجفانَ انمله الخمس

والمتأمل لهذه الأبيات يلاحظ أنّ الشاعر لم يقصد إلى الحديث عن الطريقة التي يقرأ بها ذلك المكفوف الخطّ، وإنّما قصد إلى الغزل بذلك الشخص، ولهذا لم يكن هناك اهتمام كبير من قِبل الشاعر بوصف طريقة القراءة ولا بمعرفة السرّ الذي يجعل هذا القارئ يدرك ما في السطور بمجرد اللمس.

واقتصرت المقطوعة على ثلاثة عناصر:

العنصر الأول: الإشارة إلى أنّ هناك شخصاً (أدور وميّاس المعاطف) يقرأ الخطوط مهما دقت في القراطيس عن طريق تمرير أنامل كفّه على الأسطر وبأقل اللمس. وهي لا شك حالة تستحق أن يجد لها المرء تفسيراً.

والعنصر الثاني: أن الناس اختلفوا في تفسير هذه الحالة، وعبارات مثل: "فقال فريق... وقال فريق... فقلت لهم..." تدل على انشغال الناس بهذه الحالة واستغرابهم منها، ومعنى ذلك أنها ليست ظاهرة منتشرة في المغرب الإسلامي. ويفهم من كلمة (فريق) التي تكررت في البيت الثالث أنّ الانشغال بهذه الحالة لم يكن فردياً بل جماعياً. وأما تفسير الناس لهذه الحالة فلم يكن تفسيراً واقعياً، فبعضهم قال إنّه أشدّ أنواع السحر (سحر بابل)، وبعضهم قال إنّ هذا ليس من عمل الإنس، أي أنه عمل عبقري أو من عمل الجنّ.

والعنصر الثالث: أنّ الشاعر وجّه القضية كلّها بعد ذلك توجيهاً غزَلياً، فاتّهم الناس بقلة الإدراك للحقيقة مع أنّ الحقيقة أوضح من الشمس، وهي أنّ هذا القارئ قد تملك

قلوب الناس لجماله فأصبحت كفّه (لاحتوائها على تلك اللقوب) تدرك ما لا تدركه الأبصار.

4- قصيدة سليمان بن أحمد المعروف بكثير[30]:

تختلف هذه القصيدة عن سابقتها في أنّ قائلها يطيل التأمل والوصف لقارئ آخر يقرأ الخطّ باللمس، وقد وردت هذه القصيدة في كتاب أدباء مالقة لابن خميس[31]. وفيما يلي نصها:

يا قارئ الخطّ بلمس البنانْ   مُنيبَهَا لفظَ مناب العيان

أشْكَلَ في غيرك هذا ولكن   بان في فعلك كل البيان

ولو توارى شِمْتَهُ لاحظاً   ما عاق ذاك اللحظَ عنه صوان

فكم تعدّى جُننا نافرا   صدورها نَفْراً[32] لكم من جنان

مَنْ[33] لم يلاحِظْكَ بِفَهم يَجُزْ   عليك ما لم يره في الزمان

مِرانةٌ[34] موضِحةٌ صارعت   من خارق العادة ما قبل كان

يا صورة بدعا أرتنا من   الحسن فنوناً لم تنلها الحسان

إنَ لساني ليطيل وقد   قصّرَ عن وصفك ذاك اللسان

انلتني[35] من بعد ياس من النيل[36]   هوى بل ضمّني[37] خوطُ بان

وقد قبلت[38] اللوم من لائم   فيك فهل لي من صدودٍ أمان

إنّ لهذه الأبيات أهمية خاصّة في الكشف عن طريقة قراءة المكفوفين، لأنها تقدّم لنا بعض الحقائق والعناصر المتصلة بهذه الطريقة. وأهم هذه العناصر ما يأتي:

أولاً: أن هذه الطريقة، كما في القصيدة السابقة، تقوم على تمرير البنان على الخطوط المكتوبة في القراطيس فتدرك محتواها من خلال اللمس، وشاهد ذلك قول الشاعر:

يا قارئ الخطّ بلمس البنان   منيبها لفظ مناب العيان

ثانياً: أنّ شرط هذه الطريقة قوةُ حاسة اللمس، ولذلك فإن القارئ يدرك محتوى الخطوط حتى لو فُصل بينها وبين بنان القارئ بعازل من قماش أو نحوه، وشاهد ذلك قول الشاعر:

ولو توارى شِمتَهُ لاحظاً   ما عاق ذاك اللحظَ عنه صوان

(وفاعل "توارى" ضمير مستتر تقديره هو يعود على "الخط" وكلمة "اللحظ" في هذا البيت مصدر الفعل لحظ، والصوان ما صنت به الشيء[39]، أي ما منعت به الوصول إلى الشيء).

ولذلك فإنّ لحظ هذا القارئ أي إدراكه، استطاع أن ينفذ إلى ما وراء المادّة الساترة ذات الصدور النافرة:

فكم تعدّى جُنناً نافرا صدورها، نفرا لكم من جنان

(وفاعل "تعدى" ضمير مستتر يعود على "اللحظ" أي إدراك القارئ، والجُنَنُ جمع جُنة، أي السُترة[40]، ونافراً صدورها" صفة للجُنَن، والجنان شدّة ظلمة الليل أو رُوعُ القلب[41].

ثالثاً: أن التمرّن على قراءة الخط بهذه الطريقة، ضروري لاكتساب تلك المهارة، وأن التمرّن يجعل هذه المهارة تتفوق على الخوارق السابقة:

مِرانةٌ مُوضِحةٌ صارعت من خارق العادة ما قبل كان

رابعاً: أن ثمة محاولات سابقة لقراءة الخطوط باللمس، ودليل ذلك قول الشاعر، بعد البيت الأول في وصف الطريقة، مخاطباً القارئ نفسه:

أشكل في غيرك هذا ولـ كنْ بان في فعلك كلّ البيان

ومعنى ذلك أن غيرك قد حاول ذلك من قبل ولكن أعياه الأمر، أمّا أنت فقد أفلحت في المحاولة، وظهر النجاح جلياً أمام الناظرين.

إنّ طريقة القراءة في هذه القصيدة تكشف لنا عن حالة أكثر تطوراً من الحالة التي تصفها قصيدة الفازازي السابقة، فالفازازي يتحدث عن قارئ يقرأ الخط باللمس،" وكثير الأديب" يتحدث عن قارئ يقرأ باللمس حتى لو وضع على الخط قطعة قماس نافرة تفصل بين أنامله وبين صفحة القرطاس.

وفي الحالتين يظهر أن قوة حاسة اللمس تجعل القارئ قادراً على إدراك أدقّ درجة من درجات اختلاف السُمك في صفحة القرطاس، إلى حد إدراك السمك الذي يضيفه المِداد عند الكتابة على صفحة الورقة. وفي حالة القارئ في قصيدة "كثير الأديب" فإنّ قطعة القماش التي توضع على صفحة القرطاس من شأنها أن تخفف كثيراً من إدراك القارئ للسمك الزائد الذي ينتج عن الكتابة على صفحة القرطاس، غير أن قوة حاسة اللمس التي يملكها هذا القارئ تجعله قادراً على الإحساس بذلك السمك وإدراكه على الرغم من ذلك العازل بين القرطاس وبين أنامله.

5- قصيدة ابن عسكر المالقي[42]:

وهذه قصيدة ثالثة في موضوع قراءة العميان بطرق اللمس، وهي قصيدة أبعد عن التكلف في اللغة والوصف من سابقتيها، وهي أجمل لغة وتصويراً منهما، ومع ذلك فهي أدنى إلى الوصف العلمي والتفسير المنطقي لهذه الظاهرة من القصيدتين السابقتين، ولا عجب من ذلك، فإن أبا عبدالله محمد بن عسكر المالقي ناظم هذه القصيدة قد وضع كتاباً سمّاه "الجزء المختصر في السلو عن ذهاب البصر"[43] ممّا يجعل عنايته بوصف القارئ الضرير من صميم اهتماماته.

ووردت القصيدة في كتاب "أدباء مالقة" على النحو الآتي:

"وله في قارئ يقرأ ما يُكتَبُ له تحت أثوابه باللمس من غير أن يعاين ما في الطرس مكتوباً:

وقارئ ما تحت أثوابه ... كأنما ينظر في طِرْسه
مزِيّةٌ فاضت بأعضائه ... فانقلبت فيه إلى حسّه
كأنما قوةُ إبصاره ... قد نُقِلتْ منه إلى لمسه
كأنّما الحرف له نابضٌ ... وهو كجالينوس في طبّه
لا تعجبوا من أن إدراكه ... ينفذ ما يعلوه من لمسه
فالأفُق الأعلى سماواتُه ... لا تحجب الإدراك عن شمسه
لمثله كان سليمان قد ... نظر الهدهد في نفسه
فيالها من آية أعجزت ... عن مثلها كلّ بني جنسِه[44]

تشترك هذه القصيدة مع القصيدة السابقة، في كونها تصف قراءة العميان بطريقة اللمس، مع وجود قطعة من القماش تفصل بين القرطاس وأنامل القارئ. ولكن ابن عسكر يفسر هذه الظاهرة تفسيراً علمياً عندما يقول بأنّ فقدان حاسة البصر لدى ذلك القارئ قد عُوض عنها زيادة قوية في حاسة اللمس:

مزِيّة فاضت بأعضائه ... فانقلبت فيه إلى حسه
كأنما قوة إبصاره ... قد نُقِلت منه إلى لمسه
كأنما الحرف له نابضٌ ... وهو كجالينوس في جَسِّهِ[45]

وهذا التفسير لهذه الظاهرة لا يختلف كثيراً عمّا ذكر سابقاً عن فقدان البصر وما يؤدي إليه من قوة البصيرة، غير أنّ تفسير ابن عسكر أقرب إلى النظريات العلمية الحديثة حول تعويض الحاسّة المفقودة في تقوية إحدى الحواس المتبقية[46].

خاتمة

ناقشت هذه الدراسة بعض الأخبار والأشعار التي تتناول بصورة مباشرة وغير مباشرة، وسائل اتصال المكفوفين ببيئتهم ومحيطهم، وخاصة في مجال الاتصال بالإنتاج الفكري المكتوب، وتحاول أن تلفت النظر إلى وجود ثلاث قصائد لثلاثة شعراء أندلسيين تتناول موضوعاً واحداً يتصل بهذه المسألة اتصالاً مباشراً. وتشترك هذه القصائد في وصف قراءة العميان للخطوط بطريقة اللمس، وتركز قصيدتان منها على وصف تلك الطريقة على الرغم من تغطية سطح القرطاس بقطعة من القماش.

وتشترك القصائد الثلاث بالتعبير عن الدهشة والاستغراب من الظاهرة وعدّها من الخوارق والمعجزات التي لم تسبق معرفتها من قبل.

كما تحاول كلّ قصيدة من هذه القصائد أن تجد تفسيراً لتلك الظاهرة، إلا أن هذه التفسيرات ظلّت قاصرة من الناحية العلمية بسبب حالة الاندهاش التي أصابت الشعراء، ويمكن أن نستثني قصيدة ابن عسكر من هذا الحكم لأنّ الشاعر أورد فيها بعض التفسيرات القريبة من النظر العلمي والمنطقي.

ويلاحظ على قصيدة "الفازازي" وقصيدة "كثير الأديب" بعض الغموض في التصوير والتعبير والوصف، وربّما يعود ذلك أيضاً إلى غرابة الظاهرة نفسها، وأما قصيدة ابن عسكر فتختلف عن القصيدتين السابقتين بانها أقلّ غموضاً وأوضح عبارة وأنصع لفظاً.

ويستطيع الباحث أن يقرّر بأن كلّ قصيدة من القصائد الثلاث تصف حالة فردية مستقلة تماماً عن الحالتين الأخريين، وأنّ لكل من الحالات الثلاث ظروفها الخاصة وملابساتها التي لا يمكن معرفتها من غير الاطلاع على سير هؤلاء المكفوفين ومعرفة درجات العمى لدى كلّ واحد منهم، وهذا متعذّر تماماً بسبب عدم معرفة أسمائهم أصلاً.

ولكن لابد من التنويه أيضاً إلى أنّ وجود حالات ثلاث لمكفوفين ثلاثة في زمن واحد، هو النصف الأول من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي يقرأون الخط باللمس، يوحي للباحث بأن هذه الحالات الفردية الثلاث - وربما حالات أخرى لم ترشح الينا أخبار عنها - قد تأخذ شكل "ظاهرة" في ذلك الزمن المشار إليه.

والسؤال المهم حول هذا الموضوع هو: إذا كان هؤلاء المكفوفون قادرين على تمييز الخطوط وإدراكها باللمس، فمعنى ذلك أنهم تعلموا الحروف العربية وأشكالها وصورها وهذا لا يتأتى للأعمى إلا في حالتين:

الأولى: أن يكون وُلد بصيراً وتعلّم القراءة والكتابة ثم كفّ بصره، وظلت صورة الحروف عالقة في ذاكرته.

والثانية: أن يكون أهل الأندلس في ذلك العهد يعلّمون العميان القراءة باستعمال مجسمات للحروف والكلمات وقد قدّم ابن حزم كما ذكرنا سابقاً دليلاً على وجود مثل ذلك.كما نجد الشاعر أبا عبدالله محمد بن غالب الرصافي (ت 572 هـ / 1176 م) يصف "خطّاً في كاغد مقطوعاً بمقصّ قائلاً[47]

بعيشك هل أبصرت من قبل أحرفاً ... كُتِبْنَ بماء الحُسن في طُررِ الزهْر

سحاءة قرطاس ثنتها كما ترى ... ملاعبةُ المقراض سطراً على سطر

أليس عجيباً أن يعوّضَ كاتبٌ ... بكافورةِ القرطاس عن مسكه الحبر

إن وجود ظاهرة قراءة العميان بلمس السطور أو من فوق قطعة قماش يدل على أن هناك محاولات قديمة لاكتشاف طريقة تيسر للمكفوفين الاتصال بأهم مصدر من مصادر المعرفة، وهو الكتاب، وأنّ المحاولات الحديثة المستمرة لتطوير وسائل القراءة للمكفوفين إنما هي امتداد لتلك المحاولات السابقة. ولا بدّ أن تكون طريقة بريل[48] الشائعة الاستخدام حالياً قد ابتكرت بعد محاولات كثيرة في هذا المجال.

الحواشي والتعليقات

(1) هو أبو القاسم بن أبي طالب الحضرمي المَنيشي، وزير أديب شاعر ناقد من شعراء القرن السادس الهجري، من قرية منيش من قرى إشبيلية (ابن سعيد الأندلسي، أبو الحسن علي بن موسى ت 685 هـ / 1286م، رايات المبرّزين وغايات المميزين، حققه وعلق عليه: الدكتور محمد رضوان الداية، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق الطبعة الأولى، 1987؛ ص78، ابن سعيد الأندلسي، المُغرب في حُلى المغرب (2 ج)، حقّقه وعلق عليه الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف مصر، 1964، 289/1؛ ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان القيسي الإشبيلي ت 529 هـ/ 1135م، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، دراسة وتحقيق محمد علي شوابكة، دار عمار ومؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 1983، ص353؛ ابنْ دِحْية، أبو الخطاب عمر بن حسن ت 633 هـ / 1235 م، المطرب من أشعار أهل المغرب تحقيق إبراهيم الأبياري وحامد عبد المجيد وأحمد أحمد بدوي، دار العلم للجميع، 1954، ص 110، الضبّي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة ت 599 هـ / 1202م، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكاتب العربي، 1967، ص 534؛ المقّري، أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني ت 1041 / 1631 م، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (8 ج)، حققه الدكتور إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت 1968 , 53/7.

(2) أبو العباس وأبو جعفر أحمد بن عبدالله بن أبي هريرة القيسي الأعمى التُطيلي المتوفى سنة 525 هـ / 1130 م. له ديوان شعر حققه الدكتور إحسان عباس (دار الثقافة بيروت – 1989).

(3) ابن سعيد، رايات المبرّزين ص 78؛ المُغرب في حُلى المَغْرب 289/1.

(4) أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيّان الغرناطي، من كبار علماء النحو، ولد في غرناطة سنة 1256/654م، رحل إلى مصر وأقام فيها، وله عدد كبير من المؤلفات في النحو والحديث والتفسير وغيرها، وتوفي سنة 1344/745م. (السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ت 911 هـ / 1505م، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة (2ج)، دار الفكر، الطبعة الثانية، 1979،1/280-285؛ الصفدي، صلاح الدين خليل بن آيبك ت 764 هـ / 1362م، الوافي بالوفيات، الجزء الخامس، باعتناء س. ديدرينغ، دار النشر: فرانز شتاينر، فيسبادن، 1981، ص267-283؛

الصفدي، صلاح الدين خليل بن آيبك، نكت الهِمْيان في نُكتِ العِمْيان، عني بطبعه ونشره أسعد الحسيني، مصر، 1984، ص 280-286.

(5) أنظر أخبارهما في: السيوطي، بغية الوعاة 34/1-35؛ الصفدي، نكت الهميان، ص 244-245؛ المقّري، نفح الطيب 664/2-690.

(6) الضبّي بغية الملتمس ص 523.

(7) أبو المَخشي عاصم بن زيد بن حنظلة بن علقمة... التميمي العبادي، وأبوه أبو زيد هو الداخل من المشرق إلى الأندلس، كان شاعراً مطبوعاً من شعراء القرن الثاني الهجري، وكان منقطعاً الى سليمان بن عبد الرحمن الداخل، فكان هشام بن عبد الرحمن يكرهه بسبب ذلك، واتهم أبو المخشي بأنه عرّض بهشام لأنه كان أحول، فعمل هشام الحيلة حتى تمكّن من أبي المَخْشي فأمر بقطع لسانه وسمل عينيه، فصار أعمى توفي سنة 180 هـ / 796 م.

(ابن عبد الملك المراكشي، أبو عبدالله محمد بن محمد ت 703 هـ / 1303م، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الخامس (قسمان)، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1965، القسم الأول، ص102-103، لسان الدين بن الخطيب، أبو عبدالله محمد بن عبدالله السلماني اللوشي ت 776 هـ/ 1374م، الإحاطة في أخبار غرناطة (4 ج)، تحقيق محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1977-1973، 231/4-235؛ ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز القرطبي، تاريخ افتتاح الأندلس، حققه وشرحه وقدم له عبدالله أنيس الطباع، دار النشر للجامعيين، بيروت 1957، ص 59-60، الحميدي، أبو عبدالله محمد بن أبي نصر فتّوح بن عبدالله الأزدي ت 488 هـ/ 1095م، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، 1966، ص 401، الضبّي، بغية الملتمس ص 528؛ ابن سعيد الأندلسي، المُغْرب في حلى المغرب 123/2-124؛ الأزدي، علي بن ظافر، بدائع البدائه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1970، ص38-39).

(8) هشام بن عبد الرحمن الداخل ثاني أمراء بني أمية في الأندلس، ولي بعد أبيه عبد الرحمن الداخل سنة 172 هـ / 788 م وظل والياً حتى وفاته سنة 180 هـ /796م. (الحميدي جذوة المقتبس ص 10؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص65).

(9) وردت الأبيات الستة الأولى في: ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الخامس، القسم الأول، ص 103، وورد بعضها في: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس ص 59، ووردت جميعها في: ابن الخطيب، الإحاطة 233/4-234 (مع كثير من التصحيف).

(10) الصفدي، نكت الهميان، ص83.

(11) نفسه.

(12) نفسه، ورد المثل في الميداني (انظر: الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد ابن إبراهيم النيسابوري ت 1124/518م، مجمع الأمثال (2 ج)، حققه محمد محيي الدين عبد الحميد، دار القلم، بيروت، 229/1).

(13) الجاخظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب ت 255 هـ / 868 م، البرصان والعرجان والعميان والحولان، تحقيق الدكتور محمد مرسي الخولي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، 1981، ص 20؛ بشار بن برد، ديوان بشّار، لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر، 1369 هـ، 136/4.

(14) الثعالبي، أبو منصور عبد الملك النيسابوري ت 529 هـ / 1143م، تحسين القبيح وتقبيح الحسن، تحقيق شاكر العاشور، إحياء التراث الإسلامي، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، الجمهورية العراقية، الطبعة الأولى 1981، 47-48 الصفدي، نكت الهميان ص 71.

(15) أبو الحسن منصور بن إسماعيل بن عمر التميمي شاعر ضرير سكن مصر وتوفي بها سنة 306 هـ / 918م (انظر: ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن أبي بكر ت 681 هـ / 1282 م، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (8 ج)، حققه الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (1977، 289/5-292).

(16) الأبيات في: الثعالبي، تحسين القبيح، ص49.

(17)الصفدي، نكت الهميان، ص72.

(18) أبو علي الفضل بن جعفر بن الفضل بن يونس النخعي الشاعر المعروف بالبصير، من أهل الكوفة وسكن بغداد، مدح المعتصم والمتوكل (المصدر السابق ص 225؛ ابن المعتز،

عبدالله بن المعتز ت 296 هـ / 908 م، طبقات الشعراء، تحقيق عبد الستار أحمد فرّاج، دار المعارف بمصر، 1956، ص 397).

(19) الصفدي، نكت الهميان، ص 77.

(20) أبو الحسن علي بن عبد الغني القروي الحصري الأندلسي، نحوي شاعر ضرير، طاف الأندلس ومدح ملوكها مثل المعتمد بن عباد والمعتصم بن صمادح ودخل الأندلس بعد 450 هـ / 1058م، توفي سنة 488 هـ / 1095م.

(ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله، معجم الأدباء (20ج) دار الفكر، الطبعة الثالثة، 1980، 39/14-41؛ الصفدي، نكت الهميان، ص 213-214، ابن بسام الشنتريني، أبو الحسن علي بن بسّام ت 542 هـ / 1147م، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (أربعة أقسام في ثمانية مجلدات)، تحقيق الدكتور إحسان عبّاس، دار الثقافة، بيروت، 1978-1979، القسم الرابع المجلد الأول ص 245-283).

(21) ياقوت، معجم الأدباء، 1/14؛ الصفدي، نكت الهميان ص 76.

(22) أبو اسحق إبراهيم بن محمد التُطِيلي الضرير، نشأ بقرطبة وسكن إشبيلية وكان يعرف بالتطيلي الأصغر للتفريق بينه وبين أبي العباس أحمد بن هريرة التُطيلي، وعاش في القرن السادس الهجري (ابن الأبّار، أبو عبدالله محمد بن الأبّار القضاعي البلنسي ت 658 هـ / 1259م، تحفة القادم، أعاد بناءه وعلّق عليه الدكتور إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1986، ص 39-41؛ الصفدي، نكت الهميان، ص 90؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، الجزء السادس، باعتناء، س ديدرينغ، دار النشر فرانز شتاينر، فيسبادن، 1981، ص 134).

(23)الصفدي، نكت الهميان ص 75؛ الوافي بالوفيات 134/6).

(24) بغدادي، له مجموعة من المؤلفات في تعبير الرؤيا والفقه، وكان يتاجر بالكتب، توفي بعد سنة 712 هـ / 1312م.

(25) نفسه ص 207-209.

(26) المصدر نفسه ص 84-85.

(*) ابن حزم، رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980 ، 335/4.

(27) أبو زيد عبد الرحمن بن يخلفتن بن أحمد بن تنفليت الفازازي، نسبة إلى جبل فازاز بقلبيّ مكناسةالزيتون، ولد ونشأ في قرطبة، ورحل إلى مراكش وتلمسان وفاس ومالقة وإشبيلية وتونس، وكان على صلة بأمراء الموحّدين، وله شعر ونثر، وكانت وفاته في مراكش سنة 627 هـ / 1229 م.

(انظر ترجمته في: ابن الخطيب، الإحاطة 3/517-522؛ ابن عبد الملك المراكشي، أبو عبدالله بن محمد، ت 703 هـ / 1303 م، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الثامن (قسمان)، تحقيق الدكتور محمد بن شريفة، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، القسم الثاني، ص542، ابن الأبار، أبو عبدالله محمد بن الأبار القضاعي البلنسي ت 658 هـ / 1259م، التكملة لكتاب الصلة (طبعة مدريد) 2/585؛ الرعيني، أبو الحسن علي بن محمد بن علي الإشبيلي ت 666 هـ / 1267 م، برنامج شيوخ الرعيني، حققه إبراهيم شبّوح، مديرية إحياء التراث القديم، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1962، ص 100-105؛ السيوطي، بغية الوعاة 2/91، المقري؛ نفح الطيب 2/119، 195، 4/122، 7،468/507. وانظر ايضاً: آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي، نصوص أدبية من القرن الهجري السابع جمعها بعض تلاميذه في حياته، تقديم وتحقيق عبد الحميد عبدالله الهرامة، دار قتيبة، بيروت، الطبعة الاولى، 1991).

(28) ابن الخطيب، الإحاطة 3/522.

(29) وردت المقطوعة في: ابن الخطيب، الإحاطة 3/522، العبّاس بن إبراهيم، الإعلام بمن حلّ بمراكش وأغمات من الأعلام، المطبعة الملكية، الرباط، 1977، 8/87؛ آثار أبي زيد الفازازي، ص 162.

(30) شاعر من شعراء الأندلس أصله من العلياء، بغرب الأندلس، ويعرف بكثير الأديب أقام بمالقة مدة، ومرّ بإشبيلية ثم رحل الى بجاية، وبعدها استقر في جزيرة منورقة، وتوفي سنة 636 هـ / 1238م.

(انظر ترجمته في: ابن خميس، أدباء مالقة 370، ابن سعيد الأندلسي، أبو الحسن علي بن موسى ت 685 هـ / 1286م، القدح المعلّى في التاريخ المحلّى (اختصره أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن خليل)، تحقيق إبراهيم الأبياري، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1959، ص 189، ابن هذيل الفزاري، أبو الحسن علي بن عبد الرحمن، فكاهات الأسمار ومذهبات الأخبار والأشعار تحقيق الدكتور عبدالله حمادي،

مؤسسة البابطين، الكويت، 2004، ص 85؛ ابن سعيد الأندلسي، رايات المبرزين وغايات المميزين، حققه محمد رضوان الداية، دار طلاس، دمشق، 1987، ص 94 واختلفت هذه المصادر في اسم والده؛ الغبريني، عنوان الدراية، 279-281.

(31) ابن خميس، أدباء مالقة 370

(32) في الأصل: قبرا.

(33) في الأصل: ومن.

(34) في الأصل: من أنت.

(35) في الأصل: اقبلتني.

(36) غير واضحة في الاصل.

(37) غير واضحة في الاصل: صعنى

(38) في الاصل" أقبلت.

(39) ابن منظور ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، مادة "صون".

(40) نفسه: مادة "جنن".

(41) نفسه: مادة "جنن".

(42) ابو عبدالله محمد بن علي بن خضر بن هارون بن عسكر الغساني، من أهل مالقة، وأصله من قرية بغربيها، أديب شاعر مؤرخ، ولي قضاء مالقة مرتين، سمع عن عدد كبير من علماء الأندلس والمشرق، له عدد من المؤلفات منها: "الجزء المختصر في السلوّ عن ذهاب البصر" ولعل هذه الرسالة هي التي جعلته يصف قراءة العميان، ولو وصلت إلينا هذه الرسالة لربما قدمت لنا فوائد أخرى في موضوع هذا البحث، ومن مؤلفاته ايضا كتاب أدباء مالقة لكنه توفي قبل أن يتمّه، فأكمله ابن اخته ابو بكر محمد بن خميس، ويعرف هذا الكتاب بأكثر من عنوان، وكان مولد ابن عسكر سنة 584 هـ / 1188م، وتوفي سنة 636 هـ / 1238م.

(انظر ترجمته في: ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (السفر السادس)، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الاولى،

1973، ص 449-452؛ ابن الأبار القضاعي، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر البلنسي ت 658 هـ / 1259م، التكملة لكتاب الصلة، نشره عزت العطار الحسيني، مصر، 642/641/2,1956؛ النباهي المالقي، أبو الحسن بن عبدالله بن الحسن، تاريخ قضاة الأندلس، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت، ص 123؛ المقري، نفح الطيب 351/2-352، ابن الخطيب الإحاطة 172/2-175، وله ترجمة مطولة في أدباء مالقة من تأليفه واتمام ابن خميس ص 164-184.

(43) ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة (طبعة مصر)، 642/2؛ ابن الخطيب، الإحاطة /174 2، ابن خميس، أدباء مالقة ص 166؛ النباهي المالقي، تاريخ قضاة الاندلس ص 123؛ ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة 450/6.

(44) وردت هذه القصيدة في "ادباء مالقة"، ص 179.

(45) طبيب يوناني مشهور وله مؤلفات مشهورة (انظر: صاعد الأندلسي، أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد ت 462 هـ / 1070م، طبقات الأمم، نشره لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، 1912 ص 28).

(46) حول تعويض الحواس انظر: د، مختار حمزة، سيكولوجية المرضى وذوي العاهات، ص 125-129 حيث يعرض للاعتقاد الشائع حول تعويض الحواس وأن فقدان البصر يؤدي إلى زيادة حدة الحواس الأخرى ومنها حاسة اللمس. ثم يقدم إثباتات وتجارب تدحض هذا الاعتقاد، وتثبت أن زيادة حدة إحدى الحواس يرجع إلى تدريب تلك الحاسة كوسيلة من وسائل تعرّف الأعمى على البيئة المحيطة به.

(47) ابن خميس، أدباء مالقة ص 26.

(48) تعتمد طريقة بريل على الخط النقطي والتمييز باللمس بنقط بارزة، حيث تكوّن أشكال مختلفة من هذه النقط يرمز كل شكل منها الى حرف من الحروف الهجائية وإلى اختصارات أخرى كثيرة. ويبلغ عدد هذه الأشكال ثلاثة وستين شكلا يتألف كل شكل من نقطة إلى ست نقاط بارزة مرتبة على شكل خلايا، مصفوفة في أسطر على الورقة وتقرأ بتمرير رؤوس الأصابع عليها برقة. ومخترع هذه الطريقة هو لويس بريل (Louis Braille) (1809-1852) الفرنسي الذي كفّ بصره في الثالثة من عمره، وقد اخترع هذه الطريقة سنة 1824 عندما كان طالبا في المعهد الوطني للأطفال المكفوفين

في باريس. ومن المحاولات التي سبقت طريقة بريل طريقة اخترعها الفرنسي فالنتين هوي Valentin Hayu (1745-1822) من خلال الحروف المحفورة في الخشب أو مجسمات الحروف الورقية. كما اخترع وليام مون (1818-1894) (William Moon) طريقة تعتمد على الحروف الرومانية.

(انظر: art Braille، Encyclopedia Britancia, Vol. 3, pp 111-115)

(وانظر أيضا د. مختار حمزة، سيكولوجية المرضى وذوي العاهات، ص 127، يوسف المؤذن، عالم النور، ص111-114).



المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

- **آثار ابي زيد الفازازي الأندلسي**، الفازازي، أبو زيد عبد الرحمن بن يخلفتن ت 627 هـ، تحقيق وتقديم عبد الحميد عبدالله الهرامة، دار قتيبة، بيروت، 1991،

- **آثار البلاد وأخبار العباد**، القزويني، زكرياء بن محمد بن محمود، دار صادر ودار بيروت، بيروت، 1960.

- **ابن مغاور الشاطبي** (حياته وآثاره)، دراسة وتحقيق محمد بن شريفة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1415 هـ / 1994 م.

- ابو العبّاس أحمد بن شكيل الأندلسي شاعر شريش، تقديم وتحقيق: **حياة قارة**، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط1، 1998.

- **ابو الفتح البستي حياته وشعره**، الدكتور محمد مرسي الخولي، دار الأندلس، 1980.

- **الإحاطة في اخبار غرناطة**، ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالله السلماني اللوشي (ت 776 هـ)، تحقيق محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1973-1977.

- **الإحاطة في اخبار غرناطة** (نصوص جديدة لم تنشر)، لسان الدين بن الخطيب، تحقيق عبد السلام شقور، كلية الآداب، تطوان، المغرب، 1988.

- **اخبار الفقهاء والمحدثين**، الخشني، محمد بن حارث (ت 361 هـ)، دراسة وتحقيق ماريا لويسا آبيلا ولويس مولينا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، معهد التعاون مع العالم العربي، مدريد، 1992.

- **اختصار القدح المعلّى في التاريخ المحلّى**، أبو عبدالله محمد بن خليل (وهو مختصر لكتاب القدح المعلّى لأبي الحسن عليّ بن موسى بن سعيد المغربي ت 685 هـ)، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1980 م.

- **ادباء مالقة المسمّى مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار**، ابن خميس المالقي، أبو بكر محمد بن محمد ابن علي (ت بعد 639 هـ)، حققه وقدم له: الدكتور صلاح جرار، دار البشير / عمّان، ومؤسسة الرسالة / بيروت، ط1، 1999.

- **ازهار الرياض في اخبار عياض**، المقّري، أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني (ت 1041 هـ)، تحقيق مصطفى السقّا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة، الرباط، 1978.

- **الإعلام بمن حلّ بمراكش وأغمات من الأعلام**، العباس بن إبراهيم، المطبعة الملكية، الرباط، 1977.

- **اعمال الأعلام**، ابن الخطيب، ذو الوزارتين لسان الدين (ت 776 هـ)، تحقيق وتعليق إ. ليفي بروفنسال،

دار المكشوف، ط2، بيروت، 1956.

- **الأغاني**، لأبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، تحقيق الدكتور إحسان عباس والدكتور إبراهيم السعافين والدكتور بكر عبّاس، دار صادر، بيروت، ط1، 2000م.

- **الأنيس المطرب بروض القرطاس**، الفاسي، علي بن أبي زرع، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973.

- **بدائع البدائه**، الأزدي، علي بن ظافر، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1970.

- **البديع في وصف الربيع**، الحميري، أبو الوليد إسماعيل بن عامر (ت 440 هـ)، نشره الأستاذ هنري بيريس، معهد العلوم العليا المغربية، الرباط، 1359 هـ / 1940 م.

- **البرصان والعرجان والعميان والحولان**، الجاحظ، تحقيق محمد مرسي الخولي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1981.

- **برنامج شيوخ الرعيني**، الرعيني، أبو الحسن علي بن محمد بن علي الإشبيلي (ت 666 هـ)، حققه إبراهيم شبّوح، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، دمشق، 1962.

- **بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس**، الضبّي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (ت 599 هـ)، دار الكاتب العربي، القاهرة، 1967.

- **بغية الوعاة**، السيوطي ت911 هـ، دار الفكر، ط2، 1979.

- **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ابن عذاري المراكشي، تحقيق ومراجعة ج. س. كولان و إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت.

- **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ابن عذاري المراكشي، قسم الموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ودار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1406 هـ / 1985م.

- **تاريخ الأدب الأندلسي / عصر سيادة قرطبة**، إحسان عبّاس، دار الشروق، عمّان، 2001 م.

- **تاريخ افتتاح الأندلس**، ابن القوطية القرطبي، حققه وشرحه وعلّق عليه وقدّم له عبدالله أنيس الطباع، دار النشر للجامعيين، بيروت، 1957.

- **تاريخ عبد الرحمن الناصر**، مؤلف مجهول، تحقيق إ. ليفي بروفنسال وإميليو غارسيا غومس، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد وغرناطة، 1950.

- **تاريخ علماء الأندلس**، ابن الفرضي، أبو الوليد عبدالله بن محمد بن يوسف الأزدي الحافظ (ت403

هـ)، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966.

- **تاريخ الفكر الأندلسي**، آنخل جنثالث بالنثيا، نقله عن الإسبانية، حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط1، 1955.

- **تاريخ قضاة الأندلس**، **النباهي المالقي**، أبو الحسن ين عبدالله بن الحسن، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت.

- **تحسين القبيح وتقبيح الحسن**، الثعالبي النيسابوري، تحقيق شاكر العاشور، وزارة الأوقاف، العراق، 1981.

- **تحفة القادم**، ابن الأبّار القضاعي، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر البلنسي (ت 658 هـ)، أعاد بناءه وعلّق عليه الدكتور إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1406 هـ / 1986م.

- **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة اعلام مذهب مالك**، القاضي عياض، أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي (ت 544 هـ)، تحقيق د. أحمد بكير محمود، دار مكتبة الحياة، بيروت، ودار مكتبة الفكر، طرابلس، ليبيا، 1968.

- **التكملة لكتاب الصلة**، ابن الأبار، نشره عزت العطار الحسيني، مصر، 1956.

- **(كتاب) التشبيهات من اشعار اهل الأندلس**، الكتّاني، أبو عبدالله محمد بن الكتاني الطبيب، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1966.

- **التكملة لكتاب الصلة**، ابن الأبّار القضاعي (ت 658 هـ)، نشره عزّت العطّار الحسيني، مكتبة الخانجي، مصر 1956.

- **تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون**، الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، مصر، 1969.

- **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**، الحميدي، أبو عبدالله محمد بن فتوح (ت 488 هـ)، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966.

- **جنّة الرضا في التسليم لما قدّر الله وقضى**، ابن عاصم الغرناطي، أبو يحيى محمد بن محمد (ت 857 هـ)، تحقيق د. صلاح جرار، دار البشير للنشر والتوزيع، عمّان، 1989.

- **الحلة السيراء**، ابن الأبّار، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي (ت 658 هـ)، حققه وعلّق حواشيه الدكتور حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 1963.

- **خريدة القصر وجريدة اهل العصر** (القسم الرابع)، العماد الأصفهاني (ت 597 هـ)، تحقيق الأستاذين

عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم، دار نهضة مصر للطبع والنشر، مصر، 1964.

- **ديوان إبراهيم بن الحاج النميري**، تحقيق الدكتور عبد الحميد عبدالله الهرّامة، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2003.

- **ديوان ابن الأبّار**، أبي عبدالله محمد بن الأبّار القضاعي البلنسي (595-658 هـ)، قراءة وتعليق الدكتور عبد السلام الهرّاس، الدار التونسية للنشر، تونس، 1405 هـ / 1985 م.

- **ديوان ابن حمديس**، صححه وقدم له الدكتور إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، 1960.

- **ديوان ابن خاتمة الأنصاري**، أحمد بن علي بن خاتمة (ت 770 هـ)، حققه وقدم له الدكتور محمد رضوان الداية، دار الحكمة، دمشق، 1399 هـ / 1978 م.

- **ديوان ابن خفاجة**، تحقيق الدكتور سيّد غازي، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط2، 1979.

- **ديوان ابن درّاج القسطلي**، حققه وقدم له وعلق عليه: الدكتور محمود علي مكي، منشورات مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، 2004.

- **ديوان ابن الزقاق البلنسي**، تحقيق عفيفة محمود ديراني، دار الثقافة، بيروت، 1964.

- **ديوان ابن زمرك الأندلسي**، محمد بن يوسف الصريحي، حققه وقدّم له ووضع فهارسه: الدكتور محمد توفيق النيفر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997.

- **ديوان ابن زيدون ورسائله**، شرح وتحقيق الأستاذ علي عبد العظيم، تقديم ومراجعة الدكتور محمد إحسان النصّ، منشورات مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، 2004.

- **ديوان ابن سهل الأندلسي**، تحقيق الدكتور إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، 1400 هـ / 1980.

- **ديوان ابن شهيد الأندلسي ورسائله**، جمعه وحققه وشرحه الدكتور محيي الدين ديب، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 1417 هـ / 1997م.

- **ديوان ابن الصبّاغ الجذامي**، تقديم وتحقيق نور الهدى الكتاني، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2003.

- **ديوان ابن عبد ربه**، أبو عمر أحمد ابن عبد ربه القرطبي (ت 328 هـ)، حققه وجمعه وشرحه الدكتور محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1979.

- **ديوان ابن فركون**، تقديم وتعليق محمد بن شريفة، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ط1، 1407 هـ / 1987 م.

- **ديوان أبي إسحق الإلبيري الأندلسي**، حققه وشرحه وقدم له الدكتور محمد رضوان الداية، دار قتيبة، دمشق، ط2، 1401 هـ / 1981.

- ديوان أبي الحسن بن الجيّاب (دراسة وتحقيق)، مشهور الحبّازي، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، 1983/1982.

- ديوان الأعمى التطيلي، التطيلي، أبو العباس أحمد بن عبدالله ت 525 هـ، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1989.

- ديوان الإمام ابن حزم الظاهري، جمع وتحقيق ودراسة د. صبحي رشاد عبد الكريم، دار الصحابة للتراث، طنطا، ط1، 1410 هـ / 1990م.

- ديوان البحتري، عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه: حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، مصر، 1964-1963.

- ديوان حازم القرطاجني، تحقيق الكمّاك، بيروت، 1964.

- ديوان الحكيم أبي الصلت أميّة بن عبد العزيز الداني (ت 529 هـ)، جمع وتحقيق محمد المرزوقي، دار الكتب الشرقية، تونس، 1974.

- ديوان الحماسة، أبو تمام، شرح التبريزي، دار القلم، بيروت.

- ديوان الحمراء، د. صلاح جرار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1999.

- ديوان الرصافي، أبو عبدالله محمد بن غالب الرصافي (ت 573 هـ)، جمعه د. إحسان عبّاس، دار الشروق، بيروت، ط2، 1983.

- ديوان الشريف الرضي، دار صادر، بيروت، 1980.

- ديوان الشنفرى، عمرو بن مالك، جمع وتحقيق إميل يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1991.

- ديوان الصيِّب والجهام والماضي والكهام، ابن الخطيب، لسان الدين، دراسة وتحقيق الدكتور محمد الشريف قاهر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى، 1973.

- ديوان العبّاس بن الأحنف، دار صادر، بيروت، 1398 هـ / 1978.

- ديوان عبد الكريم القيسي الأندلسي، تحقيق د. جمعة شيخة، و د. محمد الهادي الطرابلسي، بيت الحكمة، قرطاج، 1988.

- ديوان المعتمد بن عبّاد، جمع وتحقيق الدكتور رضا الحبيب السويسي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1975.

- ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث، تحقيق عبدالله كنون، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، 1965.

- **ديوان مجنون ليلى**، شرح الدكتور يوسف فرحات، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1412 هـ / 1992م.

- **ديوان يحيى بن حكم الغزال**، جمعه وحققه وشرحه الدكتور محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط1، 1413 هـ / 1993م.

- **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، الفاسي، عليّ بن أبي زرع، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972.

- **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، لابن بسّام الشنتريني (ت 542 هـ)، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1978-1979.

- **الذيل والتكملة على كتابي الموصول والصلة**، ابن عبد الملك المراكشي، أبو عبدالله محمد بن محمد الأنصاري الأوسي (ت 703 هـ)،

أ- **السفر الأول**، تحقيق محمد بن شريفة، دار الثقافة، بيروت، د.ت.

ب- **بقية السفر الرابع**، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1964.

حـ- **السفر الخامس**، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1965.

د- **السفر السادس**، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1973.

هـ- **السفر الثامن**، تحقيق محمد بن شريفة، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1984.

- **رايات المبرزين وغايات المميزين**، ابن سعيد الأندلسي، أبو الحسن علي بن موسى (ت 685 هـ)، تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط1، 1987.

- **رسائل ابن حزم الأندلسي**، تحقيق الدكتور إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1980.

- **الرعاية التربوية للمكفوفين**، د. لطفي بركات أحمد، جدة، تهامة، 1982، سلسلة الكتاب الجامعي (16).

- **الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم**، المالطي، عبد الباسط بن خليل بن شاهين، نشر الجزء الخاص بغرناطة 1465-1466 م، ليفي ديللا فيدا في مجلة الأندلس، المجلد الأول، سنة 1933، ص307-328.

- **الروض المعطار في خبر الأقطار**، محمد بن عبد المنعم الحميري، حققه إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1975.

- **زاد المسافر وغرّة محيا الأدب السافر**، صفوان بن إدريس التجيبي، ابو بحر (ت598 هـ)، اعدّه وعلق عليه عبد القادر محداد، دار الرائد العربي، بيروت، 1970.

- **سيكولوجية المرضى وذوي العاهات**، د. مختار حمزة، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1964.

- **شاعرات الأندلس**، صلاح جرار، منشور ضمن كتاب: مجلس العوتبي دراسات ومختارات شعرية، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمّان، 1425 هـ/ 2004م ، (ص 11-28).

- **شرح ديوان ابي الطيب المتنبي**، العكبري، أبو البقاء، ضبطه وصححه ووضع فهارسه: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت.

- **شرح ديوان ابي فراس الحمداني**، ابن خالويه، إعداد الدكتور محمد بن شريفة، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، 2000 م.

- **شرح ديوان جميل بثينة**، شرحه وقدّم له مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987.

- **شرح شعر زهير بن ابي سلمى**، صنعة أبي العبّاس ثعلب، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط1، 1402 هـ / 1982 م.

- **شعر ابي البركات ابن الحاج البلفيقي** (نحو 680-771 هـ)، بعناية عبد الحميد عبدالله الهرامة، مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبيّ، ط1، 1416 هـ / 1996 م.

- **الشعر الأندلسي: بحث في تطوّره وخصائصه**، إميليو غرسية غومس، ترجمه عن الإسبانية حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1956.

- **شعر الرمادي**، يوسف بن هارون، جمعه وقدّم له ماهر زهير جرار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1980.

- **الشعر والشعراء**، ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم، مطبعة بريل، ليدن، 1902.

- **الشعر النسوي الأندلسي**: أغراضه وخصائصه الفنية، سعد بوفلاقة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995.

- **الشعر النسوي في الأندلس**، محمد المنتصر الريسوني، قدّم له العلامة عبدالله كنون، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1978.

- (**كتاب) الصلة**، ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت 578 هـ)، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966.

- **صلة الصلة**، ابن الزبير، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي، (ت 708 هـ)، تحقيق الدكتور عبد السلام الهراس والشيخ سعيد أعراب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1413-1416 هـ / 1993-1995 م.
- **كتاب) صلة الصلة (القسم الأخير منه)**، ابن الزبير، أبو جعفر أحمد، نشره، إ. لافي بروفنسال، الجزائر، 1937.
- **طبقات الأمم**، صاعد الأندلسي ت462 هـ، نشره لويس شيخو، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، 1912.
- **طبقات النحويين واللغويين**، الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن (ت 379 هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة الخانجي، مصر، ط1، 1954.
- **طبقات الشعراء**، ابن المعتز ت296 هـ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، مصر، 1956.
- **الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة**، ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى (ت 685 هـ)، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار المعارف، مصر، ط3، 1977.
- **فكاهات الأسمار ومذهبات الأخبار والأشعار**، ابن هذيل الفزاري، أبو الحسن علي بن عبد الرحمن، تحقيق وتقديم وتعليق الدكتور عبدالله حمادي، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، 2004م.
- **القدح المعلى في التاريخ المحلى** (اختصره أبو عبدالله بن خليل)، ابن سعيد الأندلسي، أبو الحسن علي ابن موسى (ت 685 هـ)، تحقيق إبراهيم الأبياري، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1959.
- **قلائد العقيان ومحاسن الأعيان**، الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي الشهير بابن خاقان، حققه وعلق عليه: الدكتور حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، ط1، 1989.
- **الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة**، ابن الخطيب، لسان الدين، تحقيق إحسان عبّاس، دار الثقافة، بيروت، 1963.
- **لسان العرب**، ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، دار صادر، بيروت.
- **اللمحة البدرية في الدولة النصرية**، ابن الخطيب، لسان الدين، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية، 1978.
- **مجمع الأمثال**، الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري (ت 518 هـ)،

حققه محمد محيي الدين عبد الحميد، دار القلم، بيروت، د.ت.

- **المختار من شعر شعراء الأندلس**، ابن الصيرفي، تحقيق الدكتور عبد الرزاق حسين، دار البشير، عمّان، ط1، 1985.

- **مختارات ابن عزيم الأندلسي**، علي بن عزيم الغرناطي (القرن الثامن الهجري)، تحقيق وتقديم عبد الحميد عبدالله الهرّامة، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ليبيا، 1993.

- **مختارات من الشعر المغربي والأندلسي**، تنشر لأول مرة، لمؤلف مجهول، تحقيق إبراهيم بن مراد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1406 هـ / 1986.

- **مرج الكحل الأندلسي** (سيرته وشعره)، الدكتور صلاح جرار، دار البشير للنشر والتوزيع، عمّان، ط1، 1414 هـ / 1993 م.

- **المطرب من اشعار اهل المغرب**، ابن دحية، ذو النسبين أبو الخطاب عمر بن حسن (ت 633 هـ)، تحقيق الاستاذ إبراهيم الأبياري والدكتور حامد عبد الحميد والدكتور أحمد أحمد بدوي، دار العلم للجميع، بيروت، 1955.

- **مطمح الأنفس ومسرح التأنّس في ملح اهل الأندلس**، الفتح بن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله الإشبيلي (ت 529 هـ)، دراسة وتحقيق محمد علي شوابكة، دار عمار ومؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1983.

- **مظهر النور الباصر**، أبو الحسين بن فركون، إعداد: محمد بن شريفة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1991م.

- **معارضات قصائد ابن زيدون**، الدكتور عدنان محمد غزال، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، 2004.

- **المعجب في تلخيص اخبار المغرب**، عبد الواحد المراكشي، ضبطه وصححه محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، دار الكتاب، الدار البيضاء، ط7، 1978.

- **معجم البلدان**، ياقوت الحموي، شهاب الدين ابو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1979.

- **معجم السفر**، السلفي، أبو طاهر أحمد بن محمد، تحقيق شير محمد زمان، مجمع البحوث الإسلامية، إسلام آباد، باكستان، ط1، 1988.

- **المعشرات واقتراح القريح واجتراح الجريح**، الحصري، أبو الحسن عليّ بن عبد الغني (ت 488هـ)، تحقيق محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ط2، 1974.

- **المُغرب في حُلى المغرب**، ابن سعيد الأندلسي، علي بن موسى (ت 685 هـ) تحقيق الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، 1964.

- **المقتبس في اخبار بلد الأندلس**، ابن حيان القرطبي، أبو مروان (ت 469 هـ)، تحقيق عبد الرحمن علي الحجّي، دار الثقافة، بيروت، 1965.

- **المقتبس من انباء اهل الأندلس**، ابن حيّان القرطبي (ت 469 هـ)، تحقيق د. محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1393 هـ / 1973 م.

- **المقتبس (الجزء الخامس)**، ابن حيّان، نشره ب. شالميتا، ف. كورينطي، م. صبح، المعهد الإسباني العربي للثقافة، مدريد، وكلية الآداب بالرباط، 1979.

- **المقتبس من انباء اهل الأندلس**، ابن حيان القرطبي، تحقيق د. إسماعيل العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، 1411 هـ / 1990م.

- **المقتبس (السفر الثاني)**، ابن حيان القرطبي، حققه وقدم له وعلق عليه الدكتور محمود علي مكي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط1، 1424 هـ / 2003 م.

- **المقتطف من أزاهر الطرف**، ابن سعيد الأندلسي، تقديم وتحقيق ودراسة: دكتور سيّد حنفي حسنين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1984

- **المنّ بالإمامة**، عبد الملك بن صاحب الصلاة (ت 594 هـ)، تحقيق الدكتور عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 1987.

- **من شعر أبي حيان الأندلسي**، جمعه وحققه الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، 1966.

- **منتهى الطلب من أشعار العرب**، جمع محمد بن المبارك بن ميمون، تحقيق وشرح محمد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت، 1999.

- **نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان**، ابن الأحمر، الأمير أبو الوليد إسماعيل بن يوسف (ت 807 هـ)، حققه وقدم له: الدكتور محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى 1396 هـ / 1976 م.

- **نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان**، ابن الأحمر، الأمير إسماعيل بن يوسف بن محمد (ت 807 هـ)، دراسة وتحقيق محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، 1967.

- **نزهة الجلساء في أشعار النساء**، الإمام جلال الدين السيوطي (ت 911 هـ)، دراسة وتحقيق وتعليق عبد اللطيف عاشور، مكتبة القرآن، القاهرة، 1986.

- **نكت الهميان في نكت العميان**، صلاح الدين الصفدي ت764 هـ، نشره أسعد الحسيني، مصر، 1984.
- **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، المقّري، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني (ت 1041 هـ)، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968.
- **كتاب الوافي بالوفيات**، **الصفدي**، صلاح الدين خليل بن آيبك، ت 764 هـ، باعتناء إحسان عبّاس، دار النشر فرانز شتاينر، فيسبادن، 1401 هـ / 1981.
- **كتاب الوافي بالوفيات**، ج5 ، ج 6 باعتناء س. ديدرينغ، فرانز شتاينر، فيسبادن، 1981.
- **الوافي في نظم القوافي**، الرندي، صالح بن شريف (ت 684 هـ)، مخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس.
- **الوشاح الأول مقدم بن معافى القبري**، صلاح جرار، مجلة جامعة بيت لحم، المجلد 14، 1995، ص 78-107.
- **وفيات الأعيان وانباء ابناء الزمان**، ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس احمد بن محمد بن ابي بكر (ت 681 هـ)، حققه الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1398 هـ / 1978.
- **يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر**، الثعالبي، أبو منصور عبد الملك النيسابوري (ت 429 هـ)، شرح وتحقيق الدكتور مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الاولى، 1403 هـ / 1983 م.
- يحيى بن بقي (حياته وادبه)، صلاح جرار، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، 1976 / 1977.


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



قراءات في

الشعر الأندلسي





Yaman